فتح الأندلس

أو

طارق بن زياد

تتضمن تاريخ اسبانيا قبيل الفتح الاسلامى ، ووصف احوالهـــا ، وفتحهـــا على يد طارق بن زياد ، ومقتل رودريك ملك القوط

تاليف

جرجي زيدان

دار الهلال بمصر

الاندلس احدى مقاطعات اسبانيا ، واسمها فى الاصل «وندلوسيا» نسبة الى « الوندال » او « الفندال » وكانوا قد استوطنوها بعد الرومان ، فلما فتحها العرب سموها الاندلس ، ثم اطلقوا هذا الاسم على اسبانيا كلها

وكانت هذه البلاد جزءا من مملكة الرومان الغربية الى القرن الخامس للميلاد ، فسطا عليها « القوط » وهم من القبائل الجرمانية الذين رحلوا من اعالى الهند الى اوربا طلبا للعيش والمرعى ، واقاموا فى بواديها

وقد سيطر القوط على مملكة الرومان الغربية قبل سيطرة العرب على المملكة الشرقية ببضعة قرون ، وانشأوا الممالك فى فرنسا والمانيا وانجلترا وغيرها من دول اوربا الباقية الى الآن

وكان فى جملة تلك القبائل قبيلة القوط الغربيين « فيسيقوط » . فسطت على اسبانيا فى القرن الخامس وانتزعتها من الرومانيين ، وانشأت فيها دولة قوطية انتهت بالفتح الاسلامى سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) على يد طارق بن زياد القائد الشهير

وكانت عاصمة مملكة القوط فى اسبانيا مدينة « طليطلة » على ضفاف نهر التاج فى اواسط اسبانيا ، وكانت فى ذلك العهد مدينة عامرة ، فيها الحصون والقلاع والقصور والكنائس والاديار ، كما كانت مركز الدين والسياسة ، وفيها كان يجتمع مجمع الاساقفة كل عام ينظر فى الامور العامة

وكان ملك الاسبان عام الفتح الملك «رودريك» الذى يسميه العرب « لذريق » ، وهو الذى اغتصب الملك اغتصابا سنة ٧٠٩ م مع انه لم يكن من العائلة المالكة ، مما جعل ابناء الملك السابق ينقمون عليه . وكانت اسبانيا تنقسم يومئذ الى ولايات او « دوقيات » يتولى كل دوقية منها حاكم يسمى الدوق او الكونت ، ويرجعون فى احكامهم جميعا الى الملك المقيم فى طليطلة

وطليطلة واقعة على اكمة يحيط بها نهر التاج من الشرق والغرب والجنوب بما يشبه حدوة الفرس ، ووراءه جبال متسلسلة تحجب الافق عن اهل المدينة ، وفيها مغارس الزيتون وكروم العنب ، وغابات السنديان والصنوبر ، وفى منتصف المدينة الكنيسة الكبرى التى جعلها المسلمون بعد الفتح مسجدا ، وهى من الفخامة والمناعة على جانب عظيم . وكان الناظر اذا القى نظرة على ابنية طليطلة من

شاهق تبين فيها من ضروب الأبنية مزيجا من الطرز الرومانية والقوطية . وحول المدينة من الشمال ووراء النهر من الجهات الاخرى مغارس الفاكهة والاثمار وسائر اصناف الاشجار ، اذا اطل الواقف من احدى نوافذ منازلها أشرف عليها كلها

▭

وكان فى جملة قصور الملك رودريك قصر شرقى المدينة فوق اكمة تشرف على ضفاف النهر ، تحيط به حدائق واسعة تحوى صنوف الاشجار والرياحين والازهار ، على مرتفعات تتخللها مجارى الماء على غير نظام مما يزيدها جمالا ، ويحدق بها كلها الا من جهة النهر سور حوله الحراس فى منازل بنوها لهم بجانب أبواب البستان

وكان بجانب قصر الملك قصر صغير متصل به يستطرق الى البستان من جهة وله باب مستقل من جهة اخرى ، وعدة قصور متفرقة فى جوانب ذلك البستان ، بعضها للحاشية وبعضها للامراء ، ومن بينها قصر كبير كان يقيم فيه أولاد الدوقات والكونتات حكام الولايات ، جريا على العادة المتبعة عند ملوك القوط فى ذلك الزمان . فقد كان من عاداتهم ان يجتمع فى بلاطهم فى طليطلة ابناء ولاتهم هؤلاء وبناتهم يقيمون هناك ويربون فى البلاط الملكى معا ، يتعارفون ويتعاشرون فيشبون على ما يرضاه الملك ويتادبون فى خدمته ثم يتزوجون

ففى صباح الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ٧١١ للميلاد كان اهل طليطلة مشتغلين بالاحتفال بعيد الميلاد ، والناس يتقاطرون الى الكنائس والاديار يهنىء بعضهم بعضا ، واكثر الكنائس ازدحاما فى ذلك اليوم الكنيسة الكبرى لان اكبر اساقفة طليطلة يصلى فيها ولان الملك رودريك كان سيحضر القداس بنفسه ومعه حاشيته وكبار رجال دولته ، ولذا غصت الكنيسة على سعتها وامتلأ فناؤها وما جاورها من الشوارع والاسطح بالناس ، على اختلاف الاعمار والاجناس ، تطلعا الى رؤية الملك ومشاهدة موكبه الحافل ، اذ كان لايزال قريب العهد بالملك وقلما رآه اهل طليطلة من قبل فكيف باهل المجاورة ؟ فاغتنموا جميعا فرصة ذلك العيد لمشاهدة الرجل الذى اختلس الملك من « غيطشة » Witiza ملكهم السابق

وقد خرجت النساء من بيوتهن لمشاهدة موكب الملك رودريك ، الا فتاة من أهل البلاط الملكى اغتنمت اشتغال الملك ورعيته بذلك



خريطة بلاد المغرب والأندلس فى عهد الفتوحات الاسلامية

العيد لتخلو الى نفسها وتفكر فى امرها . وكانت هذه الفتاة من بنات الكونتات حكام الولايات ، وتقيم فى القصر الذى يجمعهن جميعا بجوار قصر الملك ، فنقلها الملك منذ بضعة ايام الى القصر الصغير المتصل بقصره . وهو اكرام حسدها عليه كل رفاقها ورفيقاتها ، ولكنه كان سببا كبيرا فى تعاستها وانشغال بالها ، فلما خرج الملك ورجال دولته وسائر أهل البلاط للاحتفال بالعيد اعتذرت هى بانحراف صحتها .

وكان ذلك اليوم صاحيا زاهيا ، يندر مثاله فى فصل الشتاء ، وقد اطلت الشمس من وراء الآكام وارسلت اشعتها على نهر التاج وما على ضفافه من الحدائق وفى جملتها حديقة قصر الملك ، فبخرت ما كان على الاوراق والازهار من الطل ، وكان يوما يحلو للناس الخروج فيه من المنازل الى البساتين لاستقبال اشعة الشمس والتمتع بمناظر الطبيعة ، ولذا اغتنمت الفتاة غياب الملك وحاشيته ونزلت تتمشى فى طرق تلك الحديقة وقد تدثرت برداء من الحرير الاحمر مبطن بالفرو اتقاء البرد ، غطى اكتافها ومعظم جسمها الا ذيل ثوبها (الفستان) الارجوانى المزركش بالقصب فانه ما زال يتلألأ وراءها فى اشعة الشمس . واما راسها فقد كان مكشوفا وعليه شبكة من الحرير الابيض تضم شعرها الذهبى ضمة واحدة وترسله الى ظهرها مستعرضا كأنها خارجة من الحمام على عادة الرومان التى اقتبسها عنهم القوط فى تلك العصور . وكان ذلك الشعر الذهبى يتلألأ من خلال تلك الشبكة خصوصا اذا وقعت عليه اشعة الشمس فى اثناء مرور الفتاة بين الاشجار . على ان اكتساءها بذلك الرداء لم يخف جمال قامتها ورشاقة مشيتها . واما وجهها فقد كان ممتلئا ناصع البياض ، مشربا بحمرة ، يكاد يشف عما تحته ، وقد زاده الانحراف والذبول هيبة وجمالا ، وفيه عينان تجمعان الى الصفاء والزرقة شيئا لا يعبر عنه بغير السحر ، وفم مع صغره لايبدو الا مبتسما ابتسام الجلال والحشمة

سارت الفتاة فى الحديقة ومعظم اشجارها عار من الورق ، واكثر رياحينها خال من الازهار ، كأنها تشارك فتاتنا الذبول والانكسار ، بينما كانت الارض وكأنها بساط من العشب الاخضر ، مرصعة ببعض الازهار التى تتفتح فى الشتاء . فمشت الفتاة وهى لا تبالى بما قد يعترضها فى طريقها من الاغصان المدلاة ، هذا يلطم كتفها وذاك صدرها أو راسها ، وبين يديها امرأة عجوز تحوم حولها وتراعى حركاتها وتزيل العقبات من سبيلها ، وهى ليست اقل منها قلقا ولكن الزمان حنكها ،

ومرور الحدثان علمها ان الاحوال لاتدوم على حال !

وكانت الفتاة تمشي وتلتفت نحو القصر ، ثم ترسل نظرها من خلال الاشجار الى ما يطل عليه ذلك البستان من الحدائق البعيدة وفوقها جبال شامخة يعلو بعض قممها ثلج تنعكس عنه الاشعة كأنها جبال من الفضة ، والفتاة تارة تنزل في واد وطورا تصعد على تل ، والعجوز تقطف لها زهرة من هنا وثمرة من هناك فتتناولها ولا تتكلم كانما حكم عليها بالسكوت !

وبعد برهة انتهت الى اكمة منبسطة تطل على النهر ، يكسوها عشب قصير كأنه بساط من الديباج وقد تطاير عنه الندى بوقوع الاشعة عليه ، فراق لفتاتنا الجلوس عليه والتعرض لأشعة الشمس التماسا للدفء ، وللتمتع بمنظر السماء الازرق الصاف ، فالتفتت الى العجوز وقالت بصوت مختنق لطول السكوت : « ماقولك ياخالة ؟ الا نقعد على هذه الاكمة نتمتع بهذا الطقس الجميل .. ؟ »

فهرعت العجوز وهي تصلح نقابا كانت قد لفت به راسها وحول اذنيها تجنبا للبرد وقالت : « اقعدي حيثما تشائين يا حبيبتي » . قالت ذلك واسرعت الى كرسي من خشب كان في بعض طرق الحديقة وجاءتها به فأبت القعود عليه وقالت : « افضل هذا العشب فان القعود عليه حسن في مثل هذا اليوم ! » فقعدت العجوز بين يديها وهي لاتزال تراقب حركاتها ، وقلبها يحوم حولها ، وقدسرها ارتياحها الى مناظر الطبيعة ، فجعلت ترغبها في تسريح نظرها فيما تشرفان عليه من مجرى النهر وما وراءه من التلال التي تكسوها غابات الصنوبر والزيتون والسنديان ، وما يتخلل الغابات من بيوت متفرقة هنا وهناك وهي تقول : « تأملي يا فلورندا هذه المناظر الجميلة فينشرح صدرك واتركي عنك الاوهام »

وكانت تلك التعزية سببا في هياج شجون فلورندا فقالت : « لقد اذكرتني يا خالة بأمر أحاول تناسيه .. كيف ينشرح صدري وانا فيما تعلمين من انشغال زاده انتقالي الى هذا القصر .. ؟ »

قالت : « وما يخيفك من ذلك الانتقال وقد اصبحت اقرب الى قصر الملك واعز جانبا .. ! ؟ »

فقالت وهي تنظر الى آخر مايقع نظرها عليه من مجرى النهر كأنها ترى قاربا بعيدا : « ان ذلك الانتقال هو الذي اخافني .. وياليته نقلني الى اطراف المدينة ، بل ياليته ارجعني الى والدي ! » . قالت ذلك وشرقت بدموعها فاشتغلت عن النظر الى ذلك القارب بما جال

فى خاطرها من امر والدها وبعدها عنه ووقوعها فى ذلك الخطر

□

وكانت العجوزخالة ام فلوراندا ، وقد احتضنتها من طفولتها وربتها فى بيت والدها ، حتى اذا آن مجيئها الى بلاط الملك على عادتهم الجارية كلفها ابوها ان تكون معها ، فقضت فى عشرتها بضعة عشر عاما ، لم تكن تزداد خلالها الا حبا لها وانعطافا نحوها لما فطرت عليه من الجمال واللطف . فلما رأتها تبكي انفطر قلبها وقالت : « اما الرجوع الى والدك فانه ميسور ، ولكن بقاءك هنا لا ارى فيه بأسا خصوصا لأجل الفونس »

فلما ذكرت العجوز اسم الفونس ظهرت البغتة على وجه الفتاة وكانها كانت فى غفلة وافاقت ، فدق قلبها وصعد الدم الى وجهها فزال ذبول لونها ، ثم تنهدت والتفتت الى العجوز وقالت : « دعينى من الفونس .. حتى الفونس نفسه من اسباب شقائى وقد كنت كما تعلمين احسبه سبب سعادتي . دعينى ابكى »

فقالت العجوز : « مالى اراك تحسبين الشقاء محدقا بك من كل ناحية وانت من اسعد خلق الله ؟ كيف تقولين ان الفونس من اسباب شقائك وهو خطيبك ويتفانى فى سبيل مرضاتك ؟ »

قالت : « اعلم ذلك وهو الذى يزيد بلبالى ! احبه ويحبنى ، ولكن ما الفائدة من هذه المحبة ! ؟ ان الذنب ذنبك ياخالة .. انت علقت قلبى به ، وكنت خالية لا اعرف القلق . سامحك الله ! »

قالت : « لم اندم على ما بذلته من الجهد فى تقريب قلبيكما لانكما متناسبان خلقا وخلقا . وانتما من عائلة واحدة . ولما سعيت فى تقريبكما كان هو ولى عهد هذه المملكة الواسعة . ولما توفقت الى ارتباطكما برباط الخطبة حسبت انى اوصلتك الى اوج السعادة ، لان الفونس كان لا يلبث ان يصير ملكا على اسبانيا كلها فتكونين انت ملكة القوط ، ولم يخطر لى ان يحصل ما حصل من الانقلاب فيسعى اهل المطامع والاغراض فى اهلاك ابيه واخراج الملك الى احد قواده » . ولما بلغت الى هنا خفضت صوتها والتفتت الى ما حولها مخافة ان يسمعها احد ثم عادت الى اتمام حديثها فقالت : « فاذا كنت تعدين خروج الملك من يديه شقاء فلا الومك ! »

فقطعت فلوراندا كلام خالتها وقالت : « لا لا . ليس ذلك سبب شقائى وانما هو انقطاع الفونس عن المجىء الى .. ها قد مضت اشهر

ولم اشاهده ، واظننى لن اشاهده بعد اعوام خصوصا بعد انتقالى الى هذا القصر ، أعوذ بالله من هذا الانتقال ، ان قلبى يحدثنى بسوء سيصيبنى منه ، ولذا ترينني منذ انتقلت اليه وانا منحرفة الصحة لا يهنأ لى عيش »

قالت : « اراك واهمة ياحبيبتى فما فى هذا القصر الا ما يدعو الى انشراح صدرك . واما سبب انقباضك فانما هو شوقك لألفونس ، وهذا مالا الومك فيه وان يكن معذورا فى تغيبه ، لأن الملك يراقب حركاته وسكناته خوفا منه ، لعلمه بما اختلسه من قبضة يده ! »

وكان القارب الذى وقع نظر فلورندا عليه فى أعلى النهر قد توارى بين بعض الصخور ثم عاد فظهر من بينهـا على مقربة من حديقـة القصر . وحالمـا وقع نظر فلورندا عليه خفق قلبها لأنها رات فيه الفونس واثنين من رجاله ، فلم تعد تعلم ماذا تقول ، واكتفت بالاشارة اليه فاقترب القارب من الضفة ونزل الفونس الى البر ، واشار الى الرجلين فنزل احدهما ومشى فى جهة اخرى وظل الثانى فى القارب . وكان الفونس حالما وقع نظره على فلورندا قد سار اليها وعليه لباس القواد الرسمى ، المؤلف من سروال منتفخ قصير مبطن بالفرو الى الركبة ، وحول صدره دراعة مقفلة من الامام ، وفوقها قبـاء قصير ارجوانى اللون وحول خصره منطقة من جلد عريضة ، وعلى راسه قبعة صغيرة لها جناحان من ريش الطير ومن تحتها شعره الاسود يسترسل الى كتفيه

وكان الفونس فى العشرين من عمره ، ولم يستطل شعر عارضيه وشاربيه بعد . وكان أبيض الوجه أسود العينين ، اذا نظرت فى عينيه تبينت فيهما الحب والوداعة مع النباهة ولم تر فيهما شيئا من المكر . وكان قد علق بحب فلورندا مذ كان ابوه على عرش اسبانيا وهو يومئذ ولى عهد المملكة لأنه اكبر أخوته . وكانت فلورندا تستبعد حصولها عليه يومئذ ، ولكن خالتها العجوز سعت لدى الملكة والدة الفونس قبل وفاتها بما لها من الدالة عليها بسبب القرابة التى بينهما ، فنجحت وتعلق الفونس بفلورندا تعلقا شديدا ، وكان يتردد عليها كثيرا ، ويجالسها كل يوم تقريبا ، ثم انشغل عنها بعد وفاة والده بما انتابه من ضياع الآمال ، فضلا عن ان رودريك الملك الجديد وضع عليه العيون والارصاد ، فخاف المجيء اليها ، ولـكنه كان يترقب الفرص لرؤيتها كما كان يسأل عن أحوالها حتى سمع بانتقالها من القصر القديم الى القصر الملاصق لقصر الملك وانها تقيم فيه وحدها ،

فهاجت فيه عوامل الغيرة ولم يعد يستطيع صبرا عن مقابلتها للتمتع برؤيتها واستطلاع فكرها ، فاذا رآها لا تزال على عهدها اسرع فى عقد قرانه بها ، لأنه كان يظنها زهدت فيه بعد خروج الملك من يده .
واتفق احتفال اهل طليطلة بعيد الميلاد فى تلك الفترة ، وخرج الملك فى موكبه الى الكنيسة الكبرى والفونس فى جملة البطانة ، فخطر له وهو فى اثناء الطريق أن يتخلف عن الموكب خلسة ويمضي الى فلورندا ، اذ كان قد بلغه انحراف صحتها فرجح انها لا تخرج الى الصلاة فى ذلك اليوم ، فاختار المجيء فى القارب لئلا يراه احد فى اسواق المدينة . وجاء معه فى القارب اثنان من خاصته ، فلما نزل الى البر أرسل احدهما لاستقدام فرسه حتى يعود عليه راكبا الى الموكب قبل خروج الملك من الصلاة ، واستبقى الآخر فى القارب لعله يحتاج اليه ، ولما وقع بصره على فلورندا لم يتمالك ان اسرع نحوها وهو يثب وثبا !

◻

اما هى فلما راته قادما بغتت وظهرت البغتة فى عينيها ، واسرعت دقات قلبها وارتعدت ركبتاها ، وارادت ان تقف لملاقاته فلم تستطع من شدة التأثر ، وامتقع لونها وشخصت ببصرها اليه وهى لا تصدق انها تراه !. وأما هو فلما دنا منها ولم تقف له ولا رحبت به تحقق عنده ما كان يظنه من زهدها فيه ، وبعد ان كان مسرعا بلهفة المشتاق تباطأ ، وندم على مجيئه وتطفله . لكنه ما لبث ان راى العجوز تهرول اليه وهى تتعثر بطرف ثوبها حتى كادت تقع وهى تقول : « أهلا وسهلا بحبيب القلب الفونس » فاطمأن قلبه ، فمشى حتى اقترب من فلورندا فاذا هى لا تزال جالسة وقد التفت بالرداء ويداها مختبئتان فيه ، حتى اذا وقف بين يديها رفعت بصرها اليه بنظرة خرقت احشاءه ، وقرأ فيها ما لو كتب على القرطاس لملأ عدة صفحات ! قرأ فيها العتب والتعنيف ، وقرأ الشوق والوجد ، وقرأ فيها الحب والغرام والاستعطاف والاستفهام ، فلم يستطع جوابا على تلك المعانى الا بالجثو على ذلك البساط الاخضر وهو يقول بنغمة المحب الولهان : « السلام يافلورندا السلام ! » . ومديده وأحنى راسه كأنه يسألها احسانا فظلت هى شاخصة اليه ، ويداها لا تزالان مختبئتين فى ذلك الرداء ، ولبث الاثنان برهة وعيونهما تتخاطب وتتفاهم حتى غلب الدمع على فلورندا فغشى عينيها ، فحجب عنهما وجه الفونس فاخرجت يدها من الرداء لتمسح عينيها ، فسبقها الفونس الى استخراج منديله ومسحهما به ثم مسح به وجهه وتنشق

رائحته وتنهد تنهدا شديدا ، وأعاد يده فمدها الى فلورندا فلم تمد يدها اليه ، ففهم انها تتعمد ذلك دلالا وعتبا فلم ينتظرها ، بل مد يده وقبض على يدها قبضة ارتعدت لها فرائص الاثنين كأنما مستهما كهرباء قوية !

مضت فترة وهما يتخاطبان بالالحاظ ، ولهما من قراءة الافكار ما يغنيهما عن الالفاظ . وكانت العجوز تتشاغل عنهما بقطف بعض الازهار والاستتار بين الاغصان رفقا بعواطفهما واغضاء عما قد يبدو منهما فى مثل هذه الحال . وظل الفونس ساكتا وقد عول على الصبر حتى تكون فلورندا البادئة بالكلام ، فقضيا برهة واليد فى اليد ، والعين على العين ، والقلبان يتسارعان كأنهما يتفاهمان بالخفقان ، وقد غشى الاعين ماء لامع هو من اكبر دلائل الهيام !

ثم فتحت فلورندا الحديث بنغمة الدلال والعتاب قالت : « ما الذى جاء بك يا الفونس ؟ »

قال : « لا ادرى ما الذى جاء بى ياحبيبتى . فهل تعلمين انت ؟ أما الذى اعلمه فهو انى اسير هواك ، وانى حى برضاك ميت بجفاك . حبيبتى فلورندا : هل عندك مثل ما عندى ؟ نعم اعلم انك كنت تحبينني ، ولكن هل انت باقية على ذلك أو على بعضه ، أم غيرك ما غير احوالنا واضاع آمالنا ؟ »

فادركت انه يشير الى خروج الملك من يده ، فسحبت انامله من بين انامله بلطف ، واظهرت انها تحول وجهها عنه ، ونظرها لا يزال ثابتا فى نظره كأنها تقول له : « اهذا هو مبلغ علمك بالحب وعواطف المحبين؟ » . ففهم الفونس مغزى تلك الاشارة فقال لها : « لم اكن اشك فى صدق مودتك وقد امتزج قلبانا — ولكننى حسبت سوء حظى غيرك ، وانى بعد أن خسرت أبى وملكى جرنى سوء الطالع الى خسارة ماهواثمن من ملك العالم كله ! » . قال ذلك وقد ابرقت عيناه وانبسطت اساريره ، وهو لايزال ينظر اليها ويتوقع أن يسمع قولها فعادت الى السكوت ، والتفت بردائها وحولت نظرها الى مجرى النهر واصغت الى صوت هديره ، فاستولى على الحديقة سكون لم يكن يتخلله الا خرير الماء وزقزقة العصافير ، فلما طال سكوتها بحث الفونس عن العجوز فاذا هى قادمة وفى يدها بعض الازهار فناداها وهو يقول : « تعالى ياخالة كلمى فلورندا ، عساها أن تتعطف على بكلمة ابرد بها لظى وجدى ! »

وكانت العجوز قد وصلت اليهمـا فقدمت الزهور الى فلورندا واجابت الفونس قائلة : « اذا كنت لا تفهم بلا كلام فما انت من اهل الغرام ! اتحتاج مع ما تراه فى فلورندا الى ايضاح ؟ وهل تظن ما يليق بالشبان من التصريح يليق بالفتيات ايضا ؟ » . ثم التفتت الى فلورندا وقالت : « هذا هو الفونس ، كلميه واسأليه ، وقد سمعت منك شكا فى محبته فهل رايت صدق قولى فى ثباته ؟ »

فرفعت فلورندا بصرها اليه وقداخذ الهيام منها ماخذا عظيما حتى ظهر ذلك جليا فيما اعترى عينيها من الذبول واللمعان ، فشخصت ببصرها اليه برهة وهو يكاد يختطفها ببصره وقد نسى مصيبته فى الملك وضياع حقه فيه ، وهان عليه ان ترضى عنه فلورندا ولو خسر العالم باسره ! وفيما هو غارق فى تلك الهواجس سمعها تقول : « هل شككت فى حبى يا الفونس ؟ »

قال : « نعم يا منيتى . والمحب كثير الشكوك ! »

فاطرقت وهى تقول : « صدقت ان المحب كثير الشكوك . فقد خامرنى مثل ماخامرك كما قالت خالتى ، ولكن . . »

فقطع الفونس كلامها وقال : « لا أرى مسوغا لشكك فى ، وانت تعلمين أنى متفان فى هواك . . واما انا فيحق لى ان ارتاب فى بقائك على عهدى لما اصابنى من نوائب الزمان ، فقد كنت ولى عهد هذه المملكة فاصبحت مثل سائر رجالها »

فلما سمعت ذلك ابتدرته بالجواب قبل استيفاء كلامه قائلة : « لما احببتك يامنيتى انما احببت الفونس ولم أحب ولى عهد مملكة القوط . ان الحب لايعتبر الرتب ولا المناصب ، والقلوب يا الفونس تتعاقد وتتحد ، وهى لاتبصر ولا تقيس ، ولا تكيل ولا تزن . وهى لاتتعارف بالتوصيات ولا تعرف المجاملات ، ولاتفرق بين الحقوق والواجبات . . القلب يا الفونس لايرى علامات الشرف ، ولايهوى التيجان ولا يخاف الصولجان . . القلب ياحبيبى لايهوى الا القلب ! »

قالت ذلك وقد توردت وجنتاها وبان الاهتمام فى محياها ، ولطرقت وسكتت وفى ملامح فمها أنها لم تستتم الكلام بعد ، فلم يشأ الفونس ان يقطع سلسلة أفكارها فظل صامتا وهو ينظر اليها نظر المستزيد فلما رأته يتوقع كلامها قالت : « على انى آسفة لخروج هذا الامر من يدك ، لا لأنى أحب ان اكون ملكة ، ولكنى . . » . قالت ذلك وغلب عليها الحياء والغضب معا ، فتزايد احمرار وجهها وقطبت اساريرها التفتت نحو القصر كأنها تخاف رقيبا ، وسكتت . فاشتغل خاطر

الفونس تلك السكوت وادرك بعض مرادها ، ولكنه تجاهل وقال لها : « ولكن ماذا يا فلورندا ياحبيبتي ؟ قولي ، افصحي ! »

قالت وهي تخفض صوتها : « ولكنني لولا هذا التبديل لم اكن اقاسي هذه المتاعب ! لم اكن لاجد نفسي بين انياب الاسد ، وملاكي الحارس بعيد عني ! » وخنقتها العبرات ولكنها استمرت في الكلام فقالت : « ولم يكن لهذا المختلس سبيل الى اقلاق راحتي ! »

فقطع الفونس كلامها وقد ظهرت عليه البغتة واتقدت الغيرة في قلبه وقال : « بماذا اقلق راحتك ؟ هل خاطبك في شيء ؟ هل بدا لك منه سوء ؟ اخبريني ، قولي .. »

قالت : « كلا لم يبد منه شيء ، ولكنني لا احسب نفسي في مأمن خصوصا بعد ان نقلني الى هذا القصر ولم افهم لهذا النقل معنى . ومن هنا كان بقاء الملك في يدك ادعى الى سروري وسعادتي »

فأدرك الفونس الامر الذي تعرض هي به مع ماتوخته من المبالغة في تلطيف العبارة ، وعلم انها تقرعه لتقاعده عن المطالبة بحقوقه . وكان لايزال الى تلك الساعة جاثيا بين يديها فلما سمع قولها احس كأنها صبت ماء غاليا على بدنه ، فوقف وقد غلب عليه الهيام وهان عليه كل شيء في سبيل ارضائها وقال : « يحق لك ان تعيريني يا فلورندا اذا كنت متقاعدا عن هذا الامر ، ولكن لكل اجل كتاب . وقد كنت امسكت عن زيارتك على الا ازورك الا بعد ان احقق رغائبك ، فطال سعيي ولم اصل الى المرغوب فلم اعد اطيق الصبر على بعدك . وقد كنت خائفا من فتورك ولكني رايت فيك من الثبات في الحب ما زادني ثباتا في مسعاي . فاعلمي يا فلورندا ان ما يتوكأ عليه هذا المختلس من احزاب الروم عصابة ضعيفة ، وانما تمكن الاساقفة من تنصيبه رغبة في خدمة رومية ، ثم ان احزاب المملكة ضده ، وفيهم القوط واليهود وكل من يكره الظلم . وليس هذا محل الافاضة في هذا الشان ، ولكنني اقسم لك براس ابي وان كان مائتا .. ان رودريك هذا لا يلبث ان ينزل ويعود الملك الى اصحابه »

وكانت فلورندا تسمع كلامه وهي تنظر في وردة من ورود الشتاء كانت خالتها قد جاءتها بها ، فتشاغلت بنثر اوراقها وهي تصغي لما يقول الفونس . فلما بلغ الى قوله « ويعود الملك الى اصحابه » رمت ما بقي بين اناملها من تلك الوردة ، ورفعت بصرها اليه كأنها تتثبت من قوله أو تتفهم حقيقة مايريد ، ففهم مرادها فازداد تهورا في تصوره ، واوهمه غرامه انه قادر على كل شيء فمد يده ومس اطراف شعره

مسترسل على كتفيه وقال : « واذا كنت لاتثقين بقولي فاني اشهدك على نفسي واشهد هذه الحالة ايضا ان بقاء هذا الشعر حرام على ان لم اف بقولي »

فتحققت فلورندا انه يقسم صادقا ، ولكنها لم تكن تجهل ما يحول بينه وبين تلك الأمنية من العقبات ، فارادت ان تخفف من عهده فقالت : « لاحاجة بنا الى هذه الاقسام ، لاتعرض نفسك للخطر من اجل الملك فانه مجد باطل . وانما المراد ان نكون معا فى مامن من اهل الاعتداء ، ولو فى كوخ من اكواخ هؤلاء العبيد الذين يشتغلون فى الحرث والزرع ! »

فاراد الفونس ان يجيبها فسمع صفيرا فبغت ، والتفت فسمع قرع الطبول وقرقعة اللجم فعلم ان موكب الملك راجع من الكنيسة . وقد وصل الموكب الى القصر وهو لا يزال مستغرقا فى حديثه مع فلورندا ، فندم وتحقق انه اخطأ ولابد من ان يسيء رودريك الظن به . ورأته فلورندا قد بغت وسمعت هي مثل ما سمع فادركت انه ابطأ عن الاحتفال فقالت له : « اذهب الآن بسلام وليكن الله معك .. » . فامسك يدها وودعها وهو يقول لها : « ادعى لى فانك من الملائكة ودعاؤك مستجاب واذكريني فى صلاتك عساى ان اوفق لمرضاتك » . فأجابته باشارة من اهدابها وحاجبيها ، فتحول نازلا نحو القارب ليبعد به عن الحديقة ثم يركب فرسه الى القصر من طريق آخر ، وظلت فلورندا واقفة وهى تشيعه ببصرها حتى توارى فعادت الى هواجسها والعجوز بين يديها ، فرجعتا نحو القصر وفلورندا لا تتكلم لعظم ما قام فى نفسها بعد ذلك الحديث ، وقد ندمت لتعريضها بأمر الملك وخافت ان يجر ذلك الى حبيبها الأذى

اما رودريك فقد سار بموكبه الى الكنيسة فى ذلك الصباح وفى نفسه شاغل من امر الفونس لانه كان يتوقع أن يراه فى الموكب بين الحاشية ، وكانوا قد زينوا الكنيسة للملك زينة باهرة بالرياحين واضاءوا الشموع واوقدوا البخور حتى انتشرت رائحته فيما جاور الكنيسة . وكانت اصوات المرتلين والمصلين تسمع لمسافة بعيدة ، والناس يتزاحمون لمشاهدة مركبة الملك حتى كادوا يدوسون بعضهم بعضا ، والمطلون من الاسطح والنوافذ اكثر من المارين فى الاسواق

ولما اقبل الملك بموكبه خرج الاساقفة لاستقباله ووراءهم وبين ايديهم الشمامسة والرهبان يحملون المشاعل من الشمع ، وبعضهم يحمل الصليب او الكاس ، وما الى ذلك من شارات النصرانية . فترجل

الملك عن بعد وترجل من كان معه ، فكان اول من استقبل الملك رئيس الاساقفة محييا ، فانحنى الملك على يده وقبلها وقبل صليبا مرصعا كان فيها . ومشوا جميعا فى فناء الكنيسة الخارجى والاساقفة ورجال الكهنوت امامهم حتى اقبلوا على واجهة الكنيسة من الغرب فاجتازوا مدخلها ، وهو يتالف من ثلاثة ابواب اوسطها اعظمها ، عتبته العليا بشكل قنطرة مثلثة عليها نقوش محفورة تمثل الملائكة وبعض القديسين والانبياء . فمشى الملك وعلى راسه تاج من الذهب يشبه تاج الرومان وشعره مسترسل على كتفيه وظهره ، وشعر لحيته وشاربيه مسترسل الى صدره ، وكل أشراف المملكة بين يديه بالشعور المسترسلة والقبعات المتشابهة ، والكل مبتهجون بما يشاهدونه من الزهو فى ذلك العيد . وساروا فى صحن الكنيسة بين اعمدة فخمة من الرخام النقى او المرمر ، منصوبة فى ثلاثة صفوف من الغرب الى الشرق يزيد عددها جميعا على ثمانين عمودا ، وعلو الكنيسة من صحنها الى اعلى قبتها ٤٦ مترا ، وطولها يزيد على مائة متر ، وقد زادها فخامة فى ذلك اليوم ما علقوه فيها من الثريات المضيئة بالشموع الملونة والقناديل المنارة بالزيت أمام الصور ، وقد تصاعد البخور وعلت اصوات المرتلين يتخللها غوغاء الناس بالرغم عن سعى الكهنة فى اسكاتهم

ما زال الملك ماشيا حتى استقر على كرسى خاص به بجانب الهيكل ، واستقر سائر حاشيته فى مجالسهم وهم يرسمون علامة الصليب . أما الملك فكان يفعل مثل فعلهم وعيناه شائعتان فى حاشيته من الجماهير كانه يفتش عن ضائع . وكان فى كرسى عن يمينه قسيس كان يلازمه دائما فيقيم معه فى قصره ، ويصلى له صلاة النوم وصلاة الصبح ، وهو الذى يعرفه ويرشده ويعزيه . وكان الملك لا يذهب فى احتفال الا اصطحبه ، ولا يبرم امرا الا بمشورته ، اسمه الأب « مرتين » ، وقد طعن فى السن وشاب شعره ، ودق عضله ، وتجعد جلد وجهه ، واستطالت اسرة جبهته ، وغارت عيناه وزادهما ارسال شعر حاجبيه فوقهما غورا واختفاء . وقد تساقطت اسنانه وانخفضت شفتاه حتى اصبح فمه واديا بين جبلين . وكان فى شبابه وكهولته سريع الكلام فلما صار اهتم خالط كلامه تمتمة تتعب السامع فى تفهم ما يقول ! ثم هو قصير القامة منتصبها مثل قامة الشبان ، شديد التعلق بكرسى رومية لانه ربى فيها فشب رومانى المبدا والغرض ، ولم يكن يحب جنس القوط على الاطلاق ، وكان يحقد على « غيطشة » واولاده

بنوع خاص ، لان غيطشة كان يكرهه لشدة تعصبه لرومية ، فكان لذلك من اكبر المساعدين على تنصيب رودريك ، وكان رودريك لا يقطع امرا الا بمشورته . وكان فى جلة مشوراته ان يضيق على الفونس ولا يسمح بغيابه عن القصر ، وان يكون دائما بين يديه خوفا من أن ينشىء الاحزاب للمطالبة بالملك

فلما وصل الملك الى الكنيسة فى ذلك اليوم كان أول شيء تنبه اليه « مرتين » أن الفونس لم يكن فى جلة فرسان الموكب . فتفرس الملك فيمن حوله فلم يجده بينهم فانشغل خاطره ، ولكنه ما لبث ان شغل عن ذلك برسوم الصلاة وما تقتضيه من الانتباه لحركات الكهنة فى أثناء القداس ، على انه كان يعود برهة بعد اخرى الى البحث عن الفونس خلسة

— ٢ —

انقضت الصلاة وخرج الملك الى موكبه ، وعاد الى البحث عن الفونس فلم يجده ، فركب ودعا الاب مرتين للركوب معه فقضيا مسافة الطريق يتساران فى سبب تغيب الفونس ذلك اليوم . فلما دنا الموكبُ من القصر راى الاب مرتين الفونس مقبلا من ناحيته ، مسرعا على جواده ، وكان عالما بعلاقته بفلورندا فادرك انها هى سبب تغيبه ، ولكنه اقتصر على تنبيه الملك الى قدومه

ولما وصل الملك الى قصره ترجل عند الباب الكبير وصعد بضع درجات عريضة من الرخام تؤدى الى فناء القصر ، ثم الى باحة قائمة على اساطين تستطرق الى بهو متفرع يؤدى الى اجزاء القصر المختلفة وفى جلتها قاعة المجلس . فدخل الملك وقسيسه من طريق خاص يؤدى الى تلك القاعة ، ودخل رجال الدولة وفيهم وفود المهنئين من الطريق العام ، فجلس الملك على عرش مرتفع من الفضة قوائمه بشكل قوائم الاسد والملك فى الملابس الرسمية وعلى كتفه بردة من الديباج موشاة بالذهب ، وعلى راسه تاج من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة، وفى يده صولجان من الذهب ايضا ينتهى بصليب مرصع

وكان رودريك فى نحو الاربعين من العمر ، ممتلىء الجسم ، بارز الصدر والبطن ، قوى البدن ، تلوح فى وجهه امارات البسالة ، عيناه جاحظتان كبيرتان ، وحاجباه غليظان وشعر شاربيه طويل يزيد على طول شعر لحيته وراسه ، فجلس على عرشه وفوق العرش صورة كبيرة

تمثل السيد المسيح مصلوبا ، وعلى جدران القاعة صور دينية عديدة وجلس بجانبه الاب مرتين ، وبين يديه رجال خاصته ، ثم توافد الناس لتقديم التهانى وفى جملتهم الفونس الذى دخل وحيى الملك وهناه كما فعل الآخرون ، وجلس فى جملة الجالسين ، فلما هموا بالانصراف اراد ان ينصرف مثلهم فاشار اليه رودريك ان يبقى ، فاوجس خيفة من ذلك الاستبقاء ولكنه صبر ، حتى اذا خلا المجلس ولم يبق فى القاعة غير الملك والقسيس ناداه الملك فوقف بين يديه فقال له : « ما الذى اخرك عن مرافقة الموكب فى هذا الصباح يا الفونس ؟ »

فبغت الفونس ولم يكن مستعدا للجواب ، لانه لم يكن يظن الملك يهتم لغيابه هذا الاهتمام ولكنه تجلد واجاب : « كنت فى شاغل عاقنى عن القيام بفروض الصلاة بين يدى جلالة الملك »

قال الملك : « من الغريب ان يتفق لك هذا الشاغل فى تذكار عيد الميلاد ، وفى ساعة خروج الموكب ..! » . قال ذلك ، وحول نظره الى صورة فى الحائط تمثل مريم العذراء تحمل طفلها وتشاغل بتمشيط طرف لحيته بانامله ، فقال الفونس : « نعم انه اتفاق غريب ، ولكنه وقع ولا حيلة فى وقوعه ، وانى اتاسف لذلك »

وكان الآب مرتين فى اثناء ذلك مشتغلا بتلاوة بعض الصلوات امام صورة مريم العذراء بصوت منخفض لايسمعه احد ، ولما فرغ من صلاته عاد وتزمل بردائه واصلح قلنسوته ، وجلس بجانب الملك واصغى لما يدور بينهما . فلما رآه الفونس مهتما بالامر اختلج قلبه لعلمه بما يحمله له من ضغينة . اما الملك فلما سمع الاعتذار لم يقبله، ولكنه راى من الحكمة ان يؤجل مناقشته الى ان يقف على راى القسيس فاراد ان يصرفه ، ولكنه سمع القسيس يقول له : « يظهر ان انشغالك كان فى قصر جلالة الملك، او بجوار قصره » . قال ذلك وتنحنح وتشاغل بمسح فمه بمنديله ، فزاد استياء الفونس منه ولكنه خاف اذا اجابه ان يصرح بشىء آخر

واما الملك فانه توسم فى عبارة القسيس شيئا كان يتردد فى ذهنه فاراد ان يقف عليه منه على حدة ، فلم يصبر على الفونس حتى يجيب، بل التفت اليه لفتة الاستخفاف والتهديد والاغضاء معا وقال :

« انصرف الآن يا بنى ، واحترس ان تفعل ذلك مرة اخرى »

فاحس الفونس عند ذلك بفرح سكن له جاشه ، وكأن ثقلا كبيرا نزل عن صدره فتحول نحو الباب ، وخرج وهو لا يكاد يرى شيئا

أمامه لعظم ما قام فى نفسه من اسباب القلق . ولم يكد يخرج من باب القصر حتى انتبه لنفسه ، وتمثل له مركزه وما آل اليه امره بعد خروج الملك من يده . فقد كان على عهد ابيه اذا مر من هناك تسابق الناس الى تحيته ، ولا يبقى احد لا يقف له ، وها هو ذا اليوم يمر والناس يتزاحمون فى فناء القصر فلا ينتبه له احد الا الاصدقاء .. حتى هؤلاء اصبحوا يحاذرون الجهر بصداقته خوفا من ان يسىء الملك ظنه بهم !

خرج الفونس وقد هبت فى نفسه عوامل الغيرة ، وكانت الفاظ فلورندا لا تزال ترن فى اذنيه فتذكر وعده اياها باستعادة الملك فزاده غيظه منه تمسكا بوعده ، فركب جواده وسار توا الى منزله وهو غارق فى بحار الهواجس وقد هان عليه ركوب المخاطر فى سبيل الانتقام لوالده.واسترضاء فلورندا

□

اما رودريك فلما خرج الفونس من مجلسه تظاهر برغبته فى الاستراحة ، فدخل غرفته الخاصة حيث جاء بعض رجال القصر فنزعوا لباسه الرسمى والبسوه ثيابه الاعتيادية ، وهو لا يخاطب احدا منهم فى شىء لاشتغال خاطره بالعبارة التى سمعها من الاب مرتين عن الفونس والقصر ! فلما فرغ من لبس الثياب دعا الأب للغداء معه فجاء ، وبينما هما على المائدة لم يخاطبه الملك فى شىء لوجود الملكة معهما وهو يحب ان يبعد امثال هذه الامور عن ذهنها حتى لا تنتابها الغيرة ، فلما فرغوا من الطعام قال الملك : « يا ابتاه اطلب اليك بعد ختام المائدة بالصلاة ان ترافقنى الى غرفتى . . . » ولم تكن هذه الدعوة غريبة على الملكة لان زوجها كثيرا ما كان يخلو بالأب مرتين مثل هذه الخلوة ، للمخابرة او المشاورة او الاعتراف او غير ذلك . فلما خلوا فى الغرفة قال رودريك : « ما قولك فى صاحبنا اليوم ..؟ »

قال : « اذا كنت تعنى الفونس فارى ان جلالة الملك قد بالغ فى الحلم والرافة فى معاملته .. كيف يتغيب عن موكب جلالتك لأعذار ما انزل الله بها من سلطان؟ » . قال ذلك فى عجلة ، وبنغمة الاستغراب ، بغية التأثير فى الملك ، ولو لم يكن رودريك قد الف لهجته وتمتمته لما فهم منها شيئا !

قال الملك : « ولكننى سمعتك تشير الى عذره اشارة لم افهمها جيدا ! »

فادرك الاب ان الملك يحتال فى استطلاع ما بين الفونس وفلورندا وهو يتجاهل ويتظاهر بأنه يسأل سؤالا بسيطا ، فسايره الاب على فكره وأجابه بنغمة البساطة قائلا : « لم اقل شيئا ، وانما قلت انه تأخر فى القصر .. »

قال : « واى قصر ؟! »

قال : « واى قصر ؟.. قصر جلالة الملك.. كان مولاى لا يعلم علاقته بذلك القصر .. ! »

قال وهو يبالغ فى التجاهل : « لا اعلم أن له علاقة بهذا القصر بعد ان خرج الملك من ايديهم الى يدى .. ! »

قال : « لا اعنى علاقته بالملك .. بل اعنى علاقته بفلورندا ابنة الكونت جوليان ، التى امر جلالة الملك بنقلها الى القصر الصغير منذ بضعة ايام ... »

فلما ذكر اسم فلورندا زفر الملك وخفق قلبه حبا وغيرة ، ولكن انفة الملك ثبتت عزيمته فتجلد كان الامر لا يهمه وقال : « أهى علاقة قرابة ؟.. ام ماذا ؟.. »

قال : « لا يخفى على جلالة الملك أن بين الكونت جوليان حاكم سبتة والد فلورندا وبين غيطشة قرابة اظنها نسائية ، ولكننى اعنى قرابة الفونس من فلورندا بنوع خاص ... »

قال : « اى قرابة ؟.. »

فضحك مرتين وقال : « كنت احسب الملك عارفا بذلك ، لان خطبتهما مشهورة من قبل تولى جلالتكم عرش اسبانيا .. »

فلما سمع رودريك ذلك عظم عليه الامر ، لانه كان يحب فلورندا كثيرا ولم يكن يعلم بهذه الخطبة .. ولكنه لم يكن يخاف خروجها من يده اعتمادا على ما له من السيطرة عليها وعلى خطيبها ، وعول على أن يطمعها بالمال والسلطان ، أو يتهددها حتى تترك الفونس وتعيش معه . ولم يشأ ان يطلع القسيس على ما يجول بفكره ، فتظاهر باقتناعه بهذا الجواب ووقف ، فادرك القسيس ان الملك يريد الانصراف فوقف هو ايضا وانسحب ...

وكان بين غرفة الملك والقصر الذى تقيم فيه فلورندا ممر ليس من سبيل اليه سواه ، فقد بنى على هذه الكيفية لمثل هذه الغاية ، فعول رودريك على مكاشفتها بحبه لعلها تقلع عن محبة الفونس ، ولم

ير ان يستقدمها الى غرفته لئلا تشعر الملكة بذلك وهو انما ينوى معاشرتها خفية عنها ، فأغلق الباب المستطرق الى قصره وفتح الباب المؤدى الى قصر فلورندا . . .

□

وكانت فلورندا بعد ذهاب حبيبها قد انتقلت هى والعجوز من الحديقة الى القصر واخذ الهيام منها ماخذا عظيما ، ولكنها لم تلبث ان انشغلت بمراجعة ما دار بينهـا وبين الفونس فى ذلك الاجتماع فندمت لما فرط من اقوالها المهيجة له على طلب الملك ، وعمدت الى الخلوة بنفسها لعلها تهتدى الى ما يخفف هواجسها ، فدخلت غرفتها وكانت تلك الغرفة تطل على الحديقة من جهة نهر التاج وتحجبها عنه شجرة من شجر اللوز قد تعاظمت اغصانها وتشامخت ، حتى أصبحت فلورندا اذا جلست الى نافذتها لا ترى النهر الا من خلال الاغصان التى كانت قد تجردت فى ذلك الفصل من اوراقها ، فما كادت ترسل نظرها خلالها الى النهر وما وراءه حتى رات القـارب قد بعد عن المكان فارسلت افكارها فى فضاء الهواجس

اما العجوز فانها تحولت الى ايقونة بجانب سرير فلورندا فيهـا صورة المسيح مصلوبا فجثت امامها وقبلتها وجعلت تقرع صدرها وتطلب الى المسيح أن يحفظ الفونس ويوفقه ، ويتم له الزواج بفلورندا ، ولما فرغت من صلاتها قبلت الصـورة وخرجت ، تاركة فلورندا فى هواجسها ، واغلقت البـاب وراءها ، واوصت الخدم الا يقربوا الغرفة لئلا يزعجوها . على ان الخدم لم يكن يؤذن لهم بالصعود الى الطبقة العليا من ذلك القصر ، بل كانوا يقيمون فى الطبقة السفلى ، فاذا ارادت فلورندا حاجة بعثت اليهم مع العجوز

واستغرقت فلورندا فى هواجسها امام النافذة حتى نسيت نفسها وتعبت من التفكير ، ثم احست بالنعاس فاتكأت على سريرها وهى لا تزال فى الحالة التى قابلت بها الفونس ، فراته فى منامها قادما نحوها ووجهه يطفح نورا واحبت ان تقبله فلم تستطع ، فانزعجت ، وافاقت وهى منقبضة النفس . وبينما هى تمسح عينيها لتتحقق انها فى المنام سمعت وقع خطوات ، فنظرت فاذا بالعجوز داخلة من الباب وفى وجهها علائم الخوف ، فجلست فلورندا وقد بغتت وقالت : « ما بالك ياخالة ! ما وراءك ؟ »

قالت : « ما ورائى الا الخير .. لاتضطربى ! » وسكتت

فازداد قلق فلورندا وصاحت بها : « ماذا جرى هل اصاب الفونس سوء ؟ ! »

قالت : « معاذ الله . . ولكن الملك يدعوك اليه »

فلما سمعت ذلك اضطربت جوارحها ، ونسيت هواجسها ، وتشاءمت من تلك الدعوة وقالت : « اين هو ؟ وما الذي يبغيه منى ؟ »

قالت : « لا ادرى يا سيدتى ، ولكنى كنت فى غرفتى اصلح بعض شانى فرايت الملك بنفسه داخلا دخول السارق فبغت لرؤيته ، فسالنى عنك وطلب الى ان ادعوك الى الغرفة الشمالية من هذا القصر، على ان تاتى حالا بالحالة التى تكونين فيها ! »

فوثبت فلورندا من فراشها وقد تحققت وقوع الخطر الذى كانت تخافه ، ولكنها اعتمدت على الله وثبتت جاشها ودنت من الايقونة فقبلتها ، وصلت الى الله ان يشجعها وينقذها من مخالب الشرير ، وطلبت الى خالتها ان تصلى عنها ايضا ، ثم التفت بالرداء كما كانت ومشت وهى تتوسل الى الله من اعماق قلبها ان ينجيها من هذه التجربة — ولا يرتاح المرء فى مثل هذه الحالة الا بالتوسل الى القوى العلوية غير المنظورة !

مشت فلورندا كالذاهب الى القتل ! فلا غرو اذا اصطكت ركبتاها وارتعدت مفاصلها وودت ان تكون تلك الغرفة على مسافة اميال منها . . على انها تشجعت باتكالها على الله حتى اذا دنت من الغرفة سمعت وقع خطوات ، واذا بالملك قد خرج لاستقبالها الى الباب وهو يبتسم لها ويرحب بها ، وقد خيل له ان ابتسامته ستجعلها طوع ارادته ، وانه يكفى ان يظهر ارتياحه لمجالستها لتتفانى هى فى ارضائه !

اما هى فدخلت الغرفة بخطوات ثابتة ، والانفة والعفة يتسابقان الى قلبها ، والغضب والخوف يتجليان فى وجهها ، وهو يسير بين يديها حتى جلس على المقعد ودعاها للجلوس الى جانبه ، فقالت وامارات الحشمة والرزانة بادية فى محياها : « لا يليق بمثلى ان تجلس فى حضرة الملك »

فقال وهو يضحك : « اجلسى يا فلورندا ، فانى لم ادعك الى لاحملك مشاق التجمل ولكننى اردت ان الاقيك وانت فى راحة وسعادة . اجلسى »

قالت : « العفو يا مولاى . . . »

فقطع كلامها وامسك بيدها واجلسها ، فاحست لما لمست يدها يده كأن شيطانا يلمسها ، فاجفلت ، وجذبت يدها من يده ، وجلست

وهي تحاذر ان يلمس ثوبها ثوبه ، فاحس رودريك باجتذاب يدها وكان قد شعر بلمس تلك اليد عكس ما شعرت هي به ، فشق عليه مابدا من نفرتها ولكنه حمله منها محمل الحياء فابتسم وقال : « لا الومك يا فلورندا لما يبدو فى وجهك من البغتة اذ تقفين لاول مرة بين يدى ملك الإسبان ، ولكن اعلمي يا ملكة الجمال انى لم آت اليك بنفسى الا لادعوك الى السعادة . ولا أريد ان تخاطبينى كما تخاطبين الملك ، بل خاطبينى كما تخاطبين رجلا يحبك ويهواك ، ويريد ان يجعلك اسعد فتاة فى هذا العالم ! »

فلما سمعت فلورندا قوله تحققت قصده ، ولكنها احبت التخلص منه بالحسنى فوقفت وهي تقول : « حاشا لمثلى ان تكون غير خادمة حقيرة بين يدى ملك الاسبان الذى يتمثل الناس بشدة بطشه . . ! »

فقطع كلامها وقال : « وما يمنع ان تكونى حبيبتى ايضا ؟ بل ان تكونى مولاتى ومالكة زمامى وزمام مملكتى ؟ ! » . قال ذلك وقد ثارت عواطفه واحمرت عيناه ورجفت شفتاه وهو يحاول التلطف بالكلام والاشارات ، ولكن الخشونة ما زالت غالبة على لفظه وخلقه !

فقالت : « كلا يا مولاى لايمكن ان اكون كذلك . وارى جلالة الملك قد فرط فيما وفق اليه فى دنياه فان هذا الموقف لا يليق بمثلى ! »

فظنها لا تصدق عظم محبته لها ، وانها تخاف ان يكون عاملا على مخادعتها ، فوقف هو ايضا وقال : « يظهر لى انك لم تصدقى قولى . . ويحق لك ان تستغربى ما يبدو من تفريطى . . ولكننى اعترف لك يا فلورندا انك قد ملكت قلبى وروحى ، وتسلطت على كل جوارحى ، فتعطفى على وتلطفى بالقبول »

قال ذلك وهو ينظر اليهـا وقد انحنى نحوها انحنـاء المتذلل المستعطف وبسط يديه وهما ترتعدان من شدة الهياج . . اما هى فلم تعبأ بهذه الظواهر الخادعة فظلت على هدوئها وثبات جاشها وقالت بصوت هادىء : « اقبل ماذا ؟ »

فتوسم من سؤالها قرب قبولها فقال : « ان تكونى شريكة حياتى فتعيشين معى عيش السعادة والرفاء ، وتكونين انت الآمرة الناهية »

فنظرت اليه نظر التوبيخ والاحتقار وقالت : « وجلالة الملكة ؟ ! »

وكانت تلك العبارة اشد وقعا من الصاعقة على راسه ولم يكن يتوقع تلك الانفة من فلورندا ، لانه لم يكن يعرف قيمة العفة ولايدرك قيمة الحرية الشخصية ، ولذلك كان يظن نفسه اذا ابتسم لفلورندا ابتسامة ترامت عند قدميه وسلمت نفسها له ، وقد فاته ان العفة

اثمن مما فى خزائن الملوك ، واسمى مما على عروشهم ، وارقى مما تبلغ اليه مدنيتهم . بل هى سيف قاطع تقف به الفتاة امام الملوك وتحسب أنها اقوى منهم سلطانا واعز شأنا ! ولذلك كان موقف فلورندا بين يدى رودريك موقف الملك امام الملك ، ولم يكن تواضعها فى اول الامر الا رغبة فى التخلص بالحسنى ، فلما رات استرساله فى القول اجابته بكلمة اضطربت لها كل جوارحه ، كلمة ذكرته ارتباطه بزوجته الرباط المقدس الذى لا يجيز له مخاطبة سواها بمثل ذلك . . .

فساءه أن تخجله بتلك العبارة لما تتضمنه من التوبيخ والتعنيف ، ولكنه تجاهل مرادها وظل على اسلوبه بالملاطفة فقال : « يا للعجب من جهالتك وغرورك . . ! ادعوك الى السعادة والشرف ، وامهد لك الطريق اليهما وانت تقيمين العقبات ؟ ! الا تعلمين يا فلورندا ان الامر الذى ادعوك اليه ليس فى هذه المملكة ولا فى غيرها فتاة الا وتنذر النذور للحصول عليه ؟ ! تعقلى ، وارجعى الى رشدك ، واعلمى انك ترفضين سعادة لاينالها الا القليلات ، وشرفا تتطاول اليه اعناق ربات الحجال ! وهل تجهلين انك اذا اطعتنى تنالين عزا لم يحلم به احد من اهلك ، وانك اذا ظللت على غيك اسأت الى ابيك ، لأننى اذا رايت منك الرضاء بما عرضته عليك جعلت والدك من اقرب المقربين من البلاط ؟ ! »

فلما سمعت قوله لم تصبر عن الغضب وأحست بسلطان لها يفوق سلطانه فخاطبته بما لايخاطب به الملوك وقالت وهى تشير باصبعها الى نفسها : « تزعم يا رودريك انك تدعونى الى السعادة والشرف ، وانت انما تدعونى الى الشقاء والدناءة ؟ انك بمخاطبتك اياى بهذا القول ولو تلميحا قد اهنتنى واستصغرتنى . بل انك بتوهمك قبولى ما تعرضه جعلتنى ادنى خلق الله ! . . فاقلع عن ذلك ودعنى وشانى ، فانك صاحب عز وسلطان ، ولك الرقاب والاموال ، واما انا فليس لى الا هذه الجوهرة . . افتسلبنى اياها . . ؟ وهل تظن انك اذا اردت ذلك تستطيعه ؟ ! » . وارتعشت يدها وارتجفت شفتاها وابيضتا من شدة التأثر فاستطردت قائلة : « كلا لايستطيع احد أن يسلبنى هذه الجوهرة ، فانها اثمن من خزائن العالم باسره . . وهى سلاحى وترسى ودرعى ، وهى سبيلى الى السعادة الابدية ! »

فعظم على الملك ما سمعه من توبيخها حتى رقصت لحيته فى صدره ، ولكن هيبة الحق وسلطان العدل غلبا على غضبه فلم يجسر على اهانتها .

على انه لم يقطع الامل فى قبولها فأراد مطاولتها بأن يخلط الجد بالهزل فقال : « وهل ذلك الغلام أحق بك منى ؟ »

فلم يزدها قوله الا عزيمة وثباتا ، وقد ادركت انه يريد الحط من قدر الفونس فقالت : « مهما يكن من امره فانه نصيبى فى هذا العالم ، وهو خطيبى بشرع الله »

فازداد استغرابا لجسارتها وحدثته نفسه ان يجافيها ويستخدم القسوة فى معاملتها ، ولكنه اجل ذلك الى فراغ جعبة حيله من اقناعها بالملاطفة فقال لها : « يظهر يا فلورندا ان صغر سنك لا يزال غالبا على عقلك ، ولولا ذلك لم تفضلى غلاما لاشأن له ولا مقام على ملك ملوك الاسبان ! ولكننى اعذرك على طيشك ، وابيح لك التفكير فى امرك حتى ترجعى الى صوابك ، ولا ترفضى النعمة التى ابذلها لك . . فلا تضيعي هذه الفرصة بما تتمسكين به من الاوهام الباطلة والاعتبارات الفارغة . . وهذا آخر ما ابذله لك من النصيحة . . فتدبرى امرك »

فلما رات ان التوبيخ لم يجد معه نفعا عمدت الى اقناعه بنفس برهانه فسكنت اضطرابها وقالت بنغمة التعقل والرزانة : « يقول جلالة الملك انى اتمسك بالاوهام الباطلة والاعتبارات الفارغة ، فما قوله اذا علم ان جلالة الملكة تراود شابا عن نفسه ، وتطلب اليه ان يعيش معها ويكون شريك حياتها . . ! ؟ »

فلما سمع رودريك قوة حجتها مع ما فى ذلك البرهان من التحقير له هاج غضبه ، ولاح له أن يستخدم العنف فى اقناعها ، وهم ان يأمر بالقبض عليها وتعذيبها لعلها ترعوى عن تمسكها بالفونس ، لانه ظنها لم ترفض الا لاغترارها به وتوهمها فيه القوة او الثروة ، وما زال يعتقد انها اذا تحققت فقر الفونس وضعفه تتركه وتطلب الكفة الراجحة ، فلا ترى افضل لها من ملك الاسبان . . وانما توهم رودريك ذلك لانه لا يفهم معنى الحب الطاهر ولا يدرك منزلة العفة الحقيقية . وما درى ان القلبين اذا تعاقدا كانت السعادة كلها فى تعاقدهما دون أن يكون للغنى او الشرف دخل فى ذلك ، وتوهم ايضا انه اذا حقر الفونس فى عينى فلورندا يزهدها فيه فجاءها من هذا الباب وسكت عماسألته عنه من حيث امراته فقال : « الا تعلمين يا فلورندا ان الفونس من بعض أتباعى ، وان زمامه فى يدى أفعل به ما شئت ؟ ! يظهر انك لا تعلمين ذلك . . ولعلك لا تزالين على ما كنت تعلمينه قبل خروج الملك من يده . . . »

لم يكن ذلك الطعن فى الفونس الا ليزيدها تمسكا به وتفانيا فى محبته ، ولكنها خافت اذا اجابته جوابا عنيفا ان يغضب عليه ويعمل على ايذائه . فاحبت أن تقنعه باللطف لعلها تخفف من غضبه ، ريثما يفتح الله عليها بالفرج فقالت : « اذا صح ان الانسان لا يجب ان يحب غير الذى يكسبه مالا او شرفا ، فما الذى حبب جلالة الملك فى هذه الفتاة الحقيرة حتى اراد ان يجعلها سيدة اهل عصرها كافة ؟ واذا كانت القاعدة ان نهمل الفقراء والا نحبهم فما أجدر مولاى الملك بأن يرذلنى ويطردنى من حضرته لانى لا اعد شيئا بجانب سلطانه ورفعة مقامه !.. فارجو مولاى ان يفعل ذلك فانه اولى بمنصبه واحفظ لكرامته .. » قالت ذلك وقد توردت وجنتاها من عظم تأثرها وهياج عواطفها واصطكت ركبتاها حتى لم تعد تستطيع الوقوف ، ولكنها تجلدت وتشاغلت بملاعبة اطراف جدائلها بين أناملها ولبثت تنتظر جواب رودريك الذى تبين رباطة جأشها وقوة حجتها فراى ان يأتيها بالحيلة ويترك العنف الى ما بعد فراغه من الحيل .. ذلك انه لما آنس تمسكها بالفونس وتعلقها به تبادر الى ذهنه أن ابعاده عنها يغيرها ويحملها على قبول سواه ، فتظاهر بامر طرأ على خاطره بغتة فقال : « لا ازال اعتقد اغترارك بالوهم ، وقد طرأ على امر يستعجلنى الى القصر الآن وما ذاك الا من حسن حظك ، لانى اترك لك بذلك فرصة تعملين الفكرة فيها لعلك ترجعين الى رشدك . فاذا لم ترجعى بعد هذه الفرصة فلا تلومى الا نفسك ! » . قال ذلك بلهجة شديدة ومشى حتى خرج من الغرفة وترك فلورندا وحدها

اما هى فقد سرها هذا التأجيل لعلها تجد سبيلا للنجاة . فمشت نحو غرفتها وقد فاضت اشجانها وعاد اليها الخوف وتزايد اضطرابها ، فلقيتها العجوز بباب الغرفة فابتدرتها بالسؤال عما جرى فلم تجبها ولكنها ظلت سائرة حتى اقبلت على ايقونة المسيح فجثت امامها وقرعت صدرها وقد خنقتها العبرات ، وتحول تجلدها ورباطة جأشها بين يدى رودريك الى الحزن والكآبة ولم تر لها فرجا بغير البكاء فجعلت تتضرع الى صاحب تلك الايقونة بدموع حارة ، وبعبارات صادرة عن قلب طاهر يتدفق محبة وتقوى

فلما رأتها العجوز جاثية جثت الى جانبها وصلت معها وكلما قالت فلورندا عبارة امنت العجوز لها . وكان فى جملة صلاتها قولها : « ابعد عنى ايها المخلص هذه التجربة ، وغير قلب هذا الملك ليرجع الى طاعتك ويشعر بفظاعة الامر الذى هو عازم على ارتكابه .. ارشدنى يارب الى

سبيل انجو به من هذه الاشراك .. واحفظ عبدك الفونس من كل شر ، واحرسه ، وكن معه .. واجمعنا ايها المخلص لنعيش معا بتقوى الله ومرضاته .. تحنن على هذه المسكينة الغريبة .. هذه الفتاة التعسة التي ليس لها ملجأ سواك.. انت ملجأ البائسين والضعفاء .. لا تسمح يارب بوقوع هذا الشر فى تذكار ميلادك المجيد .. »

وكانت كلما قالت عبارة تقرع صدرها وخالتها تقول : « آمين » وهما تذرفان الدموع السخينة . فلما فرغتا من الصلاة نهضتا ، واحست فلورندا بانبساط نفسها وارتياح ضميرها ، وشعرت كأن الاخطار قد زالت عنها وقد القت متاعبها عند الله .. ومثل هذه الراحة لايشعر بها غير اهل الايمان الوطيد . فان احدهم اذا احدقت به مصائب العالم تحملها بالصبر ، واذهب آثارها بالصلاة . والبكاء من اقوى مذهبات الانقباض . فكثيرا ما يشعر الانسان بضيق فاذا بكى زال ذلك الضيق . ويغلب هذا الشعور فى النساء أكثر مما فى الرجال

فلما زال اضطراب فلورندا جلست تفكرفى سبيل نجاتها واستغرقت فى الافكار والعجوز جالسة القرفصاء تنظر ما يبدو منها

- ٣ -

فلنترك فلورندا فى تاملاتها ولنرجع الى الفونس ، لنرى ماكان من امره بعد ذهابه الى منزله . ولم يكن منزله بعيدا عن قصر الملك ، فلما وصل اليه ترجل وسلم الجواد الى بعض الخدم وهم بالدخول ، فأحس بشيء استوقفه فوقف لحظة ثم دخل حتى اتى غرفته ، فرأى خادمه الخاص واقفا ببابها ينتظر قدومه ليبلغ اوامره الى من يريد

وكان ذلك الخادم كهلا قصير القامة ، جاحظ العينين ، اعقف الانف ، بارز الذقن ، ذا لحية قصيرة منفصلة الى شعبتين مخروطتي الشكل ، بارزتين نحو الامام ، دب الشيب فى طرفيهما ولا يزال اصل اللحية عند الذقن اسود اوهو كستنائي اللون.. وكان اسمه يعقوب ، ولم يكن له عناية بتسريح شعره فكان الاهمال ظاهرا فى لحيته حتى لقد تحسبها جذاذة نعجة تلبد صوفها وتشبك ثم نبشت اطرافها ! على ان وجه الرجل كان على الاجمال مضحكا لبروز الانف وجحوظ العينين وبروز اللحية على تلك الصورة . وكان مع ذلك كثير الحركة خفيف الروح لاينفك وجهه ضاحكا . وكان قد ربى فى بيت غيطشة قبل تملكه ، فلما ملك قربه منه وكان يثق به ويعهد اليه بأموره ويسر

اليه كثيرا من آرائه ، واهـل القصر يحسـدونه على ذلك التقرب خصوصا لأنه غير قوطى ، لم يكونوا يعرفون اصله ولا كيفية وصوله الى ذلك المنصب ! حتى اذا ما دنا اجل غيطشة أوصى اولاده به واوصاه بهم ، خصوصا الفونس ، فقد اوصاه بالاعتماد على يعقوب فى كل مهماته . وكان الفونس قد تعود احترامه والوثوق به من عهد والده ويعقوب يتفانى فى خدمته . وقد لايظهر لمن يراه لأول وهلة انه ذو راى او همة لما يبدو فى وجهه من ملامح المجون مع خفة الروح ، ولكنه كان فى مقام الجد من اكثر الناس جدا وهمة !

فلما وصل الفونس الى غرفته استقبله يعقوب ضاحكا وفتح له الباب فدخل دون أن يكلمه على خلاف عادته من ممازحته ومداعبته ، فأدرك يعقوب انه فى شاغل مهم فوقف لا يخاطبه فى شىء لئلا يعترض مجارى افكاره او يثقل كلامه عليه .. اما الفونس فاول شىء فعله عند دخوله الغرفة انخلع قبعته عن راسه ، ونزع سيفه وعلقه على الحائط ، وجلس على كرسى من الخشب بجانب نافذة تطل على مغارس طليطلة عن بعد ، وارسل بصره فى ذلك الفضاء وما زال النهار صاحيا والجو صافيا .. لبث برهة لايتكلم ثم التفت بغتة وصاح : « يعقوب ! » فاذا هو بين يديه . فقال له : « هل جاء عمى الى هنا فى اثناء غيابى .. ؟ »

قال : « كلا يا مولاى انه لم يات .. الم تجده فى الكنيسة .. ؟ »

فتذكر الفونس الصلاة فتبادر الى ذهنـه ان عمه كان فى جلة المصلين لأنه مطران (متروبوليت) ولكنه عاد فتذكر انه بالنظر لما بين عائلته وبين عائلة الملك من التباعد سار للصلاة فى كنيسة اخرى . فقال ليعقوب : « اتظنه سار الى الكنيسة ؟ ولماذا لم تذهب انت للصلاة ايضا .. ؟ »

قال : « كنت مشتغلا بأمور البيت .. وقدصليت هنا .. الا يكفى ذلك ؟ .. »

قال الفونس وكأنه تذكر امرا كان قد ذهب عن خاطره : « سامحنى فانى نسيت وصية والدى الا اسالك عن الصلاة .. ما رايك فى عمى المطران ؟ انى فى حاجة اليه » . قال : « مر ، وأنا أستقدمه على عجل ولو كان فى رومية ! » . قال ذلك وتبسم فادرك الفونس انه يلمح الى ما بينهم وبين رومية من التنافر . فاستحسن منه هذا المجون وقال له : « لا اظنه بعيدا بهذا المقدار .. الى به »

فخرج يعقوب الى غرفة الخدم فبعث خادما يفتش عن المطران فى الكنيسة وآخر يفتش عنه فى بيته ، وثالثا فى مكان آخر من مظانه ،

ورجع وهو فى شاغل من امر الفونس ولكنه لم يتجاسر على استطلاع امره . فلما وصل الى الغرفة اخبرالفونس بما فعله وظل واقفا وهو يلاعب اطراف لحيته بين أصابعه وينتظر امره ، فلم ينتبه الفونس له لاستغراقه فى هواجسه ، وقد تزاحمت الافكار فى مخيلته واكثرها بروزا امر الملك وكيف استبد رودريك فيه واستخف به ، وكيف انه بعد ان كان مطمح انظار وجهاء المملكة اصبح مثل احقرهم .. وفكر فى وسيلة لانتزاع الملك منه فاذا هو قاصر من كل وجه ، لا مال عنده ولا رجال ، ولا شىء يقاوم به . ثم تذكر فلورندا وانه عاهدها على اخراج الملك من يد رودريك ، فكيف يرجع عن عهده عاجزا مقهورا ؟! فتجسم لديه المصاب وثقل عليه الفشل ، وندم على ما فرط منه بين يدى حبيبته من القسم ، فضاق صدره ، وصغرت نفسه ، وغلب عليه اليأس ، فتناثرت الدموع من عينيه بالرغم منه — والدمع يفرج الكرب حيث لايرى المرء مخرجا من ضيقه !

وكان يعقوب مايزال واقفا فسمع تنهد الفونس، ثم لحظ من بعض الحركات انه يبكى ، فادرك انه يفعل ذلك وهو يحسب نفسه فى خلوة فانسل دون ان يشعر به الفونس حتى جلس على كرسيه بجانب الباب ، وقد اشتغل خاطره بالفونس فعزم على استطلاع امره من المطران بعد مجيئه وقد كانت له عليه دالة كبرى

ومضت برهة ثم عاد احد الرسل وانبا يعقوب بقدوم المطران ، فتذرع بذلك لمخاطبة الفونس فدخل عليه واخبره بقدوم عمه . وكان الفونس قد فرغ من بكائه وذهب بعض انقباضه ، فلما علم بقدوم عمه لم يسعه الا الابتسام لشدة ما كان له من الثقة فيه لاشتهاره بسداد الراى والتعقل ، مع محبته لالفونس

وكان اسمه اوباس (عباس) وهو طبعا مثل الفونس يعتبر رودريك مختلسا ، وكان قد بذل جهده فى عدم انتخابه فلم يفلح ، لان حزب الاساقفة الرومانيين غلب على رايه ، ولانه المطران الوحيد من امة القوط ، بينما سائر اساقفة طليطلة من الرومان او الذين ينتمون لرومية ، ولذلك غلب رايهم .. وكان اوباس منذ تولى رودريك معتزلا الاعمال الا عند الضرورة . وكان فى ذلك اليوم قد صلى صلاة العيد فى منزله ، ثم خرج بعد الصلاة للجلوس فى حديقة المنزل لانه لم يكن يطيق ان يرى رودريك فى ذلك الموكب بدلا من ابن اخيه ، فلما جاءه الرسول يدعوه الى الفونس لبس رداءه وقلنسوته وجاء مسرعا وكان اوباس حيوى المزاج ، طويل القامة طويل الاطراف ، عريض

المنكبين والجبهة بارز الوجنتين والفكين ، واسع الصدر ، اسمر اللون ، غزير الشعر ، خصوصا شعر لحيته فقد كان مرسلا على صدره الى اسفل منطقته . واصحاب هذا المزاج فى الغالب اقوياء الارادة مع علو الهمة وقوة البدن وعظم الهيبة . وهم كبار فى كل شىء مارسوه من الحرب او التجارة او السياسة ، لانهم يمتازون غالبا عن اصحاب الامزجة الاخرى ويفوقونهم فى كل شىء . وكان اوباس مع ذلك بطىء الخطوات كثير التفكير ، قليل الكلام جهورى الصوت ، وكان قوله سديدا ورايه صائبا

وبعد قليل سمع الفونس خطوات عمه وكان يعرفها ببطئها وثباتها وشدة وقعها فوقف لاستقباله ، فلما دنا من باب الغرفة تقدم اليه وقبل يده فباركه ، وتقدم يعقوب فقبل يده فباركه وهو يبتسم له مع انه كان قلما يبتسم لاحد ، ثم دخل الغرفة مع الفونس الذى اسرع باغلاق الباب التماسا للخلوة ، فنزع المطران قلنسوته فاسترسل شعر راسه الى كتفه وكان غزيرا جدا ولم يوخطه الشيب مع انه فى نحو الخمسين من عمره

ونظر اوباس فى وجه الفونس فرآه يبتسم ، ولكنه تبين الدمع فى عينيه واثر الانقباض فى اسرته فاثر منظره فى نفسه فقال له : « مالى اراك كاسف البال يا بنى ..؟ »

فلم يتمالك الفونس من ارسال دمعتين اخريين وهو لايزال مبتسما ولكنه تجلد وقد ارتاح لرؤية عمه فقال : « لا اظننى اشكو اليك امرا لا تعرفه .. بل اظنك تشكو مثل شكواى ايضا ... »

فقال : « فهمت مرادك يا ولدى ... ولكن هذا الامر الذى تشكو منه قد اصبح قديما فلا بد من امر حدث لك وجدد احزانك »

قال : « صدقت يا عماه .. واما ما جدد احزانى فوقوفى بين يدى ذلك الوحش الكاسر فى هذا الصباح وقفة خادم بين يدى سيده .. وقفت وقد استصغرت نفسى حتى حسبتنى ذبت حياء ، ولا ادرى ماذا كان يصيبنى لو طال وقوفى .. ولما خرجت من القصر رايت رجال الحاشية لا يعبأون بمرورى بعد ان كانوا اذا مررت يتسابقون الى تقبيل يدى ..! »

فقال اوباس : « وما الذى دعا الى وقوفك هذا الموقف وعهدى برودريك قلما يدعوك اليه ؟! »

فقال : « لانى تاخرت عن موكبه فى هذا الصباح ، فلم ادركه الا وهو راجع من الكنيسة .. »

قال : « ما كان اغناك عن هذا التاخير فلم تكن تسمع تعنيفا ولا تتحمل ملاما حتى يقضى الله امرا كان مفعولا ... وما الذى اخرك عن الاحتفال ؟ »

فلم يخجل الفونس ان يقص على عمه سبب تأخره لان عمه مطلع على ما بينه وبين فلورندا من المحبة المتبادلة ، وهو الذى وضع عربون الخطبة بينهما فقال له : « سبب تاخرى انى زرت فلورندا فى هذا الصباح بعد ان طال غيابى عنها . وانت تعلم انقطاعى عن ذلك القصر وضواحيه منذ ابتليت بمصيبة ابى . وكنت احسب فلورندا تغيرت فزرتها لاتحقق امرها فطال الحديث حتى نسيت الموكب ، فلم انتبه الا وهم عائدون من الكنيسة ، فأسرعت للانضمام اليهم ولم اكن اظن الملك يرقب حركاتى الى هذا الحد . فلما دخلت عليه استبقانى الى ما بعد خروج المهنئين وعنفني تعنيفا لم يكن شديدا فى ذاته ، ولكنه وقع على راسى وقوع الصاعقة .. »

قال ذلك وكاد يشرق بدموعه ، فلم يبال اوباس بهذه الدموع لاستصغاره مثل تلك الظواهر – ظواهر الضعف البشرى – بل ظل ساكتا فى انتظار بقية الحديث . اما الفونس فلما راى عمه لا يزال مصغيا له استطرد الكلام فقال : « ومما زادنى قهرا ان ذلك القسيس الهرم كان يحاول ايقاعى فى الشرك حتى نبه رودريك الى علاقتى بفلورندا ... وكنت اقرا سوء القصد خلال عينيه الغائرتين ، ومن وراء الفاظه المختلطة ... »

قال : « اراك يا الفونس متهيج العواطف كثيرا ولا فائدة من ذلك .. ولاعبرة بلفظ تسمعه او اشارة تراها ، فانها حركات طائرة فى الهواء ، وما هى من الحقيقة فى شيء ... فخفف عنك وارجع الى صوابك ، وابحث فى الامر بحثا معقولا »

فعجب الفونس لقول عمه ، وشعر بصغر نفسه وضعفه ، ولكنه لم يستطع امتلاك عواطفه فقال : « وكيف لا نعبأ بالاقوال ... وكيف استطيع الصبر على الاهانة والاحتقار ؟ ! اترضى يا عماه ان نكون ارقاء لذلك المختلس ؟ ! » . قال ذلك والحدة بادية فى صوته ، فأجابه اوباس بصوت هادىء : « لا »

قال : « فكيف تقبل هذه المعاملة وتقول انها حركات طائرة فى الفضاء .؟ انني لا استطيع الصبر على ذلك .. ان الموت لخير من الحياة مع هذه الاهانة ! »

فقال اوباس : « لا اقول ان الاهانة حركات فى الهواء ، ولكننى ارى

الكلام الصادر عن الحدة والغضب بلا روية ، اشبه بحركات طائرة فى الهواء لا فائدة منها . . »

فخجل الفونس من ذلك التوبيخ اللطيف ولكنه ظل مندفعا فى تيار العواطف فقال : « اتلومنى يا عماه على غضبى وقد قتلوا ابى واختلسوا ملكى ، ثم ضيقوا على فى ذهابى ومجيئى كأنى بعض عبيدهم ! ؟ ماذا تريد أن أفعل بعد ذلك . . ؟ »

قال وصوته لم يرتفع : « اريد ان تنظر فى الامر بعين العقل وبالروية ، لان الحدة تذهب الرشد وتسوق الى الخطأ . وربما يخيل لك اذا رايت هدوئى وصبرى انى اقل منك استنكافا من احوال هؤلاء . ولكننى افكر كثيرا واقول قليلا . . وسترى متى سكن جأشك ودار الحديث بيننا انى قضيت العامين الماضيين وانا اسعى فى الامر الذى لم يخطر ببالك الا اليوم . . وانت انما ذكرته على اثر انفعالك وغضبك ، بعد أن لاقيت خطيبتك وعنفتك على ضعفك . واما أنا فانى لا أندفع بالغضب ، ولا اغضب للكلام الفارغ ، ولكنى انظر بعين الحقيقة . . فقد كنت اتوقع منك هذه الحمية فى اول يوم خرج فيه الملك من يدك ، بقطع النظر عما يلحق بك من الاهانة ، او ما قد تسمعه من التعريض او التوبيخ . . ! »

فلما سمع الفونس كلام عمه تهيب واتعظ لما آنسه فيه من الرزانة والجد وقوة العزيمة ، وشعر بصغر نفسه لما تحمله من الضغط فى السنتين الماضيتين دون ان يشكو فاراد ان يصلح ما بدر منه من دلائل الضعف فتحمس وقال :

« لقد اصبت يا عماه . . انى تهاونت فى هذا الامر ولم اكن احسبك على هذا العزم ، أما الآن فاشر على . اشر على بالذى افعله لاسترجاع ما اختلسه هذا الرجل منا »

وكان أوباس منذ شرع فى هذا الحديث قد أخذت علامات الانقباض تبدو فى محياه فازداد هيبة وجلالا ، واستغرق فى الافكار وقد ارسل بصره من النافذة الى الفضاء ، فكان الناظر فى وجهه يتبين استغراقه فى الهواجس من ثبات بصره على لا شيء ، كأنه ينظر الى صور تمثلت فى مخيلته منها المخيف المغضب ، والمفرح المنشط . . وكانت ظلال تلك العواطف تتجلى فى عينيه البراقتين ، ولو احسن الفونس الفراسة لقرا افكار عمه فى عينيه واسرته ، وكفى نفسه مؤونة الاستشارة والمداولة . ولكنه لم يكن على شيء من ذلك فلما فرغ من كلامه صبر لسماع ما يقوله عمه ، فاذا هو ما زال غارقا فى الهواجس وهو يلاعب

اطراف جدائل شعره بأنامله كأنه لم يسمع شيئا من ابن اخيه . فتهيب الفونس منظره ، ولم يجسر على ان يشوش عليه افكاره فظل صامتا

مضت لحظات قليلة وكلاهما صامتان ثم فتح أوباس الحديث فقال : « هل ادركت يا الفونس المشروع العظيم الذى تعرض نفسك له وما هو الامر الذى تطمح انظارك اليه ..؟ »

قال : « كيف لا ..؟ انى التمس امرا هو حق لى لا ينازعنى فيه احد »

قال : « فهمت ذلك ... ولكن هل دبرت الطريقة التى تستطيع التغلب بها للقبض على أزمة الاحكام ..؟ »

قال : « اعرض لديك رأيى وأنت صاحب الرأى »

قال : « قل »

قال : « لا يخفى على عمى العزيز ان القوة التى ساعدت رودريك على تسنم ذروة الملك انما هى قوة الرومان خصوصا الاساقفة . واما رجال القوط اهلنا وعشيرتنا فانهم لا يريدونه ، وهؤلاء جماعة كبيرة اذا اتحدوا هم ورجالهم واتباعهم تألف منهم جند كبير يغلب جند رودريك ، فلا يصعب علينا اذ ذاك اخراج الحكم من يده ، اما بالتنازل واما بالقتال »

فابتسم أوباس ابتسامة مغتصبة دلت على استخفافه برأى ذلك الشاب قليل الاختبار ثم قال : « صدقت يا ولدى ان القوط اكثرهم على دعوتنا ، ولكن هل تظنهم اذا دعوتهم الى الحرب ينهضون ؟ لا اظن شكواهم من هذا الملك تخرج عن حدود الكلام . ولا لوم عليهم ، فهم يخافون على ارواحهم واموالهم ، على ان اكثرهم لا يرون بأسا من بقاء رودريك وغيره من صنائع الرومان لاشتراكهم معهم فى المذهب ، فانهم جميعا تابعون لكنيسة رومية ، وقد تغلب الاساقفة الرومان على آرائهم وعلى قلوبهم كما تغلبوا على حكومتهم ، حتى نسوا جنسيتهم »

وكان أوباس يتكلم بصوت هادىء وتأن ولم يبد الهياج فى عينيه الا لما وصل الى هذا القول ، على ان الرزانة ظلت غالبة على حركاته . ولكنه سكت هنيهة والفونس ينظر اليه ويتوقع اتمام الحديث ، فقال أوباس وهو يجدل شعر لحيته بين انامله على سبيل التشاغل : «سامح الله ريكارد ، فانه هو الذى جر علينا هذا البلاء ! »

فلم يفهم الفونس معنى هذا الكلام ، اى ان ريكارد احد ملوك القوط وكان من رجال الحرب والسياسة ، حكم اسبانيا زمنا طويلا فى اواخر القرن السادس للميلاد

فقال : « ما الذى ارتكبه ريكارد يا عماه حتى استوجب هذا الملام ، والذى أعلمه انه هو الذى حفظ لنا مملكة الاسبان ودفع الافرنج (الفرنك) عنها ؟ »

قال : « صدقت يا ولدى انه نجانا من الفرنك ، ولكنه القانا فيما هو اعظم خطرا منهم »

قال : « وما هو ذاك ؟ »

قال : « ألا تعرفه ؟ ألا تعرف ان ريكارد هو الذى اضاع جنسيتنا ، وحل جامعتنا ؟ ! »

ولم يفهم الفونس مراده فقال : « لا يا مولاى ، فكيف كان ذلك ؟ »

قال : «ألا تدرى يا الفونس أن ريكارد هو الذى جعل مذهب كنيسة رومية (الكاثوليكية) مذهب حكومة اسبانيا ؟ »

قال : « نعم . الا تظنه فعل حسنا ؟ »

قال : « نحن الآن على مذهب هذه الكنيسة ايضا ، وقد ربينا فى حبها ولا بأس منها . ولكننى انظر فى الامر من وجهه السياسى . انظر فيه من حيث جامعتنا القومية . فقد جاء أسلافنا القوط منذ بضعة قرون ، وكانت هذه البلاد فى حوزة الرومان فانتزعوها من ايديهم بالقوة وتسلطوا عليها . ولا يخفى عليك ان مذهب أسلافنا الذى جاءوا به الى البلاد ليس الكاثوليكية مذهب كنيسة رومية ، بل هو المذهب الآريوسى نسبة الى آريوس الشهير . وكان ذلك مذهب معظم قبائل القوط قبل خروجهم على المملكة الرومانية ، ففتحنا هذه البلاد وقضينا فيها نحو مائتى سنة ونحن على مذهب آريوس ، واهل البلاد على مذهب كنيسة رومية .

« ولا أخفى عليك ان ملوكنا الاقدمين لم يهتموا بنشر مذهبهم ولم يفقهوا علاقة الدين بالسياسة ، ولكن الرومان لم يغفلوا عن اغتنام الفرص لاسترجاع سلطانهم بطريق الدين ، فجعلوا يتدخلون فى مصالح الدولة رويدا رويدا ، ويبثون مذهبهم فى الرعايا بوسائل مختلفة حتى تولى ريكارد المذكور منذ قرن وبعض القرن ، فاستولوا على عقله حتى نبذ ديانة اجداده واعتنق المذهب الكاثوليكى وجعله مذهب الحكومة الأسبانية ، فاقتدى به رجال دولته وسائر اشراف المملكة ، فتم النفوذ لرومية حتى اصبح مجمع الاساقفة الذى يجتمع فى هذه المدينة يدير دفة الملك كما يشاء ، وربما أتوا بالاوامر من رومية نفسها . وما زالت الكاثوليكية ديانة هذه المملكة الى اليوم ، ولم يبق للآريوسية الا اثر قليل جدا . ولا ريب عندى أن الذين استبدلوا الكاثوليكية بمذهبهم

فى اول الامر انما صنعوا ذلك مسايرة لريكارد لا عن اقتناع بالبرهان ، لأن مذهب آريوس اقرب الى احكام العقل من سائر مذاهب النصرانية»

فلما وصل أوباس الى هنا أحس بانه أفرط فى الكلام بين يدى ذلك الغلام ، وقد تحقق تفريطه مما بدا فى وجه الفونس من دلائل الاستغراب لما غرس فى ذهنه منذ طفولته من تقبيح الآريوسية ، حتى انه كثيرا ما سمع تقبيحها من عمه نفسه . وادرك أوباس ما جال فى خاطر ابن اخيه فاستدرك قائلا :

« لا يغرب عن ذهنك يا ولدى انى لا احبب اليك الآريوسية دون سواها ، فاننا لا نفضل مذهبا على مذهبنا الحالى ، ولكننى اخاطبك بلسان السياسة لا الدين ، لأبين لك نتائج الخطأ الذى ارتكبه ريكارد سامحه الله . لانه باعتناقه المذهب الكاثوليكى اضاع الجنسية القوطية — لان الدين يا عزيزى اثبت الجامعات واشملها . اذ قد يجتمع القوطى والفندالى والرومانى واليونانى والسكسونى والعربى وغيرهم فى بلد وهم اخلاط ، فاذا تمذهبوا بمذهب واحد ضاعت جنسياتهم الاصلية بتوالى الازمان وصاروا أمة واحدة !

« وهناك جامعة أخرى ربما كانت مثل جامعة المذهب ، اعنى بها جامعة اللغة . فهذه أيضا شاملة ولكنها فى الغالب تابعة للدين . الا ترى اننا بعد ان اعتنقنا المذهب الكاثوليكى اصبحت اللغة اللاتينية هى المتغلبة فى كنائسنا ومجالسنا ، لانها لغة ذلك المذهب ، واخذت لغتنا القوطية فى الانقراض او الضياع .؟ فلو ظللنا على الآريوسية واستبقينا لغتنا وعممناها فى الشعب وحولنا اهل هذه البلاد عن مذهبهم الكاثوليكى الى مذهبنا الآريوسى ، لكانت لغتهم لغتنا ، ومذهبهم مذهبنا ، وصاروا من انصارنا . ولكننا غفلنا عن ذلك فانعكس الامر ، واصبح اولئك الرومان بعد ان اخرجونا من مذهبنا ولغتنا يحاولون اخراجنا من سلطتنا بما اكتسبه الاساقفة الرومانيون من النفوذ فى أمور الدولة ، حتى لا ترى فى اوربا كلها مجمعا دينيا له على حكومة البلاد من النفوذ مثل ما لمجمع طليطلة على حكومة اسبانيا !

« واول من احس بهذا الخطر من ملوك القوط والدك طيب الله ثراه . فانه سعى فى انقاذ حكومته من نفوذ رومية حتى لقد سمعته يصرح برغبته فى الخروج من مذهبها او سلطانها الكنائسى ، وكان معظم اساقفة اسبانيا ممن تثقف فى رومية واشرب حبها وحب اسقفها الاكبر ، فاكبروا غرض والدك وما لبثوا ان انفذوا اغراضهم التى اتحاشى التصريح بها لانها تؤلمنى كما تؤلمك ، ونصبوا رودريك هذا وهو رومانى

الفرنس وان ادعى انه قوطى الاصـل . وكان ذلك افسادا لمـا كان المرحوم والدك قد اسسه »

□

وكان الفونس يسمع هـذا الكلام باصغاء وقد التذ بسماعه لذة عظيمة لما آنسه فيه من الفلسفة والحكمة مما لم يكن يخطرله من قبل. فلما بلغ الى خروج الملك من ابيه لم يتمالك ان سأل قائلا : « كيف استطاع هؤلاء تولية رودريك وابناء غيطشة احياء .. ؟ »

قال : « حجتهم فى ذلك أن حق الملك عندنا انتخابى وليس وراثيا . اذ لوكان وراثيا لكنت انت اولى الناس بهذا الامر . على ان كونه انتخابيا لا يقضى بحرمانك منه ، وكان يجب أن ينتخبوك لانك ابن الملك ، وقد فعلوا ذلك غير مرة . ثم لولا ما ظهر خلال انتخابهم رودريك هذا من الاغراض القومية التى مرجعها ضياع جنس القوط قاطبة لما شق ذلك علينا »

ثم استأنف اوباس الحديث كأنه افاق من غفلة وقال : « أرانى خرجت من دائرة الموضوع الاصلى . وخلاصة ما قدمته لك ان الذين تعدهم قوطا وترجو ان ينصروك فى قيامك ضد هـذا الرجل ، قد ضاعت جامعتهم الجنسية فى الجامعة الدينية واللغوية ، فربما كانوا اقرب الى نصرته منهم الى نصرتنا ، فمثل هؤلاء لايعتد بأقوالهم ، ولا يعتمد على احزابهم »

فلما سمع الفونس نتيجة البحث خاب امله ، لأنه انما كان يتوقع شد ازره بأهل عترته . فلما تحقق ضياع امله احس بضعف عزيمته ، وظل مطرقا لا يبدى حراكا ولسان حاله يقول : « عجزت عن الحيلة ! »

فلما رآه اوباس مطرقا ادرك ضعف عزيمته فاراد ان يسبر غوره فقال له : « كأنك يئست من النجاح ؟ »

قال : « كيف لا ايأس وقد فرغت يدى من الرجال فضلا عن فراغها من المال ، ولم يكتف هؤلاء باختلاس الملك ولكنهم اخرجونى منه صفر اليدين . فهل تعلم الى اين ذهبوا بأموال والدى ؟ ! »

قال : « ان اموال والدك قداخذت بحق، لأن الملك رسيويت الذى تولى هـذا العرش منذ نحو ستين سنة سن قانونا يقضى برجوع اموال الملك وكل ما يقتنيه الى خزانة المملكة ، فلا ينبغى لنا ان نبالغ فى القاء التبعة على عدونا بالباطل . اما السبيل الى بلوغ منانا ، فاذا كنت قد فرغت يدك من الحيل فاخبرنى لابدى رايى ، وأرجو ان يكون سديدا »

فاستغرب الفونس تنازل عمه بهذه العبارة ، واشار بيديه وعينيه معبرا عما عجز عنه لسانه من تفويض كل الأمر الى عمه ، لانه اكبر عقلا واوسع اختبارا . فاصلح اوباس مجلسه استعدادا لحديث طويل، والتفت الى ماحوله كأنه يحاذر أن يسمعه احد وان كان على ثقة من انفرادهما هناك . ثم وجه كلامه الى الفونس قائلا :

« اعلم يا بنى ان الانسان اذا عزم على امر فلا بد له من النظر فى عواقبه قبل الاقدام عليه ، والا كانت العاقبة وخيمة . انت تعلم ان الناس فى اسبانيا طبقات منها : طبقة الاشراف ، وهم ارباب الاموال والمناصب ، ومنهم حكام الولايات وحكام المدن واصحاب العقارات وغيرهم ، ومنها رجال الاكليروس ، ومنها طبقة المستخدمين وهم رجال البلاط وخدمة الحكومة ، ومنها اهل الحرف وهم من أواسط الناس وسكان المدن . وهناك الخدم والعبيد وهم كل ما بقى من اهل المملكة . ولا يخفى عليك ان هؤلاء هم القسم الاكبر ومنهم حراث الحقول وخدمة المنازل ومعظم رجال الحرب . فاذا شئنا ان ننهض لانتزاع الحكم من هذا الرجل فلا بد لنا من الاستعانة ببعض هذه الطبقات . فلنبحث فى ايها اقرب الينا

« ان الاشراف اما رومانيو الاصل ، او قوطيون . فالرومان طبعا ضدنا . وقد بينت لك حال القوط فهم قد اضاعوا قوتهم فى مذهبهم الجديد . فالاشراف لا فائدة لنا منهم ، وكذلك أهل البلاط . اما الاكليروس فانت تعلم انهم علة هذا التغيير . واهل الحرف بالنظر الى اقامتهم المستطيلة فى المدن قد اضاعوا الحماسة اللازمة فى مثل هذه النهضة ، زد على ذلك ان كلا منهم مشتغل بعمله وتجارته ويخاف ضياع امواله القليلة ، اذ لا يخفى عليك ان بلاد اوربا كلها تقريبا مؤلفة من المدن والحقول . فاهل المدن لايكادون يهتمون بما هو خارج مدنهم ، وكل مدينة تهتم بنفسها ، ونحن لايكفينا القيام باهل مدينة واحدة لان رودريك صاحب جنود واعوان ، وسيستنجد بحكامه فى الولايات ، فنذهب ضياعا

« بقى علينا النظر فى الطبقة الاخيرة من هذا الشعب وهى طبقة الخدم والعبيد ، فهؤلاء هم الجانب الاكبر ولا تستغنى عنهم سائر الطبقات ، ومع ذلك فانهم مستبدون فيهم استبدادا عظيما . ولا يخفى عليك ان معظم هؤلاء العبيد انما دخلوا فى الرق على اثر الحروب ، وهم رجال اشداء خصوصا بعد ان تعودوا العمل وعانوا الشقاء لاشتغالهم فى الحقول . فان عقارات الاشراف وبيوتهم واموالهم كلها

فى قبضة هؤلاء العبيد ، ومع ذلك فانهم مظلومون يقاسون من اسيادهم عذاب الذل ـ وناهيك بعذاب الرق ـ وانت تعلم ان هؤلاء الارقاء لاينقصون عن اسيادهم شيئا من المواهب الطبيعية ولكنهم تعودوا الخضـوع لهم والخوف من اصواتهم ، حتى اصبحوا اطوع لهم من ايديهم . فكل ما للعبد فهو لسيده ، لايقدر ان يعمل عملا الا بأمره حتى الزواج ! . وكل ما اكتسبه العبد بالقصد او بالاتفاق او بالتجارة او بالحرب ـ حتى اولادهم ـ فانها كلها لسيده الذى له أن يبيع العبد او امتعته او اولاده بدون معارض !

« على ان اولئك الاسـياد قد ينعمون على بعض عبيدهم بالحرية مكافأة على عمل عظيم صدر منهم . غير ان هذه الحرية قلما تمتاز من الاستعباد فان المعتق لايزال تحت أمر سـيده ، فان عمل عملا فلسيده نصف ما يكسبه من ذلك العمل . وان اراد ان ينتقل من خدمته وجب عليه أن يرد له كل ما معه من الاسلحة او الاثاث . ولا يعد ذلك المعتق من زمرة الاحرار الاصليين الا فى الجيل الرابع من أولاده .. ولست أطيل الكلام عليك لأنك تعلم كثيرا من افعال هؤلاء الارقاء ، ولكنك قلما فكرت فيما يقاسونه من الخسف والظلم ، وربما لم يخطر لك انهم من جبلة مثل جبلتنا . ولا لوم عليك لأنك شببت وانت تراهم على هذه الحال »

□

فلما بلغ اوباس الى هنا وقف وتنحنح ، وتفرس فى الفونس ليرى اثر اقواله فيه فرآه منصتا بكل جوارحه لسماع ما يقوله عمه ، فعاد اوباس الى حديثه فقال : « فالامر الذى اوجه التفاتك اليه ياولدى ان اقوى طبقات الشعب هم اولئك الارقاء المظلومون ، وهم اكثرعددا واقوى ابدانا واصبر على الشقاء ، فاذا اتخذناهم اعوانا لنا فى هذه النهضة قلبوا المملكة راسا على عقب . وقد لا نحتاج الا الى تظاهرهم بالقيام ، واذا اتحدوا ارعبوا الملك وحكامه واشراف مملكته فننال المراد بلا حرب ولا سفك دماء . ولكن ما الذى يجمعهم ، او كيف يمكننا أن نجعلهم حزبا لنا ؟ »

وكان الفونس يتطاول بعنقه لسماع حديث عمه وقد رأى الصواب باديا فى كل كلمة من كلماته ، لكنه لم يكن يتوقع منه هذا الاستفهام ، ولذلك ارتبك فى الجواب ! . اما عمـه فانه لم يطرح السـؤال عليه لاستماع الجواب ، ولذلك عاد يقول : « اعلم يا بنى ان الوسيلة التى يجب ان نتخذها لجمع كلمة هؤلاء الآدميين المظلومين تحت لوائنا انما

هى من افضل الوسائل واشرفها ، بل هى فضيلة تبقى لنا ذكرا مدى الدهور ويحمدنا عليها كل من ملك هذه البلاد قبلنا ، وننال عليها الجزاء الحميد من الله سبحانه وتعالى . اتعلم ما هى ؟ »

فلم يهتم الفونس بالجواب هذه المرة ، لأن ملامح عمه كانت تشير الى ان الجواب آت ، ثم قال اوباس : « ان الوسيلة يا بنى لجمع كلمة هؤلاء انما هى ان نهبهم الحرية ونجعل لكل من ينضم الينا منهم حقا فى نيل حريته بعد اجل معين ، واذا نال تلك الحرية كان كسائر الاحرار مرة واحدة لايقاسمه احد فى اتعابه او مكاسبه ، على ان يكون ذلك مرتهنا برجوع الملك اليك ، وانك متى توليت عرش اسبانيا هونت الاعتاق ، وسهلت الطريق اليه على كيفية ترغب اولئك المظلومين فى نصرتك »

فسحر الفونس بما سمعه من عمه ، واحس بما بينهما من التفاوت فى المدارك والقوى ، وخيل له ان الامر قد تم له ما يروم حتى اصبح كأنه يرى زمام الملك ويهم بالقبض عليه ! . ولم يكن الفونس بليد العقل الا بين يدى عمه ، وذلك لما له من السلطان على عقله ورأيه ، فلم يتمالك ان تناثرت من عينيه دمعتان من دموع الفرح وانحنى على يد عمه ليقبلها ، فاجتذب اوباس يده وهو لاتهزه عاطفة فرح ولاغضب ، ولكنه اطلق ضحكة اصطنعها ، ثم القى يده على كتف الفونس وقبض عليها بقوة ، فاحس هذا بشدة تلك القبضة ، وتوقع ان يسمع شيئا بعدها ، فاذا باوباس يقول : « رايتك اقتنعت بما سمعته ولم تعمل فكرتك للبحث فيما يحول دون عملنا هذا من الحواجز ! »

فأجفل الفونس وخاف ضياع آماله بعد ان اوشك ان يعتقد نيل بغيته ، وفكر فيما عسى ان تكون تلك الحواجز التى قد تقف فى سبيل ذلك المشروع . ولكنه قبل ان يهتم بالجواب سمع عمه يقول : « لا اظنك تجهل ما يحتاج اليه مشروعنا هذا من الاموال للانفاق على الجند ، وابتياع الاحزاب ، وانشاء المعاقل واغراء الاعداء »

فلما سمع الفونس ذلك عاد الى اليأس لعلمه بخلو يديه ويدى عمه وسائر اهله من مال يكفى لهذا العمل ، واستغرب اغتراره برأى عمه الاول وتخيله وصوله الى الغرض المقصود مع ان مسألة المال لم تكن لتخفى عليه ، وقد كان قبل هنيهة يشكو الى عمه خروجه بعد موت ابيه صفر اليدين ! على انه انما اغتر بذلك لشدة اعتقاده ــ منذ طفولته ــ بسداد رأى اوباس ، لانه ما برح منذ كان يدب ويحبو يرى عمه يأتى

لى ابيه بلباس الكهنة ، والكل يحترمون رايه ويهابونه فشب على لاستسلام له ، فاذا قال اوباس قولا سلم هو به واعتقد صوابه بلا .وية ولا تبصر .. وكذلك كان شانه معه فيما دار بينهما فى ذلك ليوم ، فلما سمع الفونس ذكر المال تحقق انهم يتداولون عبثا ولم يتمالك ان بدا أثر القنوط فى وجهه فظل ساكتا وفى سكوته ما يغنى عن الجواب !

اما اوباس فلما راى ابن اخيه قد سقط فى يده وضاقت المذاهب عليه ، ابتسم ابتسامة اخرى وقال : « هل يئست يا الفونس ؟ . ما اسرع ما ترجو وما اسرع ما تقنط ! . لا تيأس يا بنى انى لا ادع ثقتك العمياء فى عمك تذهب هدرا . وانى لم اقض هذين العامين نائما . نعم انى اخاطبك على سبيل المداولة ولكننى فى الحقيقة اعرض عليك مشروعا رتبته وسبرت اغواره ودبرت كل شؤونه ، ولولا ذلك لم ارض بالخوض فيه معك ! » . قال ذلك ونهض ، فنهض الفونس معه وهو لايدرى معنى ذلك النهوض ، ولكنه اصبح لايطيق صبرا عن سماع تتمة الكلام ليرى ما دبره عمه من الوسائل للحصول على المال . على انه لم يجسر على سؤاله فظل صامتا فى انتظار الجواب . اما اوباس فانه تناول قلنسوته ووضعها على راسه ، فظنه الفونس يهم بالخروج ، ولكنه ما لبث ان سمعه ينادى « يعقوب » . وما عتم ان راى يعقوب داخلا يهرول ولحيته وأنفه يسبقانه حتى وقف بين يدى اوباس وفى وجهه ابتسامة تدل على ما فى نفسه من الاطمئنان . فلما دخل جلس اوباس واشار الى الفونس ان يجلس ففعل ، ثم قال ليعقوب : « اجلس »

فاظهر يعقوب البغتة وقال : « حاش لى يا مولاى ان اجلس بين يديك او يدى سيدى ، (واشار الى الفونس) وانما يكفينى ان تأذن لى فى الوقوف »

فضحك اوباس ــ ويندر ان يضحك لغير يعقوب ــ ومد يده اليه حتى امسك باحدى شعبتى لحيته وشده بلطف حتى اقعده على طنفسة فى ارض الغرفة ، ثم تظاهر بالاجفال وارجع يده ومسح اطراف انامله بمنديله وهو يقول : « متى تغسل هذه اللحية يا يعقوب ، اما آن لك ان تغتسل ؟ ! »

فلما سمع يعقوب ذلك السؤال تبدلت سحنته بغتة ، وذهبت عنها ملامح المجون وبدا الجد فى عينيه وقال : « سيادتكم اعلم منى . ولكننى ارجو ان يكون ذلك قريبا ! »

فلم يفهم الفونس معنى هذا الجواب ، خصوصا بعد أن راى ذلك التغير فى وجه يعقوب ، ولكنه صبر ليرى ما يبدو منه فسمع عمه يقول : « وأنا أرجو ذلك ايضا . ولكن غسل لحيتك يا صاح يكلف نفقات طائلة ، فهل تدفعها ؟ ! »

قال : « نعم انى لا أدخر مالا ولا ولدا ولا نفسا فى سبيل غسلها كما تعلم ! »

فلم يزد الامر لدى الفونس الا غموضا وابهاما ، ولم يفهم لاستدعاء ذلك الخادم معنى ، ولا لتلك الالغاز مغزى ، وشق عليه ان يتحول موضوع المداولة من الجد الى الهزل وهو لايعرف عمه يميل الى المزاح الا قليلا ، واكثر ما يفعل ذلك مع يعقوب ، فحمل كلامهما محمل المزاح وظل ساكتا يتوقع العود الى الموضوع الاصلى

اما أوباس فقال : « انى اعلم ذلك يا يعقوب وقد آن لى ان اسعى فى غسل لحيتك ، فهل انت واثق من المال مهما كبر مقداره ؟ »

قال : « نعم ياسيدى وانت تعلم ذلك »

قال : « قد كنت اعلمه ، ولكن هل حدث تغيير او تبديل ؟ »

قال : « كلا يامولاى . نحن على ما نحن عليه »

فاطرق اوباس مدة طويلة لايتكلم ، واستغرق فى الافكار كانه يحل معضلة ، ويفكر فى امر طرق ذهنه فى تلك الساعة ، ثم وقف فوقف يعقوب والفونس . فقال للأول : « احب ان اراك الليلة فى منزلى »

فأشار بيديه وعينيه وشفتيه ان « سمعا وطاعة » . وخرج واغلق الباب وراءه

□

توقع الفونس بعد خروج يعقوب ان يسمع من عمه ما يزيل ذلك القلق عنه ، فلما رآه جلس ، جلس مثله ، وأصاخ بسمعه وهو ينظر اليه كانه ينصت لما يقوله ، فسمعه يقول : « طب نفسا يا الفونس . ان المال تحت يدى عند الطلب ، ولابد من جلسة اخرى اشرح لك فيها التفاصيل وارتب الخطة التى يجب ان نسير عليها فى هذا العمل الخطير »

فقال : « ولكننى لم افهم علاقة ذلك بخادمنا هذا وبلحيته ! »

قال : « ستطلع على سر ذلك الليلة ان شاء الله .. هل تأتى معى منذ الآن الى منزلى فنتناول الطعام معا ؟ . ولكن لا .. فانى افضل ان تبقى هنا لأخلو بنفسى وارسم الخطة التى يجب اتباعها فى هذا المشروع » . قال ذلك ونهض وتحول نحو الباب وهو يمشى الهوينى

على عادته ، والفونس يقتفى اثره ليودعه عند خروجه . وقبل وصولهما الى باب الغرفة سمعا قرعا عليه ثم دخل يعقوب وفى يده كيس صغير من الحرير الارجواني ، مسطح الشكل كأن فيه كتابا ، وقد عقد بشريط من الحرير الازرق ، ما كاد الفونس يراه حتى خفق قلبه لعلمه انه من فلورندا ، اذ كثيرا ما كانت ترسل اليه الكتب فيه فأسرع الى الكيس وتناوله وسأل يعقوب عمن حمله اليه فقال : « احد خدم القصر الملكى »

وكان قد شرع فى فضه قبل سماع الجواب ، فلما فتحه استخرج منه قطعة من الخشب مربعة الشكل ، قد كسى سطحاها بالشمع وكتب عليها حفرا بقلم من حديد ــ وقد كانت هذه احدى وسائل المكاتبة فى تلك الايام قبل اختراع الورق بأجيال ــ فتناولها وتحول نحو النافذة وقد نسى وداع عمه واخذ يتلوها بنفسه ، ولم يكد يصل الى آخرها حتى ارتعشت أنامله ، وتغيرت سحنته . وكان أوباس لما راى الكتاب توسم فيه جديدا فتغافل عن الفونس ريثما يقرؤه ، لكنه ما لبث ان رآه يقلبه ويعيد تلاوته وهو يوجهه نحو النور الداخلى من النافذة ويتفرس فى الكتابة بعينيه كأنه يشك فى قراءتها ، وقد امتقع لونه وارتعدت انامله وبان الغضب فى اسرته ، فظل اوباس ينظر اليه ثم اغلق الباب ليخلو به من جديد . وكان الفونس قد شعر بحركة اغلاق الباب فانتبه ، فاذا عمه يمشى نحوه فى هدوء وينظر اليه نظرة خففت ماقام فى نفسه على اثر تلاوة الكتاب ، فحاول التجلد تشبها بما كان عليه عمه من سعة الصدر ، ولكن التأثر كان غالبا على منظره ، فتقدم نحو عمه وبيده ذلك الكتاب فقدمه له وهو يقول : « ويلاه لا ننجو من شر الا ونقع فيما هو شر منه . وكل مصائبنا من ذلك المختلس السافل ! »

فمد اوباس يده وتناول الكتاب بكل رزانة ، وتفرس فيه فاذا هو مكتوب باللغة اللاتينية المشوشة بالفاظ قوطية حفرا فى الشمع على الخشب فقرأ فيه ما معناه :

« حبيبى الفونس

« ان الامر الذى خفته من انتقالى الى هذا القصر قد اوشك ان يقع ، فانا فى خطر بين براثن الاسد ، الا اذا اسرعت الى انقاذى ! . أنت تزعم انك تحب فلورندا فأسرع الى انقاذها قبل ان تفوت الفرصة . والا فان ما بقى من حياتها لايتجاوز ساعات قلائل اذا انقضت قبل خروجها من هذا القصر . فاذا لم يكن لى نصيب من النجاة فانى

استودعك الله ، واطمئنك اني ذاهبة شهيدة العفاف والطهر . فاذكرني بين يدى اهلى، وموعدنا الامجاد السماوية فى احضان الآباء القديسين
« كتبته فلورندا المسكينة »

فلم يكن اوباس اقل تأثرا لما قراه من الفونس ، ولكنه كان اثبت منه جأشا واصبر على الطوارئ . وقد احس انه مسئول عما قد يصيب فلورندا من السوء وهو الذى وضع عربون الخطبة بينها وبين الفونس الذى لم يعد يستطيع صبرا فقال : « اعذرنى يا عماه فقد نفد صبري ونسيت كرسى الملك ، وانت الذى باركت عربون الخطبة بيننا فأنت مطالب باتمام العقد ، فضلا عما انت مكلف به من ذلك بواجب القرابة . ومهما يكن من الامر دبرنى برايك »

فالتفت اليه بهدوء ورزانة ويده على لحيته يسرحها بأصابعه وقال: « طب نفسا ياولدى .. انني مخرج فلورندا من قصر الملك وهى فى خير ان شاء الله » . ثم اطرق واعمل فكره وهو يصعد بحاجبيه ثم يقطبهما بما يدل على استغرابه وحيرته ثم قال : « انى لأعجب من امر هــذا الرجل واشتغاله عن امور رعيته بما لايرضى الله ولا عبيده . ولكن ذلك من الادلة القاطعة على قرب سقوطه وذهاب ملكه ، لأن الله لايؤيد ملكا يخالف وصاياه ! » . وكان الفونس غارقا فى بحار الهواجس، وقلبه يتقد غيرة على فلورندا . ولما تشاغل عمه عنه بمناجاة نفسه اعاد النظر فى كتابها فوقف بصره عند قولها : « انى ذاهبة شهيدة العفاف والطهر ! » . وفكر فيما ينطوي تحت هذه العبارة من المعانى المثيرة للغيرة ، ثم سمع عمه ينادى يعقوب ، وراى هذا يدخل وقبعته فى يده قائلا : « لبيك يامولاى »

قال : « هل تعرف اثنين من خدم هذا المنزل يمكننا الوثوق من امانتهما اذا كلفناهما القيام بمهمة ، ولوكانت ضدهذا الطاغية صاحب كرسى طليطلة اليوم ؟ ! »

قال : « انا يا سيدى »

قال : « انا ادخرناك لمهمة اخرى ، ولكننا نحتاج الى شابين اوثلاثة تثق بأمانتهما ونشاطهما وبســالتهما . لأن الامر يحتاج الى الاقدام والشجاعة والامانة »

فأطرق يعقوب وقد امسك طرف لحيته بانامله وجعل يفتله بين السبابة والابهام حتى اصبح مثل طرف الحبل لما كان يتخلل الشعر من الاوساخ ! . فعل ذلك وهو مستغرق فى الافكار ، ثم حرك انامله بغتة فأعاد اللحية الى ما كانت عليه والتفت الى اوباس وفى وجهــه

امارات البشر وقال : « قلما اثق بأحد من هؤلاء ، وان يكن معظمهم نشأوا فى بيت مولاى وعاشوا على مائدته ، لأن الانسان اضعف من ان يضحى نفسه فى سبيل صدق ضميره . ولكننى اعرف اثنين فقط اظنهما اهلا لهذه الثقة »

قال : « ومن هما ؟ »

قال : « هما اجيلا ، وشنتيلا »

فقال اوباس : « وكيف اخترت هذين وليس منهما من ربى فى بيت الملك ؟ »

قال : « اخترتهما لاعتقادى باقتدارهما على هذه المهمة ، ولأنهما ما زالا طامعين فى الارتقاء ، اذ لايخفى على مولاى انهما كانا من طبقة العبيد وقد حررهما المرحوم اخوك والحقهما بحاشيته لما آنسه فيهما من الكفاءة والشهامة . وقد ظهر لى بعد تخلصهما من العبودية انهما طامعان فى المزيد شأن من يذوق طعاما لايعرفه ، فاذا استطابه زاد فى اشتهائه فطلب منه المزيد . وهذان الشابان ولدا فى مهد العبودية ونفساهما من انفس الاحرار ، فرأى الملك المرحوم عظم نفسيهما فى حديث يطول سرده فمنحهما الحرية والحقهما بحاشيته . فاذا كان فى المهمة التى تنتدبهما لها ما يحقق امنيتهما ، تفانيا فى سبيلها والا اعتذرا عنها دون أن يخونا »

قال : « اراك بارعا فى فلسفة الاخلاق ، اذا كان الغروب تعال الى منزلى وهما معك »

قال ذلك وحول وجهه الى الفونس، ففهم يعقوب انه يطلب خروجه فخرج . اما الفونس فكان قد عاد الى هواجسه فلما اقبل عمه اليه ساله : « بماذا نرد على هذا الكتاب ؟ »

قال : « اكتب اليها ان تكون على اهبة السفر فى الساعة الثانية بعد الغروب ، وانك ستلاقيها فى القارب بجانب القصر ! »

فتناول الفونس قطعة من نسيج غليظ كانوا يكتبون عليه ايضا وكتب اليها ويده ترتجف ما معناه :

« الى مليكة القلب فلورندا

« لبيك يا حبيبتى ، انى موافٍ القصر فى الساعة الثانية من الليل القادم . فتهيئى للخروج بما تستطيعين حمله ، واشرفى من النافذة المطلة على النهر ، فاذا رايت نورا مثلثا فاعلمى انى فى انتظارك . تشددى وقوى قلبك ولا تخافى

« كتبه محبك الذى يفديك بروحه »

وطوى الكتاب وخاطه ، وجعله فى الكيس الارجوانى وختمه ودفعه الى يعقوب على أن يرجعه الى الرسول الذى جاء به ، ويوصيه بالاحتفاظ به لئلا يطلع عليه أحد . فتناول يعقوب الكتاب وخرج

□

وكانت الشمس قد تجاوزت الاصيل ، فأخذ الفونس يتأهب للخروج مع عمه الى منزله للمفاوضة هناك فيما يفعلونه ، ولشدة ما أصاب الفونس من البغتة كان ما زال مستغربا ما سمعه عن يعقوب من الاسرار المكتومة . وكان الطقس قد تبدل فتلبدت الغيوم وتغلب البرد ، فلبس الفونس قباء من الفرو السميك ، والتف عمه بردائه الاكليريكى وكان البرد قلما يؤثر فيه . وفيما هما يتأهبان للخروج وكل منهما يفكر فى امر على حدة ، فتح الباب بغتة ودخل يعقوب ، وفى يده اسطوانة من جلد بلون القرمز ، فعلم أوباس ان فيها كتابا من رودريك فقد كانت كتبه الى عماله وامرائه تكتب على الجلد وتلف وتوضع فى اسطوانة من جلد العجول المدبوغ بلون القرمز . فلما وقع نظر الفونس على تلك الاسطوانة تقدم لتسلمها فاعترضه عمه وتناولها وقال ليعقوب : « من جاء بها ؟ »

قال : « جاء بها شرذمة من فرسان الملك وقد سألنى رئيسهم عن سيدى الفونس هل هو هنا فأردت استمهاله لأعود اليه بالجواب فابتدرنى قائلا : « أخبرنى حالا فانى مأمور بايصال هذا الكتاب اليه على جناح السرعة حيثما كان ، فقلت انه هنا ، فدفع الى الكتاب وقال انه ينتظر »

فنظر أوباس فى ختم الاسطوانة فاذا هو ختم الملك نفسه ففضه واخرج الكتاب فاذا هو قطعة من الرق مما كانت الحكومة تستخدمه لكتابة الاوامر ، وكانت الرسالة مطوية فنشرها وقرأ مافيها ، والفونس واقف الى يساره يتطاول لقراءتها ، فاذا هى امر رسمى من رودريك اليه يقول فيه ما معناه :

« من رودريك ملك القوط

« باسم الاب والابن والروح القدس

« الى الشجاع الباسل عزيزنا الفونس ، سلام ، وبعد فقد بلغنا ايها العزيز ان بعض العبيد والموالى فى كونتية (...) قد تمردوا وتواثقوا على مقاومة حكومتنا هناك . فاذا أتاك كتابى هذا فأسرع الى مقر جنودنا فى طليطلة ، فان فرقة من الجند فى انتظارك لتذهب تحت قيادتك الى تلك المدينة لاخماد الثورة . ولابد من العجلة وبذلك

على استعجالنا اننا كتبنا هذا الامر فى يوم العيد الذى لا يجوز العمل فيه ، فلا تتوان فى انفاذ أمرنا هذا والسلام

« كتب فى قصر طليطلة فى الخامس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ۷۱۰ »

وما جاء الفونس على آخر الكتاب حتى اسودت الدنيا فى عينيه وصاح لشدة هياجه : « لا اذهب . لا اذهب . . ! »

فالتفت اوباس اليه لفتة الاستصغار وقال له : « كيف لا تذهب ؟ وهل تستطيع ذلك ؟ . الا ترى انه كتب اليك هذا الكتاب وفيه ما فيه من الملاطفة ، فاذا عصيت امره جررت على نفسك البلاء ؟ ! »

قال : « واى بلاء اجره على نفسى ؟ »

قال : « اذا تخلفت عن المسير اتهمك بالعصيان وأمر بالقبض عليك. وليس عندك من الرجال ما تدفع به قوة الحكومة الآن ، فلا تكون النتيجة الا ايقاع الاذى بك وبنا كلنا اذ يرى المجمع المقدس مسوغا لذلك بعصيانك ؟ فالحكمة تقضى علينا بالملاينة والمسايرة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا »

ولم يكن الفونس يجهل ذلك ولكن غضبه لفلورندا ولخروجه من طليطلة وهى فى ذلك الضنك اغلق ذهنه ، فلما سمع كلام عمه قال له : « ولكن ما العمل ؟ وكيف اجتمع بفلورندا ؟ ! »

قال : « اترك امرها الى ، فسأتولى انقاذها الليلة واخفيها فى مكان ، ثم اكتب اليك حيثما تكون ونرى ما تأتى به الحوادث . ولا تجزع بل ابشر بما ترجوه من وراء سفرك هذا من تمهيد السبيل لمشروعنا . اتكل على الله ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم »

فالتفت الفونس الى يعقوب وقال له : « اخبر حامل الرسالة انى ذاهب بعد قليل »

قال : « قلت لك يا مولاى انهم كوكبة من الفرسان ، وقد علمت انهم مأمورون الا يعودوا الا بك »

فقطع اوباس كلام يعقوب وقال لالفونس : « اذهب يا بنى . اذهب الآن وانا اتولى كل شىء فى غيابك ، ولكنى انصح لك أن تصطحب يعقوب وتعتمد عليه ، وسوف يطلعك على امور تهمك ! »

فقال يعقوب : « سمعا وطاعة » . واسرع الى اثوابه فلبس منها ما يصلح للسفر ، وكذلك فعل الفونس . . وخرجا والفونس يتجلد وقد القى كل حمله على عمه

فلندع الفونس يتأهب للسفر ، ولنعد الى قصر رودريك حيث تركنا فلورندا فى غرفتها تفكر فى أمرها بعد الفراغ من الصلاة وتسليم أمرها الى الله .. فقد خرج رودريك من عندها وهو يضمر لها الشر العاجل ، وكان أول شيء فعله انه لقى الآب مرتين فى غرفتــه يتلو بعض الصلوات . وكان مرتين قد شعر بذهاب الملك الى قصر فلورندا وتحقق انه لا يعود من هناك الا وهو مقتنع بوجوب التخلص من الفونس او ابعاده ، فلما لقيه عائدا آنس الغضب والانفعال فى عينيه وجبينه ، حتى لقد يعجب الذى يراه لصبره عن قتل تلك الفتاة وهو اذا غضب لا يبالى بقتل المئات ! . ولكن الحب .. الحب يخفف الغضب ويلجم القلب والعقل . الحب يذلل الاسود ويستاسر الجبابرة ، وهو الذى يبعث الى الشفقة والحنو ! فاذا رايت رجلا فى خلقه جفاء وخشونة فاعلم ان الحب لم يستول على قلبه بعد . نعم ان حب رودريك لم يكن خالصا من شوائب المنكر ، ولكن ذلك لا يمنع تأثيره فى القلب ، لان سبب الحب واحد ، وان كان أثره يظهر فى الناس مختلفا باختلاف اخلاقهم واحوالهم

ولا يبعد ان يكون رودريك قد هم بقتــل فلورندا وهى تعنفه وتقاومه ، ولـكنه امسك نفسه طمعا فى استرضائها واستبقائها ، فتحمل من عواقب الـكظم ما ظهرت آثاره فى وجهه ، حتى خيــل لمرتين لما رآه انه فى اعلى درجات الغضب ، فاستقبله ضاحكا ، فتجلد رودريك وحياه وهو يحاول اخفاء انفعاله عبثا ، ولم ير خيرا من ان يشاغل الاب بالحديث فقال له وهو يظهر الاستخفاف : « يظهر ان لذلك الغلام مأربا عند بعض اهل القصر ! »

فأجاب الشيــخ وهو يتلجلج على عادته : « كانى بالملك لم يفهم اشارتى الى ذلك فى هذا الصباح ؟ »

قال : « بلى فهمت ، ولكننى .. » وسكت ، فادرك القسيس انه يضمر شيئا فظل ساكتا وهو ينقر بسبابته على شفته الغـائرة ، وعيناه تنظران الى الملك كانه يتوقع تتمة حديثه . اما رودريك فلم ير بأسا من اطــلاع مرتين وهو مستودع اسراره على قصده ، الا حبه فلورندا فانه نوى البقاء على كتمانه ، حياء من النــاس وخوفا من امراته ، وهو يعلم تسلط القسوس على النساء فخاف أن يقع حبه لدى القسيس موقع الاستهجان فيطلع الملكة عليه فتقف فى سبيله . !

على انه أراد اطلاع مرتين على ما بقى من عزمه فقال : « ارى ان اسعى فى ابعاد هذا الشاب عن هذه المدينة بالحسنى فنشغله عن القصر واهله »

فطاطأ الشيخ راسه استصوابا كانه راى الجواب بتلك الاشارة اهون عليه من التكلم ، ثم قال : « واذا ابعدته فقد ننتفع بخدمته ونتخلص ، ولكن الحية لا تموت اذا ظل راسها سالما ! »

فعلم رودريك انه يشير الى اوباس ويود ابعاده فقال : « ان ابقاء راس الحية بين ايدينا اسلم عاقبة لنا ، خصوصا اذا كان الذنب بعيدا ! » ففهم مرتين اشارته وسكت . فنهض الملك للحال وكتب ذلك الكتاب وبعث به الى الفونس كما تقدم ، وصبر حتى انباوه بنفاذ امره وان الفونس جاء المعسكر وتهيأ للسفر

وكانت الشمس قد توارت وراء الافق واقبل الظلام ، وكان اقباله زاد ذلك الملك تعاميا عن فظاعة مانواه ولم يعد يستطيع صبرا الى اليوم التالي ، فتناول طعام المساء مع امراته ، واكثر من تعاطى الخمر على المائدة تشاغلا عما ثار فى نفسه من النيران الشيطانية فهان عليه ارتكاب كل فظيعة ولذلك قالوا : « السكر راس كل المعاصى ! »

نهض رودريك عن المائدة وقد امتلأ جوفه ودارت الخمر فى راسه ، وتحول توا الى غرفته والقسيس لايزال على المائدة مع امراته ، فلما دخل الغرفة اغلق بابها وراءه وفتح الباب الآخر وسار فى الممر نحو غرفة فلورندا !

اما فلورندا فكانت بعد اعمال الفكر قد كتبت ذلك الكتاب الى الفونس ، ودفعته الى العجوز فارسلته مع خادم تعتقد اخلاصه ، ولبثت تنتظر الجواب ، فشغلها ذلك الانتظار عن كل فكر . وظلت على هذا الحال ساعة ظنتها شهرا او سنة ، فكانت تارة تطل من الباب ، واخرى من النافذة المشرفة على النهر ، وآونة تدعو خالتها وتستفتيها فى سبب التاخير ، وهذه تهون عليها حتى عاد الرسول بذلك الجواب فخفق قلبها سرورا ، وكان اول شيء فعلته انها قبلت الايقونة وشكرت الله على اجابة صلواتها ، واخذت تجمع ماخف حمله من الحلى ونحوها ، والعجوز تساعدها حتى غابت الشمس ، فعند ذلك تركت كل شيء وتحولت الى النافذة فجلست اليها واخذت ترسل بصرها الى مجرى النهر تنتظر ظهور النور المثلث ، مع علمها ان الاجل المضروب ما زال بعيدا ، ولكن القلق اوهمها قربه ! وكان الطقس قد برد ، وتلبدت الغيوم فاغبرت السماء وعصفت الرياح ،

وامض البرق وقصف الرعد ، ولم يمض قليل حتى تساقطت الامطار . ولكن ذلك كله لم يشغلها عن التفرس فى النهر وركبتاها ترتعدان وجلا وفرحا . وكانت كلما لاح برق ظنته مشعال حبيبها . وقد تنفرج الغيوم فيقع بعض ظل الكواكب فى مجرى النهر فتحسبها نورا مثلثا ، وربما كانت عشرين كوكبا فتظن تعددها ناتجا عن تكسر سطح النهر بالامواج ، لو تتوهم السبب فى ذلك اعتراض بعض اغصان الحديقة بينها وبين النهر ، خصوصا الاغصان الضخمة القائمة تجاه النافذة !

□

وفيما هى تعلل نفسها بقرب الفرج ، وقد وجهت كل حواسها وعواطفها الى ما هو خارج تلك النافذة نحو النهر ، انتبهت بغتة فسمعت وقع اقدام رودريك فى الممر ، فخارت قواها ، وتسارعت ضربات قلبها حتى كاد يغشى عليها ، واحست بما يحدق بها وكانت فى غفلة عنه ، فجلست علي البساط وجعلت تتضرع الى الله ان يساعدها وينقذها هذه المرة . ولم تجد امامها الا خالتها فسألتها : « اليست هذه خطوات الملك ؟ » . ولم تتم كلامها حتى خرجت العجوز ثم عادت وهي تقول : « الملك يدعوك الى تلك الغرفة »

فصاحت فلورندا : « ويلاه ما هذا المصاب يا الهى ! ؟ » ولطمت وجهها واخذت فى البكاء ، فتقدمت العجوز اليها وجعلت تخفف عنها وهى لا تدرى بماذا تعزيها هذه المرة . على انها لم تر خيرا من الرجوع الى المعزى الاكبر — وهو الدين — فقالت : « اتكلى على الله وهو الذى انقذك فى المرة الماضية وسينقذك الآن ، وما عليه امر عسير »

وكانت فلورندا من اهل الايمان الوطيد كما رايت ، فتضرعت الى الله ان يساعدها هذه المرة ايضا ، والتفتت الى خالتها وقالت لها : « اتوسل اليك ياخالة ان تصلى من اجلى وتطلبى الى الله ان ينقذنى من هذه التجربة »

فقالت : « انى باقية مناجاتية امام هذه الايقونة الى حين رجوعك ، لانى لو صحبتك ما نفعتك ، ولا يساعدنا على هذا العدو غير الله وحده ! »

فاطمان بال فلورندا لهذه العبارة ومشت كالشاة التى تساق الى الذبح ، وهى تقدم قدما وتؤخر اخرى حتى دخلت تلك الغرفة . وكان رودريك جالسا فى صدرها جلوس من لا يهمه النهوض ، ورات فى وجهه من دلائل الغضب ما لم تره فى المرة الماضية ، وقد احمرت عيناه واكمد لون وجهه من السكر ، واسرع تنفسه واشتد . فظنت فلورندا لاول وهلة انها ترى هذه الملامح فى وجهه بسبب نور المصباح ،

على انها لم تكد تقع عيناها عليه حتى اسرع قلبها بالخفقان ، ولكنها استعانت بالله وتجلدت ، وتقدمت حتى وقفت على بضع اذرع منه واطرقت . وكانت قد ضفرت شعرها ولملمته وغيرت ثوبها تأهبا للسفر . فرأى رودريك فيها ما زاد شغفه بها ، وتضاعف ذلك الشغف لتنبه عواطفه بالمسكر فخاطبها وهو لايزال جالسا وقد مد رجليه ، وبسط ذراعيه على الوسائد فى الجانبين فقال : « هل حدثتك نفسك بشيء جديد ؟ »

فظلت ساكتة ولكنها بالغت فى الاطراق ، فأعاد السؤال وقد توكأ على ركبتيه كأنه يتحفز للنهوض قائلا : « اجيبي يا فلورندا ، يظهر انك أدركت السعادة التى ادعوك اليها ، خصوصا اذا علمت انى انقذتك من يدى ذلك الغلام الذى كان يغريك بحبه ، وهو لا يحبك ولا يستحق قلبك ! »

ثم وقف بسرعة تمازجها عربدة ، واخذ يسرح لحيته قائلا : « لماذا لاتجيبيننى ؟ كأنك تخجلين من الندم بين يدى الملك ! الا فاعلمي انى سامحتك على ما مضي .. » قال ذلك وخطا نحوها ويمناه مرفوعة كأنه يهم ان يلقيها على كتفها تحببا !

اما فلورندا فلما رآته يدنو منها تقهقرت ورفعت ذراعيها تتحامى بهما ، ونفرت منه كأنه ذئب كاسر يهم بافتراسها ، فتراجع رودريك واظهر الاستغراب وهو يقول : « ما بالك تنفرين كأنك تخافيننى ، ادنى منى ، اننى اريد رضاك ؟ ! »

وكانت فلورندا لا تزال فى ريب من امره ، فارادت ان تحقق ظنها . وكانت الامطار قد تعاظم تساقطها ، واختلطت اصواتها بأصوات المياه المنحدرة من الميازيب وهبوب العواصف وقصف الرعود ، وفلورندا فى غفلة عن كل ذلك لعظم ما قام فى نفسها من الخوف . على انها لما عولت على مخاطبته انتبهت لما يحول بين صوتها المنخفض وبين اذنه من هذه الاصوات المختلطة فقالت بصوت عال لكنه مرتعش : « قد قلت لمولاى الملك ان هذا الموقف ليس موقفى ، وان الله قد جعل نصيبى سواه »

فقال لها : «كأنك لم تفهمي كلامي ! قلت لك ان الغلام الذى تسمينه نصيبك قد مضي ولا سبيل اليه »

فلما سمعت قوله توهمت انه قتله فصاحت وقد وقف شعرها وارتعشت ، واحست كأنه صب ماء غاليا على بدنها وقالت : « ماذا تقول ؟ . ماذا فعلت بالفونس . ماذا ؟ . ماذا ؟ . هل قتلته ؟ »

فلما راى رودريك ما اصابها خاف ان يقضي عليها بغتة وهو يريد استبقاءها لنفسه ولو ساعة فقال : « لا . لم اقتله ولكنه بين يدى ، وحياته طوع ارادتي ، اذا شئت قتلته بكلمة ولا اتكلف لذلك خطوة واحدة ! يظهر انك لا تزالين تجهلين من هو الذى يخاطبك ، ومن هو ذاك الذى تسمينه نصيبك ؟ نعم انى لم اقتله بل اكتفيت بابعاده ، ولكن اذا بقيت على اصرارك اقتله ، واذا ظللت على غيك بعد قتله اقتلك انت . وانا الآن لا استرضيك ولا استعطفك بعد ما رايته من وقاحتك ، واعلمى ان هذه الساعة هى الحد الفاصل بين تمنعك وبين ما اريد ! » قال ذلك بصوت عال ومشى مسرعا الى باب الغرفة واغلقه ورجع وهو يقول : « فاختارى الحائط الذى تريدينه واخرجى منه ! » ثم القى نفسه على المقعد وهو يلهث من الغضب كأنه ثور بخور ، وقد زادت عيناه احمرارا واوداجه انتفاخا

وعندما سمعت فلورندا تصريحه بالمنكر ، وتحققت دنو الخطر ، التفتت الى ما حولها كأنها تفتش عن ضائع او تستنجد رفيقا ـ فعلت ذلك وهى لا تعلم لماذا فعلته وهمت بالجواب . فقطع رودريك كلامها قائلا : « عمن تبحثين ؟ اننا فى غرفة ليس معنا ثالث . وليس على وجه البسيطة من يستطيع ان يحول دون مرادى . فأقبلى طائعة . انه احفظ لحياتك وادعى الى سعادتك ! »

وكانت فلورندا لما سمعت قوله « وليس معنا ثالث » قد تذكرت ما كانت تقرؤه وتسمعه من اقوال الكتاب المقدس ، من ان من يتكل على الله لايفشل ، وان الله موجود فى كل مكان . فاحست باطمئنان كأنها محاطة بملائكة يحرسونها ، وتشجعت ونظرت الى رودريك وهى تتفرس فيه وقالت : « تزعم اننا منفردان ، وان الجو خال لك ، وقد فاتك ان الله موجود فى كل مكان لايدع لأحد سلطانا يغلب سلطانه ! ثم انى سمعتك تهددنى بالقتل . فاقتل ثم اقتل ! اقتلنى فانى لا ابالى بحياتى . ولكن اتوسل اليك الا تمس الفونس بسوء .. آه يا الفونس .. ! » قالت ذلك وخنقتها العبرات واطلقت لنفسها عنان البكاء

فلما سمعها رودريك تبكى لم يزدد الا حنقا خصوصا بعد ان سمع ذكر الفونس. على انه لما راى توبيخها وثباتها مع شدة تعلقها بحبيبها ورغبتها في بقائه ، تراءى له ان يعرض عليها استبقاءه فقال : « اذا كانت حياة الفونس تهمك بهذا المقدار ، فانى اكراما لعيونك ابقيه ،


رودريك : « هل حدثتك نفسك بشيء جديد ؟ »

وارقيه ، واجعله من اسعد اهل طليطلة . ولايكلفك ذلك الا ان تقلعي عن عنادك ! »

فابتسمت استخفافا بذلك الراى وقالت : « ان الامر الذى يرضيك منى بذله انما هو اثمن ما لدى فى هذا العالم ! اثمن من حياتى ! بل اثمن حتى من الفونس نفسه . لانى بدون ذلك الاكليل المجيد وتلك الجوهرة الثمينة لا استحق نظرة من الفونس ولا من سواه . بل لا اساوى شيئا ! وهل تظنني لولا ذلك استطيع مخاطبة الملك بهذه الجسارة ؟ »

فراى رودريك انها تطيل الجدال ولا يجد ما يدفع به حجتها ، ولا هو يريد الاقتناع بقولها لانميوله البهيمية غلبتعلىعقله وارادته .. وقد يكون ـ وهو يجادلها ويراودها ـ مقتنعا بانه يلتمس امرا منكرا وانها مصيبة بتوبيخه ؛ ولكنه لايملك عنان شهواته

□

وكان رودريك مع قوة بدنه ضعيف الارادة . فلما سمع تقريع فلورندا ادرك خطاه ، ولكنه تجاهل وتعامى وتصامم ، وعاد الى المغالطة ، فاظهر الغضب ووقف بغتة وقال لها : « اراك تحبين المدافعة بلا فائدة ، ولم يبق لي صبر على اقوالك . الا تشعرين بما تعرضين نفسك له من الخطر ؟ . ومع ذلك فما لايمكن ان يكون برضاك لابد منه رغم انفك ! » . قال ذلك ودنا منها وقبض على ذراعها ويده ترتعش ، فاقشعر بدن فلورندا واحست كأنه ممسك ذراعها بقبضة من حديد فصاحت : « ويلك يا ظالم . تبا لك يا فاسق . ! الا تخاف يوم الحساب ؟ الا تخاف الله ؟ قبح الله ملكا يتولى انصاف المظلومين وهو اكبر الظالمين . ولعن الله رجلا يزعم انه اقيم لكبح جماح المتمردين وهولايقوى علىكبح شهواته ! » ثم ارسلت بصرها نحوالسماء ورفعت يدها الاخرى وقالت : « اليك اتوسل ايها المخلص الحبيب ، واعوذ بك من هذا الظالم الخائن ! »

وكان رودريك فى اثناء ذلك يحاول القبض على يدها الاخرى وهى تحاول التخلص منه ، فوقع نفسه فى وجهها فاشتمت رائحة الخمر فهمت ان تقول شيئا ولكن اعترض قولها رعود قاصفة توالت بضع ثوان ، اعقبها صوت صاعقة انقضت بالقرب من ذلك المكان ، فارتج القصر من اساسه ، ونفذ وميض البرق من شقوق النوافذ كأنه حراب من نار ! فكان لتلك الحركة تأثير شديد فى نفس رودريك شغله لحظة عن فلورندا ، وتولاه الرعب لانه توهم لاول وهلة ان القضاء

يتهدده ـ كما يفعل بعض الذين يربون فى مهد الدين فيعتقدون ان الاقدار تراقب حركاتهم وسكناتهم ، وان الطبيعة لا تعمل عملا الا وهى تتعمد به خيرهم أو شرهم ، على ان ذلك الخاطر لم يمر فى ذهنه الا مرور البرق ثم عاد الى ما كان عليه !

وأما هى فانها اغتنمت تلك الفرصة وانتزعت يدها من يده ، وقد اعتبرت انقضاض تلك الصاعقة نصيرا لها عليه أجابة لصوت دعائها فالتفتت اليه وهى تقول : « الا تعلم ان فى الكون من ينتصر للضعيف على القوى ؟ الا يستطيع ذلك الجبار أن ينزل عليك وعلى قصرك صاعقة تذهب بكما الى الموت العاجل ؟ »

فافحم رودريك لما راى الاقدار تزيد حجة فلورندا عليه ، ولكنه اعتبر نفسه فى موقف انتقام ولم يزدد الا تماديا فى غرضه ، فتقدم اليها وقبض باحدى يديه على كتفها ومد يده الاخرى ليقبض على يدها ثم يرفسها برجله . فتشددت هى وانتزعت نفسها من يديه فافلتها بالرغم عنه لأنه لم يكن ممسكا بكل قوته ، فلما أفلتت منه تعاظم غضبه فهجم عليها هجوم الثور ، وهو لايبالى مايكون من امرها !

فلما رأته فلورندا هاجما والشرر يكاد يتطاير من عينيه لفرط غضبه ايقنت بالخطر العاجل ، فعولت على الانتحار قبل وصوله الى مراده ، فجثت على ركبتيها ورفعت بصرها الى السماء كأنها تستغيث وهى لا تزال الى تلك اللحظة تعتقد ان العناية الالهية لا تتخلى عنها ! ولكنها لما رات رودريك يكاد يصل اليها اسرعت هى فقبضت بكلتا يديها على عنقها وهمت أن تخنق نفسها وهى تقول : « الموت . الموت خير من العار . اليك اسلم روحى يا مخلصى الحبيب » . قالت ذلك وضغطت على حنجرتها فانحبس الدم فى وجهها وجحظت عيناها ولكنه امسك يديها وشدهما فابعدهما عن عنقها ، وكانت قد خارت قواها فسقطت وقد ارتخت مفاصلها واستلقت على ظهرها لاحراك بها !

◻

فلما شاهدها رودريك فى تلك الحالة تنبهت فيه الحاسة البشرية لحظة ، وعمد الى تلطيف ما بها فجثا بجانبها ، وامسك يدها وانهضها يريد اجلاسها لتصحو من غيبوبتها ، فاذا هى لا تزال مغمضة العينين مسترخية الاعضاء فخفق قلبه ، وتحرك ضميره ، وتوهم انها ماتت أو كادت تموت ، فتركها واسرع الى الباب لعله يجد ماء فيرشها به ، ففتح الباب وطلب حجرة فلورندا فاستقبلته العجوز وهى خارجة منها وقد بغتت منذ سمعت فتح الباب لأنها كانت لا تزال الى تلك

اللحظة جاثية تصلي وتطلب نجاة فلورندا من هذا الخطر . وكانت وهي مستغرقة في الصلاة لا تسمع شيئا مما حولها وقد اقفلت النافذة المطلة على النهر حجبا للعواصف ، فلم تتنبه لقصف الرعد وهبوب الرياح الا كما يشعر الراقد بصوت يسمعه بين اليقظة والمنام . ولكنها حالما سمعت فتح الباب تنبهت كأنها استيقظت من ذلك الرقاد ، وهرعت نحو الباب فاستقبلها الملك والبغتة على وجهه وقال : « الى بكوبة من الماء . اسرعى حالا . ! » . قال ذلك وعاد الى الغرفة فتبعته العجوز بالكوبة وركبتاها ترتعدان من الخوف على فلورندا ، فدخل رودريك وهو يقول للعجوز : « رشيها بالماء ! » فلما رات العجوز حال فلورندا صاحت : « فلورندا ما الذي اصابك ! . . » واسرعت فرشتها فاستيقظت وجلست وهي تنظر الى ماحولها ، فلما رأت رودريك صاحت : « ويلاه انى لا ازال حية ، ولايزال هذا الشرير امام عينى . كنت احسب انى نجوت منه بالموت ! »

اما رودريك فاغضى عن ذلك ووجه خطابه الى العجوز وقال : « ارايت ما الذي فعلته فلورندا بنفسها لطيشها وغرورها ؟ . اعرض عليها السعادة فترفضها ؟ » . فلم تجد العجوز جوابا غير البكاء لأنها توهمت ان نجاة فلورندا مستحيلة . على انها لم تجد سبيلا غير التزلف ، فجثت امام رودريك وقالت ودموعها تتساقط : « اتقدم الى مولاى ان يرفق بهذه الفتاة المسكينة ويتركها وشانها ، فان في قصره وتحت امره مئات مثلها » . فاستاء رودريك من قولها وكان يتوقع مساعدتها فرفسها برجله وهو يقول : « اليك عنى يا عجوز النحس . وانت ايضا ؟ » فخرجت العجوز وقد تذكرت الموعد الذى جاءهما من الفونس فقالت في نفسها لعل مع الفونس رجالا يصعدون الينا فينقذونها من بين يديه بالقوة ، فهرولت الى الحجرة وفتحت النافذة فتحا قليلا فعصفت الريح في وجهها وبللها الماء ونظرت الى جهة النهر فلم تجد نورا مثلثا ولا غير مثلث ، فاقفلتها وعادت الى الصلاة !

اما رودريك فاقفل الباب وعاد الى فلورندا وهي ما زالت جالسة على البساط في الغرفة ، وقد استراحت وعادت اليها قوتها وتصاعد الدم الى وجهها برد الفعل فعاد اليه الاشراق ، ولكن الكآبة ما زالت غالبة على منظرها . فدنا رودريك منها وهو يمد يده الى منطقته ثم اخرجها وهو قابض بها على خنجر ابرق فرنده وكانه يقطر سما ، وبيده الاخرى شيء كالخاتم يلمع ثم مد يده اليها وهو يقول : « لقد

نفد صبرى يا فلورندا فها انى عارض عليك السعادة لآخر مره فاما ان تقبليها ، وهذا خاتمى عربون على ذلك ، واما ان اغمد هذا الخنجر فى صدرك فى هذه اللحظة . اجيبى حالا . . ! »

فنهضت للحال وتصدت له وهي تقول : « أغمده . اغمد خنجرك فى صدرى وارحني من هذه الحياة . ويا حبذا الموت الذى القى به وجه ربى بريئة طاهرة . اقتلني يارودريك . اقتل ! »

فقال لها : « امعني الفكر ولا تظنى انى اقول ذلك للتهديد . انى فاعله حالا . وان عقلت واجبت سؤلى اخذت هذا الخاتم عربون محبتى لك وكنت اسعد بنات طليطلة ! »

قالت : « انى لا ارهب الموت فداء العفاف والطهر . الموت خير لى ، الا اذا رجعت الى رشدك وندمت قبل فوات الفرصة ـ لانك نادم فى اى حال . فاذا ندمت بعد ارتكاب هذا المنكر لاينفعك ندمك شيئا ، واذا قتلتنى فانك تندم على قتل فتاة بريئة طاهرة لا ذنب لها الا اصرارها على العمل بوصية الله » ثم حولت وجهها نحو السماء وقالت :

« يا ايها المخلص المجيد . ربى والهى . الا كشفت لهذا الرجل فظاعة ما هو مقدم عليه ؟ ! اقشع غشاوة الجهل عن عينيه »

فضحك رودريك وقطع كلامها وقال : « اظنك تتوقعين قصف الرعد ووميض البرق جوابا على كلامك كالمرة الماضية . كلا . فما نحن فى عصر المعجزات ! »

▭

وفيما هو يريد اتمام كلامه ، والخنجر مشهر بيمينه كانه يهم بان يطعنها به ، سمع وقع اقدام غريبة فى ممر القصر ، فانصت ، فسمع تلك الخطوات تقترب من الغرفة وهى تسرع ، فخفق قلبه واقشعر بدنه ، وعاد اليه الاحساس الدينى الذى ربى فيه ، فخيل له ان الله استجاب دعاء فلورندا فارسل بعض ملائكته لانقاذها

فقضى رودريك وفلورندا ثوانى قليلة فى حيرة ، وهما واقفان وابصارهما شاخصة نحو الباب ينتظران ما يكون ، وفلورندا ترتعش تخشعا وبغتة . واما رودريك فانه ارجع الخنجر الى مكانه ومشى الى الباب وهو ما زال يسمع خطوات القادم تقترب . وقبل الوصول الى الباب سمع قارعا يقرعه قرعا عنيفا ارتجت له جوانب القصر ، وارتعدت فرائص رودريك ، ولم يتمالك ان اسرع الى فتحه . ولا تسل عن دهشته واضطرابه لما راى اوباس داخلا وهو فيما يعرفه فيه من الهيبة والرزانة ورباطة الجاش ، والماء يقطر من اردانه !

اما فلورندا فتوهمت لما راته انه ملاك لابس ثوب اوباس ، وظلت واقفة وقد ملكت البغتة كل جوارحها حتى علق ريقها فى حلقها وامسكت تنفسها !. واما رودريك فلم يسعه عند رؤية اوباس الا اظهار استغرابه من جسارته الى هذا الحد فقال له : « ما الذى جاء بك الى هنا فى هذه الساعة ؟ . وكيف دخلت هـذا القصر بغير استئذان ؟ ! » . فأجابه اوباس وهو لايبالى كأنه يخاطب غلاما وقال : « اما الذى جاء بى فهو امر يهم المملكة ساعرضه عليكم . واما دخولى بلا استئذان فجلالة الملك يعلم ان امثالنا لا يستاذنون فى الدخول على الملوك او مخاطبتهم ، وهم يخاطبون الله بلا استئذان ! »

ففهم رودريك انه يعرض بسلطة الاكليروس خصوصا الاساقفة ، فانهم هم الذين اجلسوه على الكرسى ، ولكن اوباس لم يكن منهم للاسباب التى قدمناها ، فساءه ذلك التعريض ولكنه كان شاعرا بارتكابه ذنبا عظيما ، والمذنب يغلب عليه الضعف والارتباك ولو كان ملكا ، خصوصا بين يدى رجل مهيب مثل اوباس ، فعمد الى تغطية ذنبه بالمغالطة ، وقد عول على ان يصرف اوباس ثم يعود الى فلورندا فقال له : « انتظرنى فى الدار العامة ريثما آتيك »

قال : « لوكان الامر الذى جئت به يحتمل الانتظار ماجئتك فى هذا الليل تحت سيول الامطار » . قال ذلك ومد يده نحو فلورندا وهو يظهر انه يخاطب الملك وقال : « واذا فتحت النافذة المطلة على النهر تحققت الأمر الذى قلته لك ، ورايت الامطار بل الثلوج تتساقط ، فلو لم يكن مجيئى لأمر ذى بال ما عكرت على الملك راحتـه . انى لا اخرج من هذا المكان الا معك ! »

وكانت فلورندا كلها مسامع ولواحظ لما يقول اوباس او يشير اليه ، فلما سمعت ما ذكره عن النافذة ادركت انه يشير الى الموعد المضروب لانقاذها ففرحت . اما رودريك فالتفت الى فلورندا واشار اليها ان « اذهبى الى غرفتك ريثما اعود » وخرج مهرولا ، واوباس لا يغير مشيته ولا يكترث بانهماك الملك واستعجاله . فلما وصل رودريك الى آخر الممر التفت خلفه فراى الباب مفتوحا فتذكر انه نسيه بدون اقفال فعاد واغلقه كأنه يحاذران يختطفوا فلورندا من بين يديه ، ومشى واوباس لا يكترث بتلك الحركات حتى وصلا الى الدار العامة حيث ينعقد المجلس عادة ، فجلس ودعا اوباس الى الجلوس فقال هذا : « ان الامر الذى جئت من اجله لا يصح ذكره فى هذه القاعة »

فاستغرب رودريك جوابه وقال : « واين اذا ؟ » . قال : « فى

غرفة منفردة على حدة » . فنهض رودريك وقد ساءه هذا التعنت ومشى معه الى غرفة منفردة فيها مصباح نوره ضئيل، فجلس اوباس بين يديه ، ولم يستطع هوصبرا فقال : «قل ياحضرة الميتروبوليت»

فقال : « جئتك بأمر دعانى الله الى تبليغك اياه » . فانصت رودريك وتطاول بعنقه لسماع ما يقوله . فقال اوباس بصوت هادىء على عادته : « ان الله خولك سلطانا على الناس تحكم فيهم ، وتنصف مظلومهم ، وتضرب على ايدى الظالمين ، فلا تتخذ ذلك السلطان وسيلة الى ما يغضبه »

فبغت رودريك لما فى خطاب اوباس من التوبيخ ، وقطب حاجبيه اشارة الى استهجانه تلك الجسارة وقال : « هل عندك كلام فى غير هذه الشؤون ؟ » . فادرك اوباس انفعاله ، وانه انما يريد تحقيره ورد التوبيخ اليه ، فلم يقبل منه ذلك فقال : « لعلك تظن ما اقوله وهما او ليس بالامر المهم ! »

فقال رودريك وقد ظهر الغضب فى وجهه : « لا ارى ما يسوغ لك الاعتراض على اعمالى فى داخل قصرى ، فاذا كنت تعلم امرا يتعلق بالاحكام بين الناس او بالامن العام او بسياسة البلاد فتكلم ! »

فابتسم اوباس باستخفاف وقال : « الا تعلم ايها الملك انك مطالب بكل حركة تجريها فى منزلك وفى الخارج ؟ وان الصعاليك اقرب الى الحرية فى تصرفاتهم من الملوك ؟ انك مؤتمن على ارواح الناس واموالهم واعراضهم ، وانما اعطاك الله هذا السلطان لصيانتها والدفاع عنها ، افتتخذه وسيلة لسلبها بنفسك ، فاذا جاءك ناصح انتهرته واحتقرته ؟ ما هذه اخلاق الملوك المؤمنين ! »

فاعظم رودريك تلك الجسارة وازداد حنقا لرزانة اوباس ورباطة جاشه وقال : « هل كان اخوك اقرب الى تلك الاخلاق منى ؟ »

□

ففهم اوباس انه يعرض بخروج الملك من ايديهم تحقيرا له فلم يصبر على ذلك ، فقال وقد ارتفع صوته ولكنه ما زال هادئا : « دعنا من ذكر الاموات فلهم من يحاسبهم ، وانما نحن نحاسب الاحياء . على انى ما اظن غيطشة لو كان حيا يفعل مثل فعلتك . بل انا اجله عن الاقدام على مثل هذا المنكر ! »

فوقف رودريك من شدة الغضب وقال : « دع عنك ذلك كله فما هو من متعلقاتك ، لانى اعلم بواجباتى منك » . قال ذلك وتحول عنه اشارة الى رغبته فى اقفال الحديث ، ولكن اوباس ظل جالسا وقال :

« لوكنت تعرف واجباتك ما أردت السوء بفتاة طاهرة وانت ذوامراة . وبدلا من ان تستغفر عن هذه الفظيعة تدافع عنها ! »

ثم وقف واتم كلامه قائلا : « واعلم يارودريك ان اشتغالك بهذه الامور واهمالك كلمة الله ووصاياه ، من أول الادلة على قرب انقضاء هذه الدولة »

فلما سمع رودريك تهديده بقرب انقضاء دولته التفت اليه وهو يقول : « اراك تهددني بخروج الملك من يدى ! انكم لن تستطيعوا ذلك ولو ملأتم الدنيا مؤامرة واستعنتم بقوات الارض والسماء ! »

قال : « اذا كان لنا نصيب فى هذا الملك ، فان قوات السماء تقدر على اخراجه من يدك »

ولم يتم اوباس كلامه حتى راى باب الحجرة قد فتح ، ودخل الاب مرتين بغتة وهو يهرول ويتمتم كأنه يريد التكلم ويمنعه التلجلج من شدة التأثر . ثم نطق فخرج كلامه مقطعا موصلا مختلطا يشبه قوله : « ت .. ت .. ت .. تهدد جلالة الملك ب .. ب .. ب .. باخراج الملك من يده ! يا للوقاحة و ق .. ق .. قلة الادب ؟ ! » ولم يتم الاب هذه الجملة حتى امتلأت لحيته باللعاب المتطاير من فمه ، فلما فرغ من الكلام تشاغل بمسح لحيته وجعل يخطر فى أرض الغرفة بسرعة وهو مطرق ولا يزال يتمتم ، فادرك أوباس انه يتهمه زورا ليوقع الشبهة عليه ، فسكت استخفافا

واما رودريك فانه سر لهذه التهمة ، وتظاهر بالغضب والانتصار وقال : « لاباس يكفى الآن ما سمعناه من خير وشر ! » . قال ذلك وتحول من الغرفة فتبعه الاب مرتين ، فنهض اوباس وهو لا يبالى بما رآه وانما همه فوزه بانقاذه فلورندا من بين يديه !

وكان السبب فى مجيء اوباس الى القصر انه لما دنت الساعة المعينة جاء اجيلا وشنتيلا الى منزل أوباس فأمرهما باعداد قارب للنزول به فى النهر ، فنزلوا به فتساقطت الامطار وعصفت الرياح واضطرب الجو فهاج النهر ولكنهم لم يبالوا بذلك بل عدوه فى بادىء الراى مساعدا لهم على اخفاء خطواتهم ، فوصلوا تحت القصر وفلورندا فى الغرفة مع رودريك ، وخادمتها فى الحجرة تصلى وقد اغلقت النافذة فصعد الشابان ومعهما أوباس لايبالون بالامطار والزوابع حتى وقفوا تحت حجرة فلورندا عند تلك الشجرة الجرداء دون أن ينتبه لهم احد من الحراس ولا الحاشية . فاشار اوباس الى شنتيلا أن يتسلق الشجرة ويقرع النافذة فتسلقها حتى وقف على الغصن المقابل

للنافذة فقرعها بطرف حسامه قرعا خفيفا ، ثم قوى القرع فلم يجبه احد لأن العجوز كانت قد خرجت بكأس الماء لترش فلورندا ، فنزل شنتيلا واخبر اوباس بانه لم يسمع جوابا ، فوقف هذا برهة يتامل وقال فى نفسه لو كانت فلورندا مطلقة السراح لم يكن ليشغلها عن هذه النافذة شاغل ، فلا بد من ان تكون فى ضيق ، ولا باس عليها الا من رودريك ! وتخيل انها فى اشد الخطر ، وانه ان تأخر عنها قد يقضي عليها ، فأمر الرجلين ان يربطا القارب بجانب القصر ويمكثا عنده ، وحالما يسمعان فتح النافذة يصعدان على الشجرة ويحملان فلورندا وما معها

قال لهما ذلك وتحول الى باب القصر العام ، وسأل الحراس عن الملك فقالوا انه فى القصر ، فدخل ولم يعارضه احد لان الاساقفة كثيرا ما يدخلون على الملوك خصوصا ان الاكليروس كانوا اكثر تدخلا فى شؤون اسبانيا مما فى سائر ممالك اوربا تقريبا ، وعلى الاخص فى عهد رودريك لانه انما تنصب بمساعدتهم

نعم ان اوباس لم يكن من الذين انتخبوه ، ولكن الحرس الواقفين بالباب لايهمهم التمييز بين اسقف وآخر ، وانما يكفيهم النظر الى الثوب الاكليريكي ، فضلا عن ان هيبة اوباس تكفى وحدها لاحترامه واطاعة اوامره ، وخصوصا فى تلك الساعة وقد زاده الاهتمام جلالا ووقارا

دخل اوباس من ابواب القصر الواحد بعد الآخر لايعترضه احد ، حتى اتى غرفة الملك وكان يعرفها جيدا لأنها كانت لغيطشة من عهد غير بعيد . فسأل الحراس عنه فقالوا انه دخل غرفته ولا يدخل عليه احد فيها ، فلم يبال بأقوالهم وكان رودريك قد نسيها غير موصدة فدخلها فلم ير فيها احدا ، ورأى باب الممر المؤدى الى قصر فلورندا مفتوحا فدخل وما فى الدار احد من الخدم ، فمشى مشية من لايهاب ملكا ، وجعل يبحث بنظره فرأى تلك الغرفة مضيئة وسمع لغطا فلم يتمالك ان ضرب الباب ثم دخل ، فادرك من مجرد النظرة الاولى الى وجه فلورندا انها مصونة سالمة ، ورأى ان يبعد رودريك عنها ريثما تستطيع الذهاب الى حجرتها وتنجو من هناك ، فطلب الخلوة بالملك على ما تقدم

خرج رودريك من تلك الغرفة وقد اخذ الغضب منه ماخذا عظيما والاب مرتين يتبعه وهو يتمتم ويهز راسه على مراى من الملك استغرابا من وقاحة اوباس ! وكان يظن الملك لا يفارقه الليلة حتى يتآمرا على الايقاع باوباس ، ولكنه ما لبث ان رآه قد تحول عنه راجعا الى غرفته ، فجلس على مقعد فى احدى طرقات القصر ثم نهض ورجع الى قصر فلورندا وفؤاده يتقد حنقا وكيدا . ولا تسل عن حاله لما لم يجد احدا فى كل ذلك القصر ، ورأى حجرة فلورندا مشوشة خالية من الادوات الخفيفة الحمل الغالية الثمن !

عاد رودريك الى غرفته وهو يكاد يتميز غيظا ، وبعث الى قيم قصره فى تلك الساعة فجاءه ، فابتدره بالسؤال عمن خرج من القصر فى تلك الليلة . فاهتم القيم بالامر وسأل الخدم فقالوا انهم يقيمون فى الطبقة السفلى ولا يؤذن لهم بالصعود مطلقا ، وهم على ثقة أن باب القصر لم يفتح فى تلك الليلة ، وانهم لم يروا احدا خارجا من مكان آخر لأن الظلام كان مخيما ، وقد منعهم سقوط المطر وهبوب العواصف من الانتباه لما يحدث خارجا . فسألوا الحراس فكان عذرهم انشغالهم بالنوء والعواصف عن كل شاغل . واخيرا بحثوا فى الطريقة التى يمكن الفرار بها فاذا هى النافذة المطلة على النهر ، ورأوا على نواتىء الاغصان اليابسة نتفا من الفرو تناثر من رداء فلورندا

تحقق رودريك عندئذ ان اوباس شاركها فى ذلك الفرار فعزم على الايقاع به وعاد وقد انهكه التعب واثر الفشل فى عزائمه ، واحس كأنه افاق من سكرة فاحب الخلوة ، وذهب الى فراشه فتقلب على مثل الجمر وهو لا يستطيع رقادا ، وقلبه يتقد حنقا من اوباس فلم ير ما يفرج كربه الا استدعاء مرتين مستودع اسراره ، فنهض من الفراش حتى لقى احد الحراس الواقفين ببابه فامره ان يستقدم الاب على عجل ، ولو كان فى فراشه !

فذهب الحارس وقرع باب مرتين ، وكان قد خلع ثيابه وتدثر بقميص النوم وجلس فى الفراش وبدأ بصلاة النوم ، فوقف الرجل خارجا حتى فرغ الاب من الصلاة ، ثم دخل عليه وابلغه امر الملك باستقدامه ، ففرح لعلمه انه لم يدعه الا للايقاع باوباس ، فنهض للحال وهو ما زال بذلك اللباس وتزمل فوقه برداء واسع من الفرو ، ولم يضع القلنسوة على راسه وكان شعره منفوشا ابيض كأنه كتلة

من القطن فوق راسه ، ومشى حتى دخل على الملك الذى كان هو ايضا فى نحو ذلك من القيافة الغريبة بعد تقلبه فى الفراش ، وقد اختلطت ضفائر راسه بشعر لحيته وشاربيه ، واثر الغضب والفشل فى سحنته ! فلما دخل مرتين عليه شعر بارتياح لرؤيته ، فنهض لاستقباله وقبل يده ودعاه للجلوس بجانبه فجلس وهو يقول : « ارجو ان يكون مولاى الملك قد دعانى لامر يسره »

قال : « لا اظنك تجهل السبب الذى دعوتك من اجله . وقد كنت فى هذا المساء ناظرا سامعا لما كان من اوباس ! »

فراى مرتين من باب التملق ان يقطع كلام الملك ويقول : « انها وقاحة غريبة ليس اغرب منها الا صبر مولاى الملك عليها .. ! »

فقال رودريك : « حقا انها لوقاحة لم اكن اتوقعها من قوم قد اذقناهم الذل واخذنا الحكم من ايديهم . الا يخاف اوباس غضبى ؟ »

فقال مرتين : « اظن مولاى الملك لم يتنبه لفحوى اقواله . وأوباس مشهور بقلة الكلام وكثرة الفكر ، واذا قال كلمة يجب التمعن فى فحواها لانه لا يتكلم عن هوى ولا يلقى الكلام جزافا ! الم تسمع قوله لجلالتكم : « اذا كان لنا مطمع فى الملك فان قوات السماء تقدر على اخراجه من يدك ؟ ! انها جسارة غريبة تدل على ما بعده من الشراك والمكايد . ولا اظنه الا يعقد المجالس السرية ويعاقد الاعداء على خلع الملك ، ولكنه خائب لا محالة ! »

واحس رودريك عند سماع هذا التعليل بارتياح لانه كشف بابا لاتهام اوباس والقبض عليه وعلى من فى منزله ، لعله يجد فلورندا بينهم ، وقد غلب على خاطره انها فرت الى هناك اذ ليس لها من الاقارب احد ، خصوصا بعد ما ظهر له من القرائن الكثيرة فقال : « ما الراى يا حضرة الاب فى هذا الخائن ؟ »

قال : « الراى ان تقبض عليه حالا فى هذه الساعة قبل ان يتأهب او يدس الدسائس ، لانه خرج من قصرك وهو يهددك . فلا تكن هينا ، لان الحلم فى هذا المقام ضعف ! »

ولم يكن رودريك فى حاجة الى هذا التحريض وهو اكثر رغبة فى ذلك ، فزاد على راى مرتين ان يقبض على اهل بيت اوباس ايضا ويسوقهم الى السجن . ثم قال : « الى بقائد الحرس الملكى ! »

فخرج مرتين وامر بعض الحرس باستقدام القائد ، وعاد الى غرفة الملك

اما اوباس فانه نهض بعد ان تركه الملك ، وسار على عجل الى

منزله لموافاة فلورندا والخادمين وتدبير وسيلة لاخراجها من طليطلة ، فلما وصل وعرف من الخدم ان احدا لم يصل قبله اشتغل خاطره وخشي ان يكون اصابهم سوء ، فأعمل فكرته وعلل نفسه بقرب وصولهم حتى مل الانتظار ، فعول على الخروج بنفسه للبحث عنهم فى الطريق الذى كان يتوقع ان يجيئوا فيه ، لكنه ما لبث ان سمع ضوضاء ووقع حوافر خيول امام القصر واطل من شرفة القصر والظلام لا يزال حالكا فراى جماعة على افراس دنوا من القصر واحدقوا به عن بعد دون ان يخاطبوا احدا من اهله ، ولم يستطع لشدة الظلام ان يتبين الوجوه ولكنه ادرك بفراسته انهم من رجال رودريك وقد جاءوا لامر يوجب قلقا ! على انه لم يخف على نفسه لرباطة جأشه ولاعتقاده ببراءة ساحته واعتماده على عزيمته وقوة حجته ، ولكنه خاف على فلورندا ورفاقها لانهم اذا جاءوا فى تلك الساعة وقعوا فى الشرك لا محالة

واعمل فكرته هنيهة فراى المبادرة الى ان يتحول الى غرفته فتزمل بالقباء وخرج الى الباب ونادى أقرب فارس اليه فجاءه وترجل وحياه باحترام . فقال اوباس : « ما الذى تفعلونه هنا ؟ »

قال : « اننا مأمورون بالوقوف هنا الى الصباح »

قال : « ومن امركم بذلك ؟ »

فسكت الرجل وحول وجهه الى جهة اخرى ونادى ضابط تلك الكوكبة ، فجاء الآخر وترجل وحيى اوباس وهم بتقبيل يده ، فاجتذب اوباس يده بعنف وقال : «من امركم بالوقوف هنا وما الغرض منه ؟»

قال : « أمرنا به من ينوب عن الملك . ولماذا اقلقت راحتك وخرجت فى هذا الليل من فراشك ؟ . نم مستريحا »

قال بنغمته الهادئة الاعتيادية : « أفصح يا هذا عن الغرض من وقوفكم هنا أو ارجعوا من حيث اتيتم »

فقال وهو يخفض صوته تهيبا من اوباس : «اننا مأمورون بالقبض على قداستكم حالما تهمون بالخروج من هذا المنزل »

فاستشاط اوباس غضبا ولكنه ظل هادئا وقال : «مأمورون بالقبض على ؟ ! ومن امركم بذلك ؟ ! » . قال : « يعذرنى مولاى فانى مأمور لا يسعنى الا الطاعة . اننا مأمورون من قائدنا الاكبر بناء على امر مولاى الملك ، فهل نستطيع مخالفة الامر »

قال : « كلا . بل انا أحرضكم على الطاعة دائما » . قال ذلك واعمل فكرته للمسارعة فى الامر خوفا من وصول فلورندا فى تلك

الساعة فقال : « انى خارج الآن معكم ، ولا حاجة بكم الى انتظار الصباح »

قال الرجل : « ما فى الامر يا مولاى ما يدعو الى هذا القلق . فلو مكثت فى منزلك شهرا ما مسسناك » قال : « بل انا خارج الساعة . هلم بنا »

فأشار الضابط الى فرسانه اشارة يفهمونها ، فتجمهروا وأتوا بجواد ركبه أوباس وساروا به وهو فى وسطهم والكل سكوت لا يجسرون على التكلم فى حضرته . أما هو فكان فى أثناء الطريق يفكر فى الامر الذى ساقوه لاجله وقد عزم على الثبات والتعقل . غير ان ذهنه ما زال مشتغلا بفلورندا وخاف أن يلتقوا بها فى ذلك الطريق . فلما وصلوا بأوباس الى قصر الملك هم بالترجل فأشار اليه الضابط انهم مأمورون بسوقه الى مخفر بقرب القصر الى الصباح . وقال الضابط : « ولهذا السبب قلت لقداستكم ان تبقوا فى منزلكم الى الصباح لأننا اردنا بذلك المحافظة على راحتكم »

فاقتنع اوباس باخلاء الطريق لفلورندا ولو الحق بنفسه بعض العنف ريثما يلقى الملك ويرى ما يريد منه . فدخل غرفة فى بيت بجانب القصر ، والحرس بالباب ، فقضى بقية الليل يخطر فى تلك الغرفة ذهابا وايابا وهو يفكر فيما عسى أن يكون غرض الملك من القبض عليه، وخطرت له خواطر كثيرة وتهم شتى ربما يتهمه رودريك بها ، وما كان يهتم بشيء او يهاب الموقف لو انه اطمأن الى نجاة فلورندا

وكان ينتظر طلوع الفجر وتبدد جيوش الظلام رغبة منه فى الاطلاع على سر هذه الدعوة . ولكن مضى بعض النهار دون أن يطلبه أحد فازداد قلقه فاستدعى رئيس الحرس وسأله : « وماذا عسى ان يكون آخر هذا الأمر ؟ »

فقال : « لا ادرى يا سيدى ، فعسى ان يكون خيرا . ولو عرفت سر ذلك ما اخفيته على سيادتكم »

قال : « انى فى حاجة الى منزلى ، فاذا لم يكن هناك ما يدعو الى سرعة المقابلة فليطلقوا سبيلى ، ثم اذا اراد الملك منى امرا جئته »

فنظر الضابط الى اوباس وفى عينيه خبر يتردد بين كتمانه واظهاره ، فأدرك أوباس ذلك فيه فقال : « ما الذى تضمره ؟ . قل »

فقال : « انك اذا ذهبت الى منزلك لا تجد فيه احدا »

فبغت اوباس وقال : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « لانهم قبضوا على كل من فيه من الخدم والعبيد ، وهم فى السجن الآن وابواب المنزل مقفلة ! »

فلما سمع أوباس قوله تحقق عزم الملك على الفتك به جهارا ، ولولا رزانته لبدت البغتة على وجهه . ومما زاد قلقه خوفه على فلورندا ، اذ تبادر الى ذهنه انهم لم يقبضوا على اهل منزله الا لانهم رأوها فيه ، على انه لم يبال بالامر بل نظر الى الضابط وقال بسكينة وتعقل : « لن ينفعهم ذلك شيئا » . ثم تحول الى الداخل فخرج الضابط الى مكانه

وكان ذلك الضابط ممن يعرفون فضل أوباس وعائلته ، ولكنه كان واكثر رجال الدولة مسوقين مع التيار الاكبر ، يرون الحق ويقولونه ولكنهم لا يعملون به ــ شأن الدول فى انحلالها وتقهقرها ، فانها لا تخلو فى أثناء ذلك الانحلال من رجال عقلاء يشعرون بما أصاب دولتهم من الخلل ، وينتقدون اعمال حكومتها فيما بينهم وهم خارج المناصب ، ويزعمون انهم لو أتيح لهم الوصول الى تلك المناصب لأدخلوا فى الحكومة اصلاحا كبيرا ، فاذا تولى احدهم راى نفسه مضطرا الى مجاراة التيار كما فعل اسلافه ، واذا حاول مقاومةعرض نفسه للخطر ، ويندر ان يطول بقاؤه على عزمه القديم وهو فى منصبه لعجزه ، وهو فرد ، عن مقاومة مجارى الاحوال ــ وهى انما بلغت تلك الدرجة من الانحطاط بتوالى الاجيال ، والبدن اذا بلى بالضعف من الهرم لا يرجى عوده الى الشباب ، الا ان يكون المصلح فى اكبر المناصب . فقد يأتى باصلاح ذى بال ولكنه يذهب بذهابه

وقد كان فى طليطلة كثيرون ممن يرون الخلل المنتشر فى الدولة ، ولكنهم لم يكن لهم سبيل الى مناصبها الكبرى . واما صغار المستخدمين فليس لهم الا التذمر والكظم كما كان شأن ذلك الضابط

□

جلس أوباس على احد مقاعد تلك الغرفة ، واستغرق فى الهواجس حتى مضى بعض النهار . فلما رأى الخادم آتيا اليه بالطعام تحقق ان مكثه سيطول ، فزاد قلقه وابى الطعام ورد المائدة ، واستقدم الضابط وقال له : « انى لا استطيع طعاما قبل ان اعرف سبب هذه المعاملة ؟ »

فقال : « ارى يا مولاى ان تكتب كتابا احمله الى مجلس الملك ، لعلى آتيك بالجواب الشافى »

فاستخرج أوباس من جيبه لوحا مشمعا كتب عليه بالمسمار

ما معناه « حملني جندك الى هذا المكان بلا ذنب اقترفته . والملك يعلم ان رجال الكهنوت لا تجوز معاملتهم على هذه الصورة ، وانما هم تحت سيطرة الكنيسة . فلا أدرى سبب هذا السجن ، الا ان يكون ذلك من جملة ما تطرق الى حياة هذه الدولة ! »

فحمل الضابط الكتاب وسار به الى القصر ، ولم تمض برهة حتى عاد وهو يقول : « ان الاب مرتين داخل لمقابلة قداستكم »

فلم يسر اوباس لمقدمه الا على رجاء ان يستطلع منه سبب ذلك الاسر ، وقد علم انه آت بامر الملك . فظل جالسا حتى دخل مرتين مهرولا وهو يتمتم كأنه يتلو بعض الادعية ، ووقف بين يدي اوباس فحياه ، وتظاهر بانه يهم بتقبيل يده مراعاة لرتبته الكهنوتية ، فلم يبال اوباس بذلك بل ظل ساكتا . فجلس مرتين على كرسى تجاه المقعد وهو يبتسم

وبعد ان تنحنح الاب ومسح وجهه ولحيته غير مرة استعدادا للكلام ، قال : وهو يقطع الكلام قطعا : « قد بعثنى مولاى الملك لابلغ قداستكم انه يعلم امتيازات الكهنة ، وانه لايجوز سجنهم اومحاكمتهم الا فى مجالس كهنوتية ، ولكنه انما امر بالقبض عليك مؤقتا ريثما يلتئم مجلس الاساقفة وينظر فى امرك »

فلما سمع اوباس قوله زاد استغرابا ولم يفهم المراد تماما ، لان مجمع الاساقفة انما يجتمع مرة فى السنة أو مرتين ، ولا يجتمع فيما عداهما الا للنظر فى امور غاية فى الاهمية ، كانتخاب الملك ، اوالبحث فى خطر يتهدد المملكة ، او غير ذلك ، كما ان اجتماعه يقتضى مكاتبة اساقفة الاقاليم والمطارنة مما يستغرق اياما عديدة . فاطرق اوباس واعمل فكرته فى هذا الامر ولم يجب

وكان الاب مرتين لما فرغ من قوله قد ثبت بصره فى اوباس ليستطلع ما يبدو منه ، وكان يتوقع استياءه وغضبه ليشفى ما فى نفسه . فلما راى انه لم تظهر عليه علامات الاضطراب توهم ان ذلك ناتج من عدم ادراكه خطر ما يترتب على ذلك الاجتماع فقال : « ولا يخفى على قداستكم ان جمع الاساقفة يقتضى فى العادة زمنا طويلا ، ولكن نظرا الى مجىء اكثرهم الى طليطلة لتهنئة مولاى الملك بعيد الميلاد فلن يطول الانتظار فى جمع المجمع »

ثم اراد ان يلمح له بالتهمة الموجهة اليه فقال : «ويسوءنى ياصاحب القداسة ان تفرط منكم اقوال تدعو الى اساءة ظن الملك كما فعلتم فى مساء الامس . وهل كان يليق بمثلكم ان يهدد مولاى بالخلع مما لم

اكن لاصـــدقه لولا وجودى وسماعى اياه باذنى ، وقد لمحتم بمثل ذلك ايضا فى كتابكم اليه الآن ! ؟ »

▭

فادرك اوباس انهم يريدون محاكمته بتهمة سياسية ضد الملك ، فاستعظم التهمة ولكن باله استراح لوقوفه على حقيقة الخبر ، فلم ير فائدة من الكلام مع مرتين فى هذا الشأن ، علاوة على انه يشفى غله بذلك الـكلام ، فوقف بهدوء ورزانة وقال : « صبرا الى يوم الاجتماع . وكأن رودريك لايريد ان يبقى عندى شك بقرب سقوط دولته فزادنى بعمله يقينا بدنو اجلها ! » . قال ذلك ومشى دون ان يترك للأب مرتين فرصة للجواب ، فنهض هــذا وقال وهو يظهر الشفقة عليه : « الا تزال تقول ذلك ؟ يا للعجب ! . كيف يطيعكم ضميركم على المؤامرة ضد الملك وسلطانه وحياته ، وانتم تعلمون ان الكنيســة هى التى نصبته باجماع اساقفتها ؟ ! »

فادرك اوباس انه يريد التطويل لمضاعفة التهمة عليه وشفاء غله ، فتركه يتكلم وتحول عنه الى نافذة تطل على الحديقة ، فلما راى مرتين ذلك منه ضحك وهرول مسرعا نحو الباب ونادى الضـــابط وقال له : « بامرك الملك ان تحتفظ بهذا السجين لان امره ذو شأن ، واحذر ان يفلت منك ! » . وخرج الاب مرتين ظافرا منتصرا لولا ما ساءه من رباطة جأش اوباس وتأنيه وصبره . اما اوباس فانه عاد الى اعمال الفكرة وباله ما زال مشغولا على فلورندا . فتذكر الفونس وخروجه بالامس لقيادة الجند ، فاراد الاستفهام عن مقره فعاد الى الباب واستدعى الضابط وساله : « هل علمت بخروج الامير الفونس من طليطلة ؟ »

قال : « علمت ان فرقة خرجت من طليطلة بالامس ، ولا أدرى اذا كان الامير معها أم لا »

فترجح لأوباس ان الفونس سافر مع تلك الفرقة . ولكنه ظل مشتغل الخاطر بفلورندا لايدرى ما آل اليه امرها ، وخاف ان تكون قد وقعت فى الاسر فى جملة اهل منزله ، وهم انما قبضوا عليهم من اجلها ـ وود لو استطاع استطلاع امرها من احد ، وحدثته نفســه ان يستفهم الضابط ولكنه خاف عاقبة ذلك ، ولم يغره ما بدا من انس الضـــابط وحسن معاملته لعلمه ان الذين يطابق ظاهرهم باطنهم قليلون ، واقل منهم الذين يثبتون على عزمهم فيمـــا تدعوهم اليه ضمائرهم ، فخاف ان هو كاشفه بحديث فلورندا او تظاهر لديه

بالاهتمام بها ان يبوح بذلك لدى احد فيتخذ حجة عليه ، مع ثقته فى اخلاصه وولائه

وهكذا قضى اوباس فى مخبسه بضعة ايام وهو ينتظر التئام المجمع . ولم يوفق الى سبيل للاستفهام عن فلورندا ولا اتفق له سماع شىء عنها

اصبح اهل طليطلة ذات يوم وقد دقت فيها النواقيس وزينت الشوارع ـ خصوصا الشارع الكبير المؤدى من قصر الملك الى الكنيسة الكبرى ـ واشتغل العبيد بكنسها وتنظيفها ، ووقف الحرس صفين بين القصر والكنيسة وفى ايديهم الحراب وعليهم الملابس الرسمية التى يلبسونها فى الاحتفالات الكبرى ، فتساءل الناس عن سبب ذلك وتقاطروا الى الشارع الكبير ، وتطاولوا من النوافذ واشرفوا من السطوح يتوقعون مشهدا جميلا . !

وكان يوما صاحيا تجلت به الشمس على ابنية طليطلة ونهرها وبساتينها ، فلما كان الضحى عج الشارع بالضوضاء ، فالتفت الناس فاذا هناك فرقة من فرسان الحرس الملوكي بالملابس المزركشة قد خرجوا من قصر رودريك يأمرون المارة باخلاء السبيل لموكب الملك . وعلى بضعة عشر مترا وراءهم زمرة من الشمامسة بالالبسة الزاهية يتخللها الوشى المذهب ، بعضهم يحملون صلبانا قائمة على عمد ، والبعض يحملون الشموع ولكن قلما يظهر نورها لطلوع الشمس ، فضلا عن ان اكثرها طفىء بهبوب الرياح لأن طقس الشتاء فى طليطلة وان كان صافيا فانه لايخلو من الريح الهابة لوقوعها على جبل ، وبعضهم كان يحمل اغصانا من الزيتون ، وآخرون فى ايديهم المباخر يتصاعد منها البخور وهم يترنمون بأناشيد لاتينية . وبعد حملة الشموع فرس عليه رودريك بتاجه وحوله الاساقفة بملابسهم الرسمية ووراءهم المطارنة والشمامسة وغيرهم من رجال الاكليروس، ووراء ذلك كوكبة من الفرسان . فلما راى اهل طليطلة ذلك الموكب علموا ان الاساقفة قادمون للاجتماع ، ولكنهم استغربوا ان يقع ذلك فى غير موعده المعتاد

وكانت المجامع الدينية فى اسبانيا ثلاث درجات : المجامع الكبرى ، والمجامع الاقليمية ، والمجامع الابرشية . فالاولى تجتمع بأمر الملك فى طليطلة للنظر فى الامور المهمة المتعلقة بالمملكة كانتخاب الملك او المصادقة على قانون او نحو ذلك ، مثل اجتماعه فى ذلك اليوم للنظر

فى التهمة الموجهة الى اوباس . والمجامع الاقليمية تجتمع فى الاقاليم بأمر الاساقفة مرة او مرتين فى السنة . والمجامع الابرشية يحضرها رؤساء الاديار والقسوس والشمامسة ونحوهم . فلما رأى اهل طليطلة موكب المجمع الاكبر فى غير اوانه خافوا أن يكون هناك ما يتعلق بحرب أو عزل او تولية

اما الموكب فظل سائرا حتى وصل الى الكنيسة فتنحى الفرسان الى كل من الجانبين ، وانقسم الشمامسة بشموعهم وصلبانهم ومباخرهم الى قسمين ، دخل كل قسم من باب جانبى ، وترجل الملك والاساقفة والمطارنة ودخلوا من الباب الاوسط . وكان خدمة الكنيسة قد بكروا بتنظيفها ووضعوا المقاعد والكراسى فى الترتيب اللازم فى هذا الاجتماع ، وانارو الشموع وفتحوا الابواب ، ووقفوا ينتظرون الموكب ويمنعون كل من ارادوا الدخول اذا لم يكونوا ممن يخول لهم حضور المجامع ، من اساقفة طليطلة والاقاليم المشتركة معها ، والمطارنة ورؤساء الاديار والشمامسة والخوارنة وكبار رجال البلاط الملوكي . فلما دخل الموكب الى الكنيسة اتخذ كل منهم مجلسه . وكانت المقاعد قد رتبت صفوفا متعاقبة جلس الاساقفة على الاولى منها بترتيب الاعمار ، ووراءهم الاساقفة الصغار بحسب الاعمار ايضا ثم القسوس وامامهم الشمامسة واقفين ، وفى وسط القاعة امام تلك المقاعد كرسى خاص بكاتب سر المجمع . وهناك عرش مزخرف أعدوه للملك ، وبين يدى العرش مقاعد لمن يشهد الاجتماع من خاصة الملك . اما الاب مرتين فكان المفروض لكونه قسيسا أن يجلس بين القسوس وربما كان فى مقدمتهم جميعا لكبر سنه ، ولكنه فضل الجلوس بجانب الملك لسبب لا يخفى

□

ولما استقر كل واحد فى مجلسه أقفلت ابواب الكنيسة واستولى السكوت على تلك القاعة الكبرى برهة لاينطق أحد بكلمة . ثم تكلم رئيس شمامسة الكنيسة وهو جالس بجانب الهيكل فقال باللاتينية : (Oremus) أى « فلنصل » . فكان لقوله هذا صدى قوى ، اذ لم يكد ينطق بتلك اللفظة حتى خر الجمع سجدا على ركبهم ، واخذ كل منهم يصلى لنفسه بصوت منخفض . ثم قطع صلواتهم اكبر الاساقفة سنا بصلاة قالها باعلى صوته فأصغوا له . ولما فرغ منها صاح الجميع « آمين » . ثم قال رئيس الشمامسة باللاتينية : (Surgite fratres) اى « انهضوا أيها الاخوة » . فنهضوا وعاد كل الى

مجلسه . وعند ذلك افتتح الجلسة كاتب السر بتلاوة قانون الايمان (نؤمن باله واحد الخ) على نحو ما تقرر فى مجامع القسطنطينية ، ثم وقف شماس عليه ثوب أبيض ناصع ، وبين يديه كتاب ضخم على حمالة بجانب مجلس كاتب السر وقد فتح الكتاب فى مكان اختاره وكان الاساقفة وسائر الحضور ينتظرون ما سيتلوه ذلك الشماس ليعرفوا منه موضوع الاجتماع لأن ذلك الكتاب قانون المملكة ــ وكانت عادتهم اذا التام المجمع ان يقرأ الشماس فقرات من ذلك القانون تتعلق بالغرض الذى اجتمعوا من أجله ــ فاذا هو يتلوا مواد متعلقة بانتخاب الملك وبمن يسعى فى افساد نيات الشعب عليه او يتعمد خلعه ونحو ذلك ، فادرك الجمع الغرض من ذلك الاجتماع على وجه التقريب

فلما فرغ الشماس من تلاوة تلك المواد وقف كاتب الجلسة ووجه خطابه الى الحضور قائلا : « ربما تستغربون ما تلوناه على مسامعكم والاحوال على ما يتراءى لكم هادئة : ولكنني ابلغ قداستكم اننا اجتمعنا للنظر فى تهمة موجهة الى اخ من اخواننا ــ وللأسف انه اسقف من الاساقفة ، ربما استغربتم عدم حضوره هذه الجلسة مع انه مقيم فى طليطلة ، ولا شك انكم عرفتموه » فلما قال الكاتب ذلك ضج الاساقفة وتهامسوا فى شان اوباس ، واكثرهم لم يستغرب اتهامه بخلع رودريك لما يعلمونه من علاقته بالملك السابق وطمعه فى الملك لأبنائه . ثم قال الكاتب : « وسنستقدمه ويقف بين ايديكم وقفة المتهم ، فاما ان يبرىء نفسه او يجرى عليه القصاص »

فلما فرغ الكاتب من كلامه تكلم أحد الاساقفة الجالسين فى المقعد الاول وقال : « لابد لكل تهمة ممن يوجهها وممن توجه اليه ، وقد علمنا ان المتهم هو اخونا اوباس ، ولكننا لم نعلم من يتهمه بذلك ؟ »

فاجاب الكاتب : « انكم ستعلمون ذلك متى حضر »

فسكت الجميع وتربصوا ينتظرون قدوم اوباس وسماع محاكمته ، فانفرد احد الشمامسة ومشى الى غرفة تستطرق الى باب سرى فتوجهت انظار الاساقفة الى تلك الجهة ، ثم ما لبثوا ان راوا أوباس داخلا بمشيته المعهودة وقامته المعتدلة وجلال محياه وهيبته ، وليس على وجهه شيء من دلائل الاضطراب أو الوجل . فلما وصل الى الساحة الوسطى امام مجلس الاساقفة اجال نظره فيهم ثم التفت الى مجلس الملك ولم يعر الاب مرتين انتباهه كانه لم يكن موجودا هناك ، ووقف وقفة قاض لا وقفة متهم !

وقف وهو ينظر الى من حوله نظره الى اناس ضعفاء ، فلم يهمه

عددهم ولاما فى ايديهم من السلطة النافذة ، خصوصا الملك لان اوباس كان يعده غلاما غرا ، وزاد احتقارا له بعد ما عاينه من امره مع فلورندا . والرجل الحر يقدر الناس بفضائلهم . لابمناصبهم ، وان كان الناس قد تعودوا احترام اهل المناصب والغنى والنفوذ ، ولكنهم لايزالون فى باطن سرهم يفضلون رجال الفضيلة ، ولايعدون احترامهم لغيرهم الا تظاهرا ، خوفا من الظلم او التماسا للنفع . على ان منهم من يبالغ فى اطراء اهل النفوذ حتى ينخدعوا بانفسهم ويزداد ضررهم . فاذا كثر اولئك المتملقون فى بلاط ملك ضعيف اغتر بنفسه ، وانقاد لاهوائه وعمل بمشوراتهم وهم لايصلحون للشورى ، فتنحل الامور ، ويسود اهل الفساد ، وتؤول الاحوال الى الدمار والعياذ بالله !

وكان اوباس ممن لايذعنون الا للحقيقة ولايخيفه الا الخروج عن جادة الحرية . ولم يكن يشعر انه حى لنفسه رغبة فى الحياة الدنيا او طمعا فى مناصبها او ملاذها . ولكنه كان يرى نفسه منذ اعتزل العالم وانتظم فى سلك الكهنة انه انما يعيش عبدا لمبدا يراه مجسما فى مخيلته ، ويستغرب تغافل الناس عنه – كان يرى نفسه أسيرا للحق ، عبدا للحقيقة وحرية الفكر ، لايعرف المداهنة ولا المراوغة – فلا تعجب اذا رايته واقفا فى ذلك المجلس غير هياب ، وهو يرى الحق اعظم منهم واشد هيبة .. فلما وقف الكاتب ووجه خطابه نحوه قائلا : « ابلغ سيادتكم اننا استقدمناكم الى هذا المجمع لتهمة موجهة اليكم ، يتمنى كل واحد منا ان تكون باطلة فتبرا ساحتكم . انكم متهمون بالمؤامرة على خلع الملك . ولا يخفى على سيادتكم ان مثل هذه التهمة لا تمس الملك فقط ، بل هى تتناول هذا المجلس كله ، لانه هو الذى انتخبه واقره »

وكان الاب مرتين فى اثناء كلام الكاتب شاخصا بعينيه ، متطاولا بعنقه ، فلما سمعه يقول ذلك اشار باطباق جفنيه وهز راسه ان « احسنت ! » لانه حسب ذلك يزيد نقمة الاساقفة وسائر اعضاء المجمع على اوباس الذى لم يعبأ بما يبدو من احد ، فلما فرغ الكاتب من كلامه استولى السكوت على الجلسة وتطاولت الاعناق لسماع ما يقوله اوباس فاذا هو يقول بصوت هادىء : « سمعت كلامك وما تقوله من امر اتهامى ، ولكنى لا أجيب عنه قبل ان اعرف الرجل الذى يتهمنى »

فالتفت الكاتب نحو الملك وحنى راسه كأنه يقول : « جلالة الملك نفسه ! »

فقال اوباس : « وما هي ادلته على هذه التهمة ؟ » فلم يسع الكاتب الا الالتفات الى رودريك كأنه ينتظر جوابه على قول أوباس . فأشار الملك الى الاب مرتين ان يجيبه ، فوقف مرتين وقد نسي التأني ورباطة الجأش وعاد الى فطرته المجولة . فلما رآه الاساقفة يهم بالكلام أصاخوا باسماعهم لما يقوله لئلا تفوتهم الفاظه بالتمتمة فلا يفهمون مراده ــ وعلى جوابه سيبنون حكمهم ــ فقال : « اتطلب الادلة على ثبوت التهمة عليك وكل القرائن تؤيدها ؟ » يكفى انكم منذ كان الملك السابق حيا لا تزالون تسعون فى خلع طاعة الكنيسة الكاثوليكية والرجوع الى الاريوسية ، وقد كان تنصيب جلالة الملك ضربة كبيرة عليكم جميعا ، فأخذتم تبذلون كل مرتخص وغال فى مقاومته ولكنه مؤيد من الله والكنيسة ! . ومن عجيب امرك انك تطلب الشهادة على صدق قول جلالته » . ولم يبلغ الى هنا حتى تعبت آذان الحاضرين من كلامه المتقطع ، فالتفت أوباس الى الحضور وهو يبتسم ، وقال : « بل من العجائب استغراب طلب الدليل على تهمة موجهة نحواسقف يحمل جسد الله بين يديه ، تهمة اقل ما يقال فيها انها مختلقة ! . نعم مختلقة ولو قالهـا الملك ، لأن الحق فوق الملوك والاساقفة . ثم لا ادرى ما الذى يسوغ هذه التهمة ؟ ! وكيف يقال انى تآمرت على خلع هذا الملك ؟ ! فمع من تآمرت ؟ واين ؟ وكيف ؟ وهل تكون المؤامرة أو التواطؤ الا بين جماعة ؟ فمن هم رفقائى فى التهمة ؟ انه قول غير معقول . ولست أقول ذلك فرارا من العقاب لأن العقاب لايهمنى ! »

فلم يصبر الملك عن جوابه بنفسه ، فقال وقد حملق عينيه وقطب حاجبيه : « يا للعجب من هذه الوقاحة ! . كيف تنكر ، وقد سمعتك باذنى هذه تهددنى بقرب انقضاء هذه الدولة ، وانه يهون عليكم اخراج الملك من يدى ؟ هل تنكر ذلك وقد سمعه الاب مرتين ايضا ؟ فهل من دليل أوضح من هذا ؟ ! »

وكان الاساقفة ميالين الى التصديق لأسباب منها ان اكثرهم يكرهون اوباس لحرية ضميره وشدته فى الحق ، ولأنه قوطى . ناهيك بالقرائن التى تساعد على ثبوت التهمة ، لأن اهل طليطلة كلهم يعرفون كره بيت غيطشة اجمعين لرودريك وكل من يقول بقوله ــ خصوصا الاساقفة ــ لبواعث تقدم بيانها . فلما سمعوا شهادة الملك نفسه وشهادة قسيسه مالوا الى الحكم على اوباس . وزد على ذلك انهم كان يمكنهم الحكم عليه بدون محاكمة ، ولكنهم اجتمعوا ذلك

الاجتماع ليقضوا به شبه واجب عليهم . فلما فرغ الملك من كلامه وجهوا أبصارهم نحو أوباس ليسمعوا قوله ، فراوه لايزال على ثباته ورباطة جاشه . وقبل ان يشرع فى الجواب اعترضه أحد الاساقفة قائلا : « انى لأعجب من نقمة بعض رجال القوط على تنصيب جلالة الملك ، وتنصيبه انما كان بالانتخاب على مقتضى قوانين الدولة والكنيسة . والذين يدعون الحق لأبناء غيطشة او غيره من اعضاء عائلته فى الملك انما هم مخطئون . لأن الملك فى اسبانيا الآن انتخابى كما لايخفى على سيادتكم ، ولا يجلس على هذا العرش الا الذى ينتخبه هذا المجمع المقدس . فهل تنكرون أن جلالة الملك منتخب على هذه الصورة ؟ »

فلما سمع أوباس ذلك ادرك انهم يحاولون ايقاعه فلم يبال بل قال وقد وجه خطابه الى الاسقف : « ان هذا السؤال يا حضرة الاسقف خارج عن موضوع التهمة ، ومع ذلك فانى اجيبك عنه . نعم ان هذه المملكة اكثر ممالك اوربا خضوعا للكنيسة ، واساقفتها هم الذين ينصبون الملك كما ذكرت ، ولا انكر ان جلوس هذا الملك كان بانتخاب هذا المجمع فانتخابه كان قانونيا ، وان كنت لا اعتقد ان المجمع توخى كل الطرق القانونية بنقل الصولجان من الملك المرحوم اليه مما لا اخوض فيه الآن . ولكنى لا أخفى عليكم ايها السادة اننى ارى الكنيسة قد تمادت بسلطتها فى هذه المملكة دون سائر الممالك حتى تجاوزت حدها ــ اقول ذلك وانا من اعضاء الكنيسة ، ولا اظن احدا منكم يقول هذا القول ولو كان يعتقده ، لأنه يغاير مصلحته ! »

وكان الاب مرتين لما سمع تعريض أوباس بالمجمع فى الانتخاب اشار الى الكاتب أن يدون ذلك القول أمامه ليطالبه به ، ففعل . اما الاسقف الذى كان الكلام موجها اليه فأجاب قائلا : « يظهر انك تنكر فضل الكنيسة على المملكة ، وهل يخفى عليك ان الكنيسة الكاثوليكية هى التى حفظت النظام والتمدن فى هذه القارة . وقد جاء اجدادكم الجرمان على اختلاف قبائلهم ــ واكثرهم وثنيون ــ فتغلبوا على المملكة الرومانية وتفشوا فى مدنها قبائل رحلا لاعلم عندهم ولا تمدن ، فجمعتهم الكنيسة فى احضانها وهذبت اخلاقهم وجعلتهم امما وممالك ، وهى التى حفظت لهم العلم والحكمة ، وهى التى دربتهم فى كل شؤونهم السياسية والادارية ، ولولاها لكانت اوربا فوضى لا علم فيها ولا نظام »

فهم أوباس بالجواب ، ولكن الكاتب دق جرسا امامه اشارة الى

التماس السكوت ، فسكتوا والتفتوا فراوا الملك يهم بالكلام فاصغوا .
وقال الملك وهو جالس على عرشه وصدره يتقدمه وشعره مرسل الى كتفيه من تحت تاجه : « لاحاجة بنا الى الخوض فى مسائل لا علاقة لها بالموضوع . يكفي ما قد سمعتموه من كلامه الآن من استهجان اعمال المجمع فى انتخاب الملك ، وانكم لم تنتخبوه بطرق قانونية . فمن يصرح بمثل ذلك فى مجلس القضاء هل يستغرب اتهامه بالمؤامرة »

فالتفت اوباس الى رودريك قائلا : « لا علاقة ايها الملك بين استحساني الانتخاب او استقباحه ، وبين مؤامرة تزعمون انى عقدتها لخلعكم ــ نعم انى اشك فى الطرق القانونية التى اتخذت فى الانتخاب ، ولكننى لم ابن عليها مؤامرة كما هو اعتقادكم »

فاعترضه الاب مرتين قائلا : « وكيف لا يعتقد جلالته ذلك وقد سمعه من فيك كما سمعته انا . . ؟ يا للعجب ! » . قال ذلك والتفت الى الملك وقال : « يظهر ان امر المجادلة طال ، بينما التهمة صريحة واضحة »

فالتفت الملك الى الاساقفة وقال : « قد سمعتم ما قاله اوباس ، فاما ان يكون الملك رودريك تنصب على طليطلة بغير حق ، واما ان اوباس هذا قد لبس ثوب الكهنوت بدون استحقاق » . قال ذلك وقد اخذ الغضب منه ماخذا عظيما حتى لقد نزل من فوق عرشه ومشى وهو لايفقه ، ثم عاد الى كرسيه وجلس بعنف ففهم اوباس انه يعرض بتجريده من رتبته الكهنوتية قصاصا له فقال : « لا تظن هذا التهديد يضعف عزمى فى قول الحق ، لانى لست اسقفا بهذه الثوب ، ولا انت ملك بهذا التاج ، وانما الاعمال بالنيات . ومهما اردتم بى من القصاص فذلك لايقلل شيئا من اعتقادى ، ولكنه يزيد ذنبك يا رودريك امام الديان العظيم لانه سبحانه وتعالى يعلم السبب الذى من اجله نقمت على وسقتنى الى هذا المجمع . وانت تعلم وهذا الاب المحترم ايضا يعلم السبب الذى نقمتما من اجله حتى سقتمانى الى هذا الموقف ، وما انا هائب موقفا اراني فيه محقا ولو لم ينصفنى الناس ، فان الله نصيرى وهو يعلم ما فى القلوب »

فلما سمع الملك تعريضه بحديث فلورندا خاف ان يحرجوه فيصرح به ويذكر اسمها وحكايتها ، فتظاهر بالغضب ووثب من مجلسه وصاح فيه : « ويلك . ؟ ابمثل هذا الكلام تخاطب ملك الاسبان ؟ ! » . ثم التفت الى المجمع وقال لهم : « اذا كنتم صابرين

على اقواله فها انى اخلع نفسى او هو مخلوع من ساعته .. ! »
فقال اوباس وهو لايزال رابط الجاش : « لاباس ايها الملك اذا انا خلعت هذا الثوب ، غير ان ذلك لايغسلك من الرجس الذى تعمدت الانغماس فيه ، ومن اجله سمعت توبيخى ، فساءك الحق وثقل عليك ، فاردت الانتقام منى . ولكن الله ولى النقمة ! »

فقاطعه رئيس الاساقفة قائلا : « أدعوك يا حضرة الاسقف باسم الكنيسة أن تسكت » فلم يسع اوباس غير الاذعان ، واستولى على الجلسة السكوت برهة والكل مطرقون ، وربما تهامس البعض بكلام لايسمع له طنين . وكان الاب مرتين فى اثناء ذلك يجيل عينيه فى الاساقفة يتصفح ما يبدو فى وجوههم ، فاذا وقعت عينه على عين احدهم اشار بحاجبيه وشفتيه اشارة الاستهجان وهو يومىء الى اوباس

اما هذا فكان واقفا وقوف رجل برىء الساحة ، واسع الصدر ، يرسل بصره الى الاساقفة بلا اشارة ولا ملاحظة ، ولكن يظهر من سكون جاشه وما يتجلى فى وجهه من الهيبة انه غير مبال بما قد يكون من عاقبة تلك المحاكمة ، لاعتقاده انه سيق اليها زورا وبهتانا ـ على انه تذكر ما دار بينه وبين الفونس قبل سفره ، وما تواطأ عليه من امر الملك ونحوه ، فراى التهمة تصدق عليه من هذا الوجه ، ولكنه راجع ما صدر من اقواله فى تلك الجلسة فلم ير فيها ما يمنع انكاره حق الملك على رودريك ـ وفيما هو يفكر فى ذلك وقعت عينه على صورة كبيرة معلقة فى بعض جدران الكنيسة تمثل السيد المسيح واقفا بين يدى بيلاطس للمحاكمة ، فتذكر قبوله الصلب دفاعا عن الحق ، فزاد استمساكا بموقفه !

اما رودريك فكان قد عاد الى كرسيه ، ولما راى المجلس ساكتا خاف ان يعودوا الى البحث فيما وجهه اليه اوباس من تهم فالتفت الى رئيس الاساقفة وقال وهو يظهر الهدوء كمن له سلطان ان يدير آراء المجمع كما يشاء : « لقد كفانا ما سمعناه ، واذا رايتم المسألة تحتاج الى نظر بعد كل ما بدا لكم من الادلة الصريحة ، فانى احل هذه الجلسة ونؤجل البحث الى جلسة اخرى »

فوقف الاب مرتين وقال بلهجته المعلومة موجها خطابه الى رودريك : « لا يتبادر الى ذهن جلالة الملك من سكوت اعضاء المجمع انهم يشكون فى نطق جلالته ، او يخامرهم ادنى ريب من ثبوت التهمة على اوباس بعد الشهادة الصريحة التى ادليتم بها جلالتكم ولم

ينكرها هو . بل ابدها بما فرط منه من العبارات الصريحة التي تدل على غضبه من هيئة الحكومة الحاضرة وممن كان السبب فيها ، كأنه قال بصريح العبارة : « ان هذا المجمع قد خان البلاد بانتخابه جلالة الملك . . ! »

فلما سمع اوباس قوله وما فيه من اثارة الخواطر عليه وجه خطابه الى رئيس الاساقفة قائلا : « قد سمعتم ما قاله الاب مرتين ، ولا اضمن انكم فهمتموه ، وكأني بكم تتوقعون انكاري ذلك خوفا من العقاب . كلا . اني اشك في قانونية انتخاب هذا الملك كما قلت لكم ، ولو خيرت ربما اخترت سواه . واما الدعوى التي سقتموني من اجلها الى هنا فما هي في شيء من ذلك . ان رودريك هذا الذي تسمونه ملكا انما جمعكم لمحاكمتي واتهمني هذه التهمة لاني نصحت له ان يرجع عن فظيعة هم بارتكابها . ولولا خوفي من تدنيس هذا المكان المقدس بذكرها لكشفت القناع عنها ، ولو فعلت ذلك وانصفتموني لباشرتم رجم هذا الجاني بايديكم ! »

فضج المجمع ، وهاج غضب الملك ، وخاف زيادة التصريح فتظاهر بالانفعال الشديد والاستغراب ولم يدر ماذا يقول ، فانقذه الاب مرتين من تلك الورطة بقوله يخاطب كاتب الجلسة : « يرى مولاي الملك ان اخانا الاسقف قد تهور في اقواله وخرج عن طوره الى الخلط والهذر ، كأنه جن لفرط ما خافه من سوء العاقبة فلم يفقه ما يقول ، ولذلك فمولاي الملك يأمر باقفال الجلسة حالا وتأجيل المحاكمة الى جلسة اخرى . ولا يجوز بعد صدور هذا الامر ان يفوه احد في هذه الجلسة بغير الصلاة الختامية »

فنزل كلام الاب مرتين بردا وسلاما على رودريك ولم يسع الكاتب الا العمل بالاشارة لأن للملك الحق في فتح الجلسة ورفعها دون سواه . ولم يكترث اوباس بذلك بعد ان قال ما قاله ولو بالتلميح ، ثم وقف رئيس الاساقفة فتلا الصلاة الختامية ، وانفضت الجلسة فخرجوا الى منازلهم الا اوباس ، فانهم ساقوه تحت الحفظ الى مخفر آخر واوصوا الحراس أن يحتفظوا به

— ٦ —

فلنترك اوباس وشانه ولنعد الى الفونس وما كان من امره بعد ذهابه بامر الملك . فقد خرج من منزله ومعه يعقوب وسارا الى مقر

المعسكر فى بناء كبير بضواحي طليطلة وحولهما الفرسان الذين جاءوا بأمر الملك فأوصلوهما الى المعسكر وعادوا . فلما دخل الفونس استقبله الجند بالاحترام فترجل ومشي ، ويعقوب يسير بين يديه وليس معه من الخدم سواه وقد استغربوا منظره بما ذكرناه من اهماله لحيته واثوابه ، حتى وصلوا الى غرفة خاصة بالقائد الكبير فاذا هو بخادم واقف هناك وبيده كتاب عرف الفونس من منظره الخارجى انه من الملك ، فخفق قلبه لفرط ما غاظه الكتاب الماضى ، فدخل ولم يطلبه حتى جلس فى صدر الحجرة فاستأذن الرسول من يعقوب بالدخول على الفونس فاستأذن له ، فقال لاحاجة الى دخوله هات الكتاب منه ، فأخذه منه وجاء به الى الفونس وهو يقول : « لا تغضب يا سيدى ، لعل فيه امرا بالرجوع الى منزلك »

فتناول الفونس الكتاب وفضه دون أن يتكلم فاذا هو من الملك يقول فيه :

« من رودريك ملك القوط الى القائد الباسل الفونس

« باسم الاب والابن والروح القدس

« أما بعد : فقد سبق ان كتبنا اليك بالذهاب الى كونتية .. ولم نعين لك المدينة التى تنزل فيها فانزل مدينة استجة Astgia من كونتية بتيكة واقم برجالك فى احدى القلاع ريثما اكتب اليك بالجهة التى تذهب اليها ـ وقد ارسلت اليك مع هذا كتابا تدفعه الى كونت بتيكة ليتلقاك بالترحاب ويمدك بالمال عند الحاجة والسلام . كتب فى قصر طليطلة »

فلما فرغ الفونس من قراءة الكتاب امر يعقوب ان يأتيه من الرسول بالكتاب الآخر فجاءه به ودخل عليه واغلق الباب وراءه وقدم له الكتاب وهو يتفرس فى وجهه . فلما راى ما فيه من الانقباض والياس اراد التخفيف عنه فعطس عطسة ارتج لها ذلك البناء فانتبه الفونس ونظر الى يعقوب فاذا هو ينظر اليه ويضحك ويهز راسه ويحك ذقنه بأنامله ، فاستغرب الفونس ذلك منه وكاد ينتهره لو لم يسبق الى ذهنه ما آنسه من احترام عمه اوباس له واعتماده على اقواله ، وتذكر السر الذى توسمه فى سيرته فابتسم له وقال : « ما الذى يضحكك يا يعقوب ؟ هنيئا لقلبك ! » قال ذلك وتنهد ، فتنهد يعقوب وقال له : « بل هنيئا لك انت كيف تخدمك السعود على اهون سبيل! »

فهز الفونس راسه وقال : « تبا لهذه السعود ، دعنى وشانى ! » قال ذلك ونهض وهو يقول : « لايليق بنا الاستتار هنا ونحن مامورون

بالذهاب الليلة ، ولابد لى قبل كل شىء من استدعاء القواد وابلاغهم الامر بالاستعداد ، فامض الى قائدى الخمسمائة واستقدمهما الى »

وكان الجند الاسبانى فى عهد القوط مؤلفا من فرق ، كل فرقة الف جندى يسمى قائدها رئيس المعسكر ، تحته قائدان كل منهما يراس خمسمائة تقسم الى مئات اسم قائد كل منها قائد المائة . فالقائد العام يبلغ اوامره الى قائدى الخمسمائة وهما يتوليان تدبير الجند .. فخرج يعقوب ثم عاد واخبر الفونس ان القائدين قادمان ، ثم جاءا وقد لبسا لباس السفر ، وشعرهما مثل شعور سائر القوط مسترسل على اكتافهما ودلائل الصحة بادية على وجهيهما وملامح النعم فى قيافتهما . فلما دخلا سلما على الفونس باحترام وهما يعرفانه منذ كان ابوه حيا ويحترمانه من اجل ذلك ، وقد سرهما توليه قيادة تلك الفرقة لما يعلمانه من حميد اخلاقه وطيب عنصره . وكانا من اهل الغيرة على عصبية القوط ، لم يرضيا برودريك الا مع الجماعة ، فاذا خلوا تحدثا بما كان من تحول النفوذ الى العنصر الرومانى بعد تولى رودريك ولكنهما لم يكونا يجسران على التصريح بذلك بين يدى احد ، حتى ولا الفونس نفسه لانه اصبح مثلهم فى ذلك . فلما رآهما الفونس تذكر انه شاهدهما من قبل ، ولكنه استغرب تأهبهما للسفر قبل ان يصدر لهما الامر بذلك فقال : « اراكما بلباس السفر ؟ »

فتكلم احدهما واسمه « ومبا » ـ وكان طويل القامة شديد سواد العينين والشعر ـ وقال : « لقد وردت الينا الاوامر بذلك من جلالة الملك تعجيلا للرحيل ، فالجند الآن كله على اهبة السفر ، انما يحتاج الى امر من مولاى الفونس »

فلما سمعه يذكر اسمه استانس به ، وشعر براحة اليه وقال : « نقلع من هذا المعسكر الآن فارجو أن تتوليا تدبير الجند فى قيامه وقعوده الى ان نبلغ مقصدنا »

فأشارا باحناء الراس ان « سنفعل » ثم تكلم ومبا وكانت له جسارة وتقدم على رفيقه وقال : « الا ينبئنا مولاى عن الجهة التى نحن ذاهبون اليها ؟ »

قال : « اننا ذاهبون الى استجة على نهر السنجيل فى كونتية بتيكة . فهل تعرف الطريق اليها ؟ »

قال : « اعرفها جيدا فان الطريق اليها نحو الشمال بغرب الى مريدة على نهر اناس ، فنقطعه ونسير شمالا بشرق الى قرطبة ، ثم

تنحدر الى استجة على نهر السنجيل . وقد عرفت هـذه المدينة وصليت فى كنيستها ، واقمت فى قلعتها وعبرت جسرها وعرفت اديارها واسواقها »

قال الفونس : « بورك فيك ، لقد القيت الامر اليكما فى تدبير هذه الحملة فى اثناء المسير ، ولكنني اوصيكما بامر يهمنى كثيرا ، وذلك انى لا اريد ان يعتدى الجند فى اثناء الطريق على احد من الفلاحين ولا ان يأخذوا لاحد مالا او زرعا او يسيئوا معاملة احد . فاذا فعل احد ذلك كان جزاؤه عندى الجلد أو القتل ، واذا كان من ارباب الرتب جردته من رتبه واملاكه واهنته ، فانى اريد ان يسير هذا الجند بكل هدوء وسكينة »

فلما سمع ومبا ذلك ظهر الاعجاب فى عينيه البراقتين وقال : « بورك فيك وفى اصل انت فرعه ، لقد عودنا المرحوم ابوك مثل هذا العدل والرافة »

فلما سمع قوله عض على شفته واطرق كأنه يقول له : « ليس هذا وقت التصريح » ثم اتم كلامه قائلا : « وآمر الكهنة المرافقين لهذه الحملة ان يوصوا الجند بهذه الوصايا . ولا يخفى عليكم ان جندنا اكثر ما يحسنون الحرب مشاة فلا تتعبوا المشاة بالمسير ولا تحملوهم احمالا ثقيلة . ويكفيهم مايحملونه من الدروع والاسلحة »

فلما فرغ الفونس من كلامه لم يزد ومبا على اشارة الطاعة ثم قال : « الا يأمر مولاى بحاشية من الاعوان والموالى تسير فى خدمته الخاصة »

فاراد الفونس ان يصرح له بالتخفيف عن الموالى ، ولكن وقعت عينه على يعقوب فرآه يشير اليه اشارة خفية الا يفعل ، فانتبه وقال : « لا احتاج الآن الى احد فان معي خادمى هذا ، وهو يدبر لى ما احتاج اليه واذا احتجت الى سواه طلبت »

فخرج القائدان فرحين بمرافقة الفونس . اما هو فلما خلا بيعقوب قال له هذا : « خفت أن يسبق لسانك الى قول تؤاخذ عليه ونحن بين يدى الاعداء ، واعلم يا مولاى انك موفق باذن الله لان الامر الذى كنت لا تستغنى فى الوصول اليه عن بذل الاموال واستخدام الرجال قد وصلت اليه عفوا »

قال : « وماذا تعنى ! ؟ »

قال : « اعنى ان المشروع الذى اسسته مع مولاى الميتروبوليت لقهر ذلك العدو الحاكم قد اتيحت لك فرصة الشروع فيه منذ الآن . هذه فرقة من الجند الآن تحت أمرك فقربها منك وحببها اليك ببذل

المال .. المال .. ! » قال ذلك وتلمظ كأنه يتلذذ بطعام شهى ! فقطع الفونس كلامه وقال : « ومن اين لنا المال يا يعقوب ؟ » . فوضع يعقوب كفه على صدره وحنى راسه واطبق جفنيه ولسان حاله يقول : « المال عندى وعلى احضاره »

فتذكر الفونس مثل ذلك الوعد بين يدى اوباس فى ذلك الصباح فتاقت نفسه الى استطلاع سر هذا الرجل فقال : « لقد اذكرتنى وعدك السابق ، ولا يخفى عليك انى شديد الميل الى معرفة حقيقة امرك ! »

فتحول وجه يعقوب الى الجد مع بعض الانقباض وقال : « يأذن لى مولاى بتأجيل ذلك الى وقت آخر . واما المال فانى سأبين له سبيل الحصول عليه بعد وصولنا الى استجة ، والامور مرهونة بأوقاتها . طب نفسا وقر عينا ، وكن على يقين انى على قبح خلقتى وقذارة ظواهرى لا اخلومن حسنات نافعة ! والآن لابد لنا من الركوب لانى اسمع قرع الطبول ايذانا بالمسير »

قال : « الى بالفرس فاركبه وتول امر الخدم وتدبير ما قد نحتاج اليه من الاطعمة ونحوها فانك نائب عنى فى كل ذلك ، ولا تدع احدا يأتى الى من الخدم »

فخرج يعقوب واحضر فرسا من احسن افراس الحملة وعليه سرج ثمين ، وكان الفونس بلباس القواد وقد زينه شبابه وجماله . وقبيل الغروب اذن بالرحيل فاقلعت الحملة مارة قبل خروجها من ضواحى طليطلة بمرتفع يطل على المدينة ، وهى واقعة على مرتفع آخر ، فالتفت اليها الفونس وقد بدت فيها الكنيسة الكبرى ، ولما وقعت عينه على قصر فلورندا خفق قلبه خفوقا سريعا وهاج به الوجد ، وتذكر ما كان من لقائه اياها فى ذلك الصباح وما آلت اليه حاله فى المساء ، ونظر الى السماء والغيوم تتكاثف وتتلبد اشبه بما يتكاثف على قلبه من سحب الهيام والشوق ، وخيل له ان الطبيعة تشاركه فى ذلك الشعور — والمرء مفطور على تطبيق حوادث الطبيعة على ما يوافق شعوره ، وتفسيرها بما يلائم اعتقاداته واوهامه — فلا غرو اذا توهم الفونس ان السماء تجهمت شعورا بفراق حبيبته

ولم تغب الشمس حتى اظلمت الدنيا وتساقطت الامطار وهبت الرياح ولم يعد المسير ممكنا لهم ، فامر الفونس بالنزول هناك فنصبوا الخيام وفى جملتها خيمة له نصبوها حالا وجاء يعقوب فاستدعاه اليها ودخل هو معه . وكانت ليلة شاتية قاسى فيها الفونس من هول

الوحشة والشوق مثل ما قاسته فلورندا فيها من العذاب ، وهوغافل عن حاله لاعتقاده انها على موعد منه ليأتى لانقاذها فى ذلك المساء وقد وكل بذلك عمه اوباس

فلما دنا الوقت المعين لانقاذ فلورندا تصورها الفونس خارجة من قصر رودريك مع اجيلا وشنتيلا فى القارب الى منزل اوباس ، وتوهم انها اصبحت فى مأمن هنـاك ريثما يبعث بها اليه حيثما يكون . ثم تذكر بغتة ان اوباس لا يعلم المكان الذى هم ذاهبون اليه ، فانتبه للسبب الذى من اجله غير الملك خطة مسيره ، والتفت الى يعقوب وكان جالسا فى بعض جوانب الخيمة وقد تزمل بقباء كثيف وتلملم وتجمع من شدة البرد ، والرياح تهب والرعود تقصف ، وقال له ولم يحاذر ان يعلو صوته لعلمه بانشغال الآذان بقصف الرعدعن سماع حديثهما : « هل علمت السبب الذى من اجله غير الملك خطة مسيرنا ؟ ! »

فرفع يعقوب راسه وقال ولحيته ترتعش من البرد : « اظننى عرفت وعرفت اشياء اخرى ، لولا البرد الشديد لكنت أقصها عليك »

قال : « وماذا عرفت . قل لى واذا كنت تشكو البرد فاليك بقدح من الخمر يدفئك » . قال ذلك واشار الى « خرج » كان فى الخيمة ويعقوب يعرفه ثم قال : « واعطنى قدحا فأشربه أنا ، فان مثل هذا الليل لايذهب وحشته وبرده الا الخمر ! »

فتشدد يعقوب ووقف وأسنانه تصطك حتى ليكاد يسمع الفونس صوتها . ومشي حتى استخرج الوعاء وصب منه الخمر فى قدح من الفضة كان هناك ، ودفعه الى الفونس فشربه ، وتناول قدحا آخر صب فيه لنفسه وشرب ، ثم صب قدحا آخرلالفونس وآخرلنفسه ، حتي اذا دبت الخمر فى عروقه فاذهبت ارتعاشه ملأ القدح وتناوله ووقف بين يدى الفونس ورفع يده والقدح فيهـا وهو ينظر الى ما حوله كأنه يحاذر ان يراه احد وقال : « قد توهم رودريك انه خدم غرضه بارسالنا الى استجة ، وفاته انه يخدم غرضنا اذ لابد لنا من الذهاب الى هذه المدينة للمشروع الذى نحن عازمون عليه »

فاستغرب الفونس قوله وضجر من الاحجية والالغاز وقال له : « لقد اضجرتنى يا يعقوب من اشاراتك والغازك ! لماذا لا تصرح لى بما فى نفسك ؟ »

فانقلب وجه يعقوب الى الانقباض وقال : « قلت لمولاى ان موعدنا فى ذلك قريب ان شاء الله ، وارجو ان لايلح على فى الامر فان الالحاح مضر . اصبر يا مولاى وسأطلعك على كل شيء قريبـا . واعلم ان

رودريك هو الذى عجل كشف هذا السر بارسالنا الى هذه المدينة . وما اظن ثورتها الا من امثال ما يحدث كل عام بين الرعايا المظلومين . ولا اخفى على مولاى ان اهل هذه البلاد فى غاية الضنك من استبداد حكامهم ، وكانوا يشكون ضغط الرومان عليهم ، فلما جاءهم القوط توهموا فيهم النجاة من نير الرومان فاذا هم تحت النيرين معا ، وقد اصبحوا ارقاء لاحرية لهم ولا منزلة ، ولا عقار ولا مال . فلما عاينوا ضعف هذه الدولة كثر تمردهم وهياجهم ، وقد سهل هــذا الامر عليهم خطأ ارتكبه ملوك القوط المتاخرون مع جماعة اليهود فاكرهوهم على نبذ دياناتهم واعتناق النصرانية فأصبح اليهود عونا عليهم »

فقطع الفونس كلامه قائلا : « ولكن اليهود قد انقرضوا من اسبانيا الآن ولم يبق فيها يهودى كما لا يخفى عليك ! »

قال : « اعلم ذلك يا مولاى ، واعلم ايضا ان ملوك القوط قبـل المرحوم والدك شـددوا فى اضطهاد اليهود وخيروهم بين القتل او النصرانية او المهاجرة ، فهاجر بعضهم وتنصر البـاقون ، فاختفت اليهودية ولكنها لم تندثر ! » . ثم التف بعباءته وهو يقول : « اراننا خرجنا من الموضوع قبل الاوان ، وخلاصة الامر ان المهمة التى نحن ذاهبون فيها مهما يكن من امرها فانى ضامن اخمادها بدون ان نجرد سيفا او نرمى نبلا » . ثم تحول الى مجلسه الاول وهو يقول : « وقد آن وقت الرقاد ، الا يرغب مولاى فى ذلك ؟ »

فابتدره الفونس قائلا : « وقبل الذهاب الى النوم اسقنا كاسـا اخرى واشرب مثلها »

وناما تلك الليلة نوما عميقا برغم تساقط الصواعق وهبوب الرياح . وصحا يعقوب مبكرا وخرج لاعداد ما يحتـاج اليه الفونس ، ولم تشرق الشمس حتى كانوا على اهبة الرحيل ، فقوضوا الخيام وركبوا على نظامهم ، والفونس ويعقوب سائران على انفراد وهما صامتان . وبعد هنيهة عبروا الجسر فوق نهر التاج ، وبعبرهم اياه توارت طليطلة وراء التلال

سـارت الحملة باثقالها واحمالها جنوبا بغرب وقد صـحا الجو واشرقت الشمس وارسلت اشعتها على البساتين والغياض والاودية والتلال ، والفونس يعجب لما يقع بصره عليه من البقاع الخصبة وفيها اصناف الاشجار والمغارس ، ولكنه استغرب خلو المزارع من الناس ، ولو انه لم يكن يتوقع ان يرى فيها غير العبيد او من جرى مجراهم من الفلاحين والحراثين ، وكان الاشراف واصحاب الضياع يعاملونهم

معاملة الارقاء اذ كانوا يعملون فى المغارس والضياع ، وهم والارض وما يسرح فيها من الدواب والماشية ملك للأشراف الذين كانوا غالبا ما يقيمون فى المدن حيث يقيم الحكام

وكان الفونس قلما يخرج من المدن ، ولم يكن يهمه الالتفات الى حال اولئك الفلاحين ، ولكنه بعد ما دار بينه وبين اوباس بشأن الملك ، وما عزموا عليه من تحرير اولئك الارقاء والاعتماد عليهم فى تحرير المملكة ، اصبح همه الالتفات الى البلاد واهلها . فاذا هم يمرون فى ارض لا يظهر لاهلها عناية فى غرسها واستثمارها ، وقلما شاهدوا فيها احدا من الناس ، فلما تكرر ذلك المنظر لديه التفت الى يعقوب وكان راكبا جوادا وراء جواده ، وساله فى ذلك ، فأجابه قائلا: « ان الناس كثيرون ، ولكنهم تعودوا اذا راوا جندا مارا بهم ان يختفوا من وجوههم فرارا مما يكلفونهم من الاعمال الشاقة وما قد يتطلبونه من المؤونة ونحوها ، ولم يخطر لهم ان يسيروا بهم مثل سيرهم هذا ، لايتعرضون لأحد منهم فى شيء . فان الجند لم يسر بهذا الهدوء الا بناء على امر مولاى ! »

فتأثر الفونس من ذلك القول وتمثل له الخطأ الذى ترتكبه الحكومات الظالمة فى تكليف رعيتها فوق طاقتهم فتعود الخسارة عليها وعليهم

وقد قضى الفونس وحملته فى الطريق بضعة ايام قطعوا فى اثنائها سهولا خصبة ، وجبالا فيها كثير من مناجم الفضة والذهب ، واودية يسيل فيها الماء فيسقى الغياض والبساتين فتجود باطيب الثمرات لأن ارض الاندلس من احسن البلاد خصبا وعمرانا وانما تحتاج الى من يتعهدها بالغرس ويظللها بالعدل ، الى ما كان فيها من مدن عامرة كان اول ما مروا به منها « مريدة » فقطعوا نهر « اناس » وساروا بضعة ايام اخرى الى قرطبة ، فعبروا نهرها وساروا الى « استجة » . وكانت مدينة آهلة على الضفة اليسرى لنهر سنجيل ، حولها سور متين عليه الابراج من صنع الرومان . ولا بد للقادم اليها من قرطبة ان يعبر على جسر فوق ذلك النهر ، فلما دنوا من المدينة فى الضحى بعث الفونس رسولا بكتاب رودريك الى حاكمها فعاد الرسول ومعه نفر من جند المدينة ، وبيدكبيرهم امر بتسليمهم القلعة الكبرى المشرفة على النهر من يمينه ، والتى كان النهر يفصل بينها وبين المدينة وقد بنيت لاقامة الجند فاحتلوها ، وسار الفونس الى غرفة فيها هى احسن غرفها واوسعها ، ولها نافذة مطلة على النهر

والمدينة وعلى ما وراءهما وبين يديهما من البساتين والمزارع

صعد الفونس الى غرفته وكان يعقوب قد سبقه اليها واعد له ما قد يحتاج اليه من الراحة ، وامر بعض الخدم فأعدوا طعاما حمله هو اليه فوضعه على مائدة فى تلك الغرفة ودعاه اليها لأنه كان منذ صعوده الى الغرفة قد جلس الى النافذة وخلا بنفسه فتذكر حبيبته وعمه ومجيئه الى تلك المدينة رغم ارادته ، وليس هناك ما يدعو الى قدومه الا سعى رودريك فى ابعاده عن حبيبته ، ثم تصور القصد من ابعاده عنها وما قد يكون فى عزم رودريك بشأن فلورندا ، فاقشعر بدنه واحس كأن ماء غاليا ينسكب عليه ، لكنه تذكر الاحتياطات التى اتخذها لانقاذ فلورندا من ذلك القصر فسكن روعه

وفيما هو فى هذه الهواجس سمع وطء اقدام فى الغرفة فالتفت فراى يعقوب واقفا ويداه متقاطعتان على صدره كأنه يسمع الصلاة . فلما وقع نظره عليه هرول يعقوب نحوه وهو يبتسم ويقول : « الا يأمر مولاى بتناول الغداء ؟ »

فلم يسع الفونس الا الابتسام وقد انشرح صدره فوقف واسرع الى المائدة ولم يتكلم ويعقوب سائر فى اثره ، فجلس الفونس وظل يعقوب واقفا وقوف الخدم فأشار الفونس ان يجلس فأبى واعتذر . فقال الفونس : « لم يعد يليق بى ان اعدك خادما بعد ما علمته من علو همتك وتفانيك فى نصرة الحق »

فقال يعقوب : « العفو يا مولاى انك لم تعلم عنى شيئا بعد ، وما هى الا اقوال سمعتها ، فاذا رايت منى عملا كبيرا ورايت بعد ذلك انى استحق مجالستك او مؤاكلتك فعلت »

فتذكر الفونس وعده بكشف السر بعد وصوله استجة فلم يشأ ان يذكره بذلك لئلا يكون الجواب تسويفا ، فتجلد حتى يكاشفه هو من تلقاء نفسه ولكنه قال له : « لك الخيار يا يعقوب فيما تفعل . ثم انى فهمت من بعض اقوالك انك عالم بفلورندا وحديثها ! »

فأشار يعقوب باحناء رأسه ان « نعم ! » . فقال الفونس : « ما رأيك ، هل هى وعمى لايعلمان مقرنا ، وهلا ترى ان نبعث اليهما لكى يقدما الينا ونحن هنا بعيدون عن ذلك الطاغية ؟ »

قال : « لا تقل اننا بعيدون ! اتظن رودريك ابعدك عن قصره واغفل امرك .. ؟ الا تعلم ان معظم رجال هذا الجند عيون عليك يراقبون حركاتك ، لعلهم يتقربون بأذيتك الى البلاط الملكى ؟ ! وانه اذا هرمت الدولة واختلت شؤونها كثر فيها الجواسيس وتعددت اسباب

الوشاية ، وفسدت النيات واصبح الاخ عينا على اخيه والابن على ابيه ، يساعدهم على ذلك انغماس الملك فى الترف واشتغاله به عن سياسة رعيته ، مع ما يحول من اهل التملق بينه وبين المتظلمين . فلا تثق بأحد ، ولا تأمن احدا الا اذا كانت مصلحته ومصلحتك سواء ، حتى يعقوب هذا ! » . قال ذلك واشار بسبابته الى صدره . فعجب الفونس لما سمعه ولم يكن قد اختبر شيئا من شؤون الناس ، ولا اطلع على فساد الطبيعة الانسانية ، فسكت وعاد الى الاكل حتى فرغ من الغداء ويعقوب ما يزال واقفا بين يديه

فلما نهض الفونس عن المائدة قال يعقوب : « استرح يا مولاى الآن وائذن لى فى النزول الى المدينة ثم اعود اليك قبل الغروب ، وفى الغد ننزل اليها معا لنرى اسواقها وساحتها »

قال : « انصرف ، وقبل انصرافك ابعث الى بالقائد ومبا لاخاطبه فى امر الجند » . قال : « سمعا وطاعة » وخرج

وعاد الفونس الى مجلسه بجانب النافذة وهومايزال بلباس السفر ، وعاد الى التفكير فى فلورندا واوباس ورودريك . ثم سمع وقع اقدام بالباب فتحول لملاقاة ومبا فدخل هذا والقى التحية ، ووجهه منبسط اشارة الى مايبطنه من الاحترام لالفونس والغيرة عليه ، فرد الفونس التحية وساله عن حال الجند فقال : « انهم فى نظام وسلام ، يدعون للقائد الباسل بالرغد والظفر »

قال : « هل سمعتم شيئا عن احوال الاهالى هنا ؟ »

قال : « سمعنا انهم مستكنون لايبدون حراكا ، ولعلهم ركنوا الى السكينة على اثر سماعهم بقدومنا »

قال : « ارجو مع ذلك ان تسهروا على الاحوال ، وتواصلوا استطلاع الاخبار ، ولى فى درايتكم ما يضمن الراحة »

ففهم ومبا من غنة كلام الفونس واشارته انه فرغ مما يريده ، فحياه وتحول من الغرفة . ولما خلا الفونس بنفسه نهض فبدل ثيابه وعزم على قضاء بقية ذلك اليوم فى الغرفة للاستراحة من متاعب السفر

ولما مالت الشمس الى الغروب ولم يرجع يعقوب استبطاه الفونس وانشغل خاطره عليه وجلس الى النافذة المطلة على الجسر — ولا بد لمن يخرج من المدينة الى القلعة من المرور على هذا الجسر — فلم تمض برهة حتى رآه قادما وقد تابط صرة فظنه قد جاءه بشيء من فاكهة المدينة فصبر حتى وصل الى القلعة ولبث ينتظر دخوله عليه ،

لكنه ابطأ ثم دخل بعد قليل ويداه فارغتان

فقال الفونس : « ما الذى حملته الينا من المدينة ؟ » . قال : « لم احمل منها شيئا لأننا ذاهبون اليها غدا » . قال : « رايتك متابطا شيئا فما هو ؟ » . فضحك يعقوب وقال : « ذلك ليس شيئا .. »

فاشتدت رغبة الفونس فى استطلاع حقيقة ذلك الشىء فقال : « هل ثمة ما يمنع اطلاعى عليه ؟ » . قال : « الى الصباح يا مولاى ، ولا بد من اطلاعك عليه »

وفى الصباح التالى نهض الفونس وبه شوق شديد الى معرفة ما فى الصرة ، ولم يكد ينهض من الفراش حتى جاءه يعقوب بالثياب فغسل وجهه وسرح شعره ولبس ثوبه استعدادا للنزول الى المدينة وهو يتظاهر بالصبر على استطلاع ما فى الصرة . فلما فرغ من كل شىء ولم يبق الا الخروج ، دخل يعقوب والصرة فى يده واقفل باب الغرفة وراءه . فوقف الفونس وتطاول لمشاهدة ما فيها ففتحها يعقوب واستخرج منها شيئا من نسيج اسود على نحو اقبية الكهنة ، واذا هما ثوبان اسودان كل منهما جلباب طويل يغطى الرجل الى اسفل القدم . فتناول يعقوب احدهما وبسطه وقدمه الى الفونس وهو يقول : « البس هذا الجلباب يا مولاى » . فوضعه الفونس على كتفيه والتف به فغطى كل اثوابه ، ولبس يعقوب الجلباب الآخر والتف به ، ثم مد يده الى طوق ذلك الجلباب من قفاه فاستخرج منه شيئا كالكيس معلقا به من بعض جوانبه وارسل ما بقى منه على راسه حتى اشتمل على الراس والوجه جميعا . وفى غطاء الوجه ثلاثة ثقوب ثقبان للعينين وثقب للفم فاصبح يعقوب شبحا اسود . وتقدم الى الفونس فاستخرج الكيس من قفا ثوبه والبسه اياه حتى صار مثله ، وكان يعقوب يفعل ذلك والفونس صابر ليرى نهاية هذا العمل ، فلما فرغ يعقوب من اللبس قال : « هذا الذى اتيتك به من استجة ، فانزعه الآن الى حين الحاجة »

فاستغرب الفونس عمله هذا وقال : « ومتى نحتاج اليه ؟ »

قال : « قريبا ان شاء الله . لا تكن لجوجا » . قال ذلك ونزع جلبابه والجلباب الآخر عن الفونس وطوى كلا منهما على حدة وجعل احدهما تحت دراعته من جهة الصدر ، وارخى الدراعة عليه حتى اختفى تحتها ، واتى بالجلباب الآخر وطواه وطلب الى الفونس ان يخفيه تحت دراعته ففعل وهو لا يفهم الغرض من ذلك . ثم قال يعقوب : « هلم بنا الى الكنيسة ! »

خرج يعقوب والفونس من القلعة وبينما هما على الباب التقيا بومبا فوقف هذا للتحية فقال الفونس : « انى ذاهب الى الكنيسة فاحتفظ بما عندك » . فأشار ومبا براسه ويده بالسمع والطاعة

مشى الفونس ويعقوب يتبعه ، وليس معه من الخدم والاعوان سواه حتى مرا على الجسر ودخلا باب المدينة وهما لايتكلمان ، لأن يعقوب لم يكن يقدم على الكلام الا جوابا على خطاب جريا على عادتهم فى معاملة الملوك . وكان الفونس غارقا فى الهواجس لاينتبه لوجدانه ، لما اجتذب خاطره من امر فلورندا ورودريك ، وحديث يعقوب وذلك الثوب الاسود . ولم يفق من ذلك السبات حتى دخل الاسواق والناس يتسابقون فيها نحو الكنيسة . وبعد هنيهة افضى بهما المسير الى ساحة كبيرة فى وسط المدينة . ولم يكن الفونس يعرف الطريق الى الكنيسة وانما كان يقتفى خطوات يعقوب او اشاراته . وبعد ان قطعا تلك الساحة اطلا على باب فخم تزاحمت عنده الاقدام بين داخل وخارج فوقف يعقوب هناك وقال : « هذا باب الشارع الاعظم ، وهذه هى الكنيسة » ، واشار بيده الى باب كبير آخر فتحولا نحوه ودخلا مثل سائر الداخلين ، والناس لايعلمون من هو الفونس ولكنهم تبينوا من استرسال شعره ونوع لباسه انه من الاشراف واصحاب المناصب

قضيا فروض الصلاة فى تلك الكنيسة وهما لا يزالان صامتين . فلما انفضت الصلاة وخرج الناس خرجا معهم والفونس لايدرى الى اين يذهب ، فتاخر حتى مشى يعقوب فتبعه وما زالا حتى خرجا من باب المدينة من الجهة الاخرى . فاستغرب الفونس ذلك ولم يتمالك عن الاستفهام فالتفت الى يعقوب وقال له : « الى اين نحن ذاهبان فى هذه البرية ؟ »

قال : « اننا ذاهبان الى هذه الاكمة » واشار الى تل قريب لا شىء من العمارة فيه . وما لبثا ان وصلا اليه فصعدا الى قمته والفونس لايفهم الغرض من كل ذلك فقال يعقوب : « انظر يا مولاى الى استجة بين ايدينا ، وانظر الى سورها فانك ترى على بعض هذا السور برجا عاليا »

وكان الفونس يرى ذلك البرج جيدا لانهما على مقربة من المدينة فقال : « نعم ! »

قال يعقوب : « اذا جئت هذا المكان فى الليل فلا تخطىء هذا البرج لبروزه فوق السور ، وليس على السور برج سواه . احفظ ذلك

جيدا ثم اتبعني » . قال ذلك وانحدر عن التل الى الجهة الاخرى ، فاذا هو بكهف مهجور وقف ببابه والفونس الى جانبه فقال له : « ارايت هذا الكهف ؟ »

قال الفونس : « نعم رايته » . قال : « فلنرجع الى المدينة نقضي بقية النهار ثم نعود الى هنا »

وكان الفونس يتوقع الاطلاع على شيء من السر فلم يزدد الاخيرة واستغرابا . . واستطال الانتظار الى المساء فقال : « واين نقضي هذا النهار فانه طويل عندي ؟ ! »

قال : « سأجعله قصيرا جدا » . ومشى فمشى الفونس في اثره حتى دخلا المدينة والفونس يتأمل البرج . وما زالا سائرين في الاسواق حتى انتهيا الى درب ضيق اتصلا منه الى باب صغير فقال يعقوب : « انتظرني يا مولاي هنا ريثما اعود » ، ودخل ثم عاد واشار اليه فدخل وعلم مما رآه من الادوات المنزلية ان البيت مأهول لكنه لم يشاهد فيه احدا . فدخل يعقوب غرفة من غرف البيت والفونس معه وقد مل الانتظار وكاد الحنق يخرجه عن جادة الصبر . اما يعقوب فانه اقفل باب الحجرة ثم اجلس الفونس على بساط وجثا الى جانبه وقال : « ساتلو عليك يا مولاي الفاظا غريبة لا بد لك من حفظها فان ما ستتعلمه الآن من الالفاظ والاشارات انما هو مفتاح السر وطريق العمل »

فأصغى الفونس اليه وقال : « هات ما تريده »

قال : « شالوم عليخم » . فقالها الفونس ولسانه يتعثر بالعين والخاء على الخصوص ، فكررها يعقوب عليه حتى حفظها ، ثم قال له : « قل (أوهيل موعيد) . » . فقالها وكررها حتى تعلمها . ثم نهض يعقوب وامسك الفونس بيده وقال له : «قف يا مولاي» فوقف فخطا يعقوب امامه بضع خطوات على نسق غير مألوف بين الناس وقال له : « اخط يا سيدي مثل هذه الخطوات » ففعل وكررها حتى اتقنها . ثم علمه اشارات يجريها بيديه او اصابعه وغير ذلك ، والفونس كالببغاء ، يتعلم الالفاظ ويخطو الخطوات ويجري الاشارات وهو لا يفهم لها معنى !

قضيا بقية اليوم في نحو ذلك ، فلما غربت الشمس خرجا والفونس لا يزداد الا استغرابا ، وقد نسي لفرط دهشته كل مشاغله بفلورندا وأوباس ، وما زالا حتى خرجا من باب المدينة ، وكانت ليلة صاحية لكنها شديدة البرد ، فصبرا على بردها حتى بلغا الاكمة وصعدا اليها ،

فنزل يعقوب نحو الكهف والفولس يتبعه حتى وقفا ببابه ولم يريا داخله غير الظلمة المدلهمة ، فدخل يعقوب ويده بيد الفونس . فمشى به بضع خطوات والفونس يتحسس الارض بقدميه كأنه يمشي على الشوك وهما صامتان . ثم وقف يعقوب وقال لالفونس : « اخرج جلبابك » . فاخرجه وساعده يعقوب على لبسه كما لبس هو جلبابه فاصبحا سوادا فى سواد ، ومشيا خطوات اخرى ويعقوب يقود الفونس ، ثم وقف بغتة فشعر الفونس بصدمة وقوفه فخاف ان يكون ثمة خطر عليهما ، واحس ان يعقوب انحنى نحو الارض ، ثم سمع خربشة كأن يعقوب يبحث بأنامله فى الارض ، وكان قد ترك يد الفونس فظل هذا واقفا وقوف الصنم لا يدرى كيف يتجه لاشتداد الظلام !

وكان يعقوب قد خلي يد الفونس لتتفرغ يداه لرفع حجر ثقيل . فمضت بضع دقائق والفونس واقف لا يتحرك ، ثم سمع صوت اقتلاع الحجر واحس بنسيم بارد قد خرج من مقتلعه ، واذا بيعقوب يقول له بصوت منخفض : « اتبعني يا مولاى فى هذه الفوهة على مهل » . ونزل وتبعه الفونس وهبطا سبع درجات فانتهيا الى سرداب يسع الانسان واقفا فمشيا فيه ، ويعقوب يقود الفونس فى الظلام . وشعر الفونس كأنهما يسيران فى دائرة ثم سارا فى خط مستقيم مع انحدار خفيف والظلام يتكاثف . وبعد هنيهة وقف يعقوب وقال لالفونس : « امكث هنا يا مولاى ولا تغير مكانك ريثما أعود اليك » . وتركه ومشى لا يسمع لخطواته وقع فاحس الفونس بوحشة غريبة ، ومضى على غياب يعقوب دقائق حسبها الفونس ساعات حتى مل الانتظار وحدثته نفسه أن يخطو فى اثره ولكنه تذكر وصيته اياه بالبقاء هناك فوقف ، ولكن الانسان رغاب فى استطلاع المخبآت ولو عرض نفسه للخطر . على انه نسي الجهة التى كانا سائرين فيها ومد يده الى ما حوله فلم تلمس شيئا فتوهم انه فى خلاء واسع . وفيما هو فى هذا الارتباك آنس نورا خفيفا عن بعد ، ورأى ذلك النور يقترب حتى تبين حامله ، فاذا هو رجل بجلباب اسود مثل جلبابه فظنه يعقوب فناداه باسمه فلم يسمع ردا فحسب سكوته تسترا ، ثم رأى وراء ذلك الشبح شبحا آخر فى مثل لباسه وقد كشف عن وجهه فاذا هو يعقوب ، فعلم الفونس انه اقترب من المكان المقصود

ولم يكد يفكر فى الامر حتى اسرع يعقوب اليه وامسك بيده ،

فنظر الفونس فى وجهه على نور المصباح فراى لحيته قد ازدادت تلبدا وقذارة ، فخاف ان يكون عليهما بأس من ذلك المكان . ولكنه سلم قياده الى يعقوب فامسكه وسار به والرجل الثالث يسير بين يديهما بالمصباح ويعقوب يحذر الفونس مما بين يديه ، فنظر الى الارض فراى فيها حفرا جمة يخشى الماشى السقوط فيها حتى على النور ، فكيف به فى الظلام . وادرك السبب الذى حمل يعقوب على استجلاب ذلك النور فمشى مشية الحذر والتأنى بضع دقائق ، ثم انطفأ المصباح وعاد الظلام كما كان . فضغط يعقوب على يد الفونس وهمس فى اذنه قائلا : « وصلنا »

وكان الفونس قد ضاقت انفاسه من القناع المنسدل على وجهه فرفعه وتنفس الصعداء ثم ارخاه ، واذا بيعقوب قد وقف وهمس فى اذنه ان يفعل مثل فعله بعد انفتاح الباب والا يخشى شيئا مهما يكن ما يراه . ثم قرع بابا قرعا متواليا سبع مرات بأسلوب خاص ، ولبث برهة ثم طرقه ثانية ثلاث مرات بنسق آخر ، فانفتح الباب عن ممر قصير فيه نور ضعيف ، والى كل من جانبى الباب رجل بمثل جلبابيهما وبيده سيف مسلول والسيفان متعانقان كالقوس فوق عتبة الباب ، فأجفل الفونس وتقهقر ، فسمع يعقوب يقول : « شلوم عليخم » فقالها هو ايضا ودخلا والسيافان لا يتحركان كانهما صنمان ، فمشى يعقوب فى الممر تلك المشية الخاصة التى علمها لالفونس فى ذلك النهار ، ومشى الفونس مثلها وهو يتعثر لاضطرابه وارتباكه ، حتى وصل الى باب مقفل فقرعه بنسق خاص خمس قرعات ، فانفتح الباب وانطفأ النور معا ، فأجفل الفونس ولكنه تذكر وصية يعقوب فثبت جنانه ، وسمع صوتا يخاطبه بلسان لم يفهمه وسمع يعقوب يقول له : « اوهيل موعيد » فقالها هو ايضا ومشيا فى تلك الظلمة والفونس يحسب نفسه صاعدا على سلم ، ثم انفتح لهما باب آخر وحال انفتاحه احس الفونس بهواء دافىء خارج منه تخالطه رائحة الانفاس ، فشعر بالدفء ونسى ما كان يشعر به من البرد فى السرداب ، ودخلا من الباب فاشرفا على قاعة كبيرة فى وسطها شبه مائدة عليها سراج مضيء وبجانبه درج كبير ، وحول الجدران مقاعد عليها اشباح سود بمثل جلبابه ، ووجوههم منقبة بمثل نقابه ، وامام كل منهم سيف مسلول يلمع فرنده فى نور السراج الضعيف ، فارتعب لذلك المنظر الهائل على انه التفت الى جانبه فاذا بيعقوب قد مشى بخطوات كان قد علمه اياها فمشى مثله حول

المائدة والسراج مرتين ، وقبل الدرج الموضوع هناك ، وهو لفافة من جلد ، ثم مشيا الى كرسيين فى صدر القاعة خاليين فجلسا عليهما وامامهما سيفان مسلولان ، فالتفت الفونس الى ما حوله فلم ير الا اشباحا سوداء بشكل واحد وقيافة واحدة ، وندم لمجيئه على تلك الصورة مخافة ان يكون عليه خطر . ولكنه تذكر ثقتـه بيعقوب فاطمأن باله ولبث الجميع برهة ساكتين ، ثم نهض احدهم عن كرسيه وتقدم الى المائدة وتناول الدرج وفتحه بين يدى المصباح فراى الفونس عليه كتابة لايفهمها . ثم اخذ الرجل فى القراءة فوقف الجميع والفونس فى جملتهم ، حتى اذا اتم قراءته قبل الدرج ورجع الى مكانه وجلس ، فجلس الباقون لا ينطق احد بكلمة ، الى ان تكلم الرجل بذلك اللسان كلاما طويلا اجابه عليـه بعض الحاضرين ، ثم تكلم يعقوب باللسان القوطى قائلا : « يسمح حضرة الرئيس بعقد جلسة خاصة يحضرها هو ومن شاء للمداولة فى امر مهم »

فوقف الرجل الاول وبيده سيف صغير واشار به اشارة خاصة فوقف الجميع ، ثم انفرد منهم ثلاثة وقفوا بازائه ، وتقدم يعقوب والفونس حتى وقفا معهم ، ثم تحول الرئيس الى باب وراءه ففتحه ودخل وتبعه الباقون الى ممر مظلم انتهوا منه الى باب فتحه بيده ودخل الى حجرة مظلمة ووقف ببابها وتكلم ، فجاءه من بين الجماعة رجل بشمعة مضيئة مرتكزة فى طبق من البرونز فتناولها منه ، فرجع الرجل واقفل الباب وراءه ، فدخل الرئيس بالشمعة حتى وضعها على حجر مرتفع فى بعض جوانب المكان

ونظر الفونس فى ذلك المكان فاذا هو حجرة صغيرة جدرانها سوداء وسقفها اسود ، وفى ارضها صندوق كالتابوت الكبير فوقه درج صغير ، وحول التابوت بساط جلسوا عليه والتابوت فى وسطهم ، فتأثر الفونس من ذلك المنظر المرهب ، وخفق قلبه لهول ما شاهده من الغرائب ، وقد نفد صبره لمشاهدة اشباح سوداء لقوم لا يرى لهم وجوها ولا يدري من هم ؟ فلما جلسوا تكلم يعقوب بالقوطية وقال : « هل يظن الرئيس ان الطعام قد نضج ! ؟ »

قال : « انت ادرى منا بنضجه لانك موقد ناره »

فقال يعقوب : « ارجو ان يكون قد نضج ، ولكنه يحتاج الى ادام كثير لان الطعام بلا ادام لايؤكل »

قال : « الادام كثير ومنه فى هذا الصندوق ، ما يطبخ به طعام العالم بأسره . فضلا عن امثاله مما يحمل الى المطبخ عند الحاجة ! »

فلم يفهم الفونس مغزى تلك الرموز ، ولكن يعقوب التفت اليه وقال : « ان المادة التى تنقصك لاتمام مشروعك مختزنة فى عشرات من امثال هـذا الصندوق وقد جمعت فيها منذ اعوام ، ولـكنها لا تبذل الا عند الحاجة » ، قال ذلك وأوما الى الرئيس فاستخرج من جيبه مفتاحا فتح التابوت به ، وحالما رفع الغطاء ابرق ما تحته أصفر زاهيا . فنظر اليه الفونس فاذا هو نقود ذهبية خالصة ، ثم اقفله الرئيس واعاد المفتاح الى جيبه . فاندهش الفونس لمنظر ذلك الذهب، وادرك انه بين جماعة ذوى اقتدار ، والتفت اليـه الرئيس وقال : « لا تطمع فى استطلاع شيء غير الذى تراه ، واعلم انك عرفت شيئا لم يعرفه احد من الذين رايتهم فى الحجرة الاخرى وهم يجتمعون معنا منذ اعوام ، وفيهم من يبذل ماله وروحه فى سبيل ذلك الغرض! »

فتكلم عند ذلك يعقوب وقال : « يكفى مولاى ما قد شاهده ، ولا نشك ان فى اسبانيا الوفا من امثال هؤلاء المظلومين ، وعندهم الاموال المختزنة فى الصناديق ، وهم يبذلون انفسهم فى خدمته فضلا عن اموالهم »

فلما سمع الفونس قوله « المظلومين » انتبـه الى انه بين يدى جمعية سرية تتواطأ على قلب الحكومة ، وتذكر ما كان يسمعه من كلامهم المعجم فخطر له ان يكونوا يهودا ، ولكنه كان يعلم ان اليهود قد انقرضوا من المملكة اما بالنفى او بالقتل او اعتناق النصرانيـة فقال ليعقوب : « قد فهمت السر فالأولى أن تفصح وانت اعلم الناس بعزيمتى وقصدى وقصـ ى من قبلى »

فعند ذلك التفت يعقوب ى الرئيس وقال : « ينبغى لى ان اكاشف كلا منكما بسر الآخر . اعلم يا حضرة الرئيس ان الرجل الذى جئتكم به الليلة هو نصيرنا الوحيد فى هذه الديار، واذا قلت لكم من هو هان عليكم مكاشفته بأمرنا ، انه الفونس ابن المرحوم غيطشة ملك اسبانيا، وهذا يكفى ! »

وقال الرئيس : « لعله على عزم والده تماما ؟ » . فقال يعقوب : « نعم هو نصير المظلومين ، وقد عول على السعى فى انقاذنا من هذا الطاغية اللعين الذى يسمى نفسه ملكا . وانما يعوزه المال وهو عندنا ، فاسمح لى بعد هذا التصريح ان انبئه بحقيقة الامر . » . قال ذلك وحول خطابه الى الفونس قائلا : « اعلم أيها الملك ــ وانا اخاطبك بالملك لاننا لا نعرف ملكا على اسبانيا سواك ــ انك فى جمعيـة اسرائيلية ، وكل الذين رايتهم فى هذه الجلسة يهود ما زالوا على دين

آبائهم واجدادهم ، وينوبون عن الوف من أهل هذا الدين منتشرين فى انحاء المملكة الاسبانية يتظاهرون بالنصرانية فيحضرون القداس فى الكنائس ، ويتناولون القربان ، ويقومون بسائر الفروض المسيحية، وكان منهم فى الكنيسة فى صباح هذا اليوم مئات ، وقد رأيناهم يسجدون امام الأيقونات ويتلون الصلوات ، وربما سمعناهم يدعون بنصر رودريك وهم يودون قتله . وقد صبروا على هذا الظلم وكظموا الغيظ اعواما وهم يجمعون المال ويختزنونه ، لاغتنام الفرصة للنهوض من تحت هذا النير ، حتى اذ كادوا يبلغون بغيتهم على يد والدك المرحوم استبدل به أهل المطامع هذا الطاغية وهو لا يستحق هذا المنصب ، بل أنت هو صاحبه الشرعى فنرجو أن تكون النجاة على يدك »

فلما سمع الفونس قوله انجلى له كثير من الاسرار التى ما برح يود الاطلاع عليها منذ خاطب عمه أوباس فى هذا الشان ، فاكتفى بما رآه وسمعه ، واجل استطلاع ما بقي من الغوامض الى فرصة أخرى ، ولبث صامتا يراجع ما مر به من المعميات فراى انه ينقصه ان يعرف وجوه اولئك الناس خصوصا بعد أن عرفوه باسمه . وكان يعقوب قد أدرك غرضه فقال له : « ولا يطمع مولاى الآن ان يطلع على ما وراء ذلك . ان نظام الجماعة يقضي بالتستر خوفا من ان يبوح احد بأمرهم . فأنت الآن بعد ان اطلعت على هذه الاسرار المهمة تمسى اذا خرجت من هذا المكان كانك لم تدخله ، لانك لم تر وجوه الاشخاص فلايمكنك ان تتهم احدا من الناس . وربما كان بعض هؤلاء من رجال الجند او الكهنة او العمال او الزراع ، وكلهم من عداد المسيحيين ويكفيك ان تعرف واحد منهم وهو انا »

فاعجب الفونس بهذا الضرب من الاحتياط ، وعلم أن يعقوب يهودى ، وتذكر ما كان يطلبه من التساهل فى أداء الفروض الدينية من الصلوات ونحوها ، وان عمه اوباس كان يساعده على ذلك ، وخطرت له خواطر كثيرة بشان علاقة يعقوب بوالده وعول على استطلاع سر هذا الامر فيما بعد . ثم اعترض مجارى افكاره دبيب توالت أصواته فوق رؤوسهم فانذهل الفونس والتفت نحو السقف فابتدره يعقوب قائلا : « لا تستغرب يا مولاى ما تسمعه لان فوقنا شارعا من شوارع المدينة ، والناس يمرون عليه ليل نهار ، وليس فى أهل استجة من يعلم بوجود هذا البناء تحت الشارع الا اعضاء هذه الجمعية » . فازداد الفونس استغرابا لما عاينه فى تلك الليلة من



« وحالما رفع الرئيس غطاء التابوت ، أبرق ما تحته
أصفر زاهيـاً ، فنظر الفونس ، فاذا هي نقود ذهبية »

طرق التحفظ وابواب الدهاء وقال فى نفسه : « ان قوما هذا مبلغ دهائهم وتعلقهم وصبرهم لجديرون ان ينالوا بغيتهم ! »

وفيما كان الفونس يفكر فى ذلك سمع قرعا بعيدا يشبه ان يكون على الباب الذى ينتهى اليه السرداب ، ولكنه راى عدد الطرقات وكيفية ضربها يختلفان عما فعله يعقوب لما جاء به. ثم ما لبث ان راى الرئيس ويعقوب وسائر الجالسين معه قد انصتوا لما عساه ان يعقب ذلك الطرق فخاف ان يكون وراء انصاتهم ما يدعو الى القلق ، ولو كانت وجوههم مكشوفة لاستطلع ذلك فى عيونهم وجباههم. ثم سمع قرعا ثانيا على الباب الآخر بكيفية اخرى ولم يفرغ الطارق من الطرق حتى تحول انصات رفاقه الى الحركة ، وسمع الرئيس يقول : «لقد جاءنا رسول بخبر جديد ، عساه ان يكون قادما من اخواننا فى الشام او مصر او من افريقيا »

فاستغرب الفونس تنبؤ الرئيس عن الرجل من سماع قرع الباب، وادرك ان لهذه الجمعية علاقات واسعة فى الشام ومصر وغيرهما فلم يتمالك ان قال : « كيف عرفت الرجل من سماع القرع عن بعد ، وهل لهذه الجمعية من اعضاء فى تلك البلاد ؟ »

قال : « عرفته من قواعد موضوعة لهذا الغرض يعرفها اعضاء هذه الجمعية . واما سؤالك عن سعة الجمعية فان لها اعضاء فى أنحاء بعيدة ارسلتهم للبحث عن طريقة نتخلص بها من هذا الرق ! ». وسكت هنيهة ثم قال : « ومن هؤلاء الاعضاء أناس قد تصدروا فى مجالس الدول وتقلدوا مناصبها ، ومنهم من يعمل عمل الخدم ويقاسى مرارة الذل والشقاء ويؤدى ادنى الاعمال ، وهو ليس من مصاف الخدم ، بل قد يكون من اهم اعضاء الجمعية ومن اكثرهم بذلا فى سبيلها ، وانما يتزيى بزى الخدم تنفيذا لغرض يعود على الطائفة بالخير ! »

وكان الفونس وهو يسمع كلام الرئيس يشعر بنور يضيء بصيرته، فادرك للحال ان خادمه يعقوب من كبار هذه الطائفة واهم اعضاء هذه الجمعية ولكنه ما زال ميالا الى استطلاع علاقته بأبيه وعمه لانهما كانا عارفين بسره على ما ظهر من كلام اوباس — فأجل ذلك الى فرصة اخرى ولبث ينتظر دخول الرسول القادم . ولم تمض برهة وهم سكوت يسمعون صدى الحركات فى القاعة الكبرى حتى سمعوا قارعا يقرع باب تلك الحجرة السوداء قرعا خاصا ، فنهض يعقوب وفتح الباب فدخل منه رجل طويل القامة عليه ذلك الجلباب الاسود،

وحال دخوله وجه وجهه نحو الرئيس وكلمه بالعبرانيـة كلاما لم يفهمه الفونس ، فأجابه الرئيس ، وتخاطبا برهة بتلك اللغة والفونس لا يفهم ، ولكنه استغرب توجيه القادم كلامه للرئيس حال وصوله وهو لا يرى فرقا بين مظهر الرئيس وبين سائر الجالسين لانهم بلباس واحد ولون واحد ، فتوسم فى ذلك سرا لم يتمالك عن الاستفهام عنه من يعقوب فى اثناء مخاطبة الرئيس والرسول بالعبرانيـة . فقـال يعقوب : لو امعنت النظر فى ثوب الرئيس لرأيت على كتفه علامة تميزه عن سائر الاعضاء ، ولا تظهر الا عند التأمل . وفى هذه الجمعية علامة لكل من اصحاب المناصب فيها كالكاتب والخازن وغيرهما . غير ان هذه العلامة لا يراها غير المتأمل »

فتأمل الفونس فى كتف الرئيس فراى عليها عقدة سوداء بجانب العنق ونظر الى اكتاف الرفاق فراى على كتف يعقوب عقدة تشبه عقدة الرئيس ولكنها بشكل آخر فاراد ان يستفهم منه عن دلالة علامته فسمع الرئيس يخاطب القادم بالقوطية قائلا : « لقد سرنى قدومك الليلة لنسمع حديث رحلتك ، وعندنا من يهمه سماعهـا ويهمنا اطلاعه عليها . ونحن فى حجرة الخلوة وما فينـا الا عمدة الجمعية فمن اين انت قادم الآن ؟ »

وكان الرجل قد جلس فى جملة الجالسين حول التابوت فقال : « انى قادم من سبتة ، وخبرى طويل لا يتسع الوقت لتفصيله ، ولكنى اعجل لكم منه ما يهمكم ويهمنا . ولو كشفت لكم عن وجهى لرايتم البشر ظاهرا فيه اذ يظهر لى ان زمان أسرنا قد انقضى أو قارب الانقضاء ! »

فلما قال ذلك ظهر الاهتمام فى حركات الجالسين واصغوا وقد تطاولوا باعناقهم الى المتكلم وقال الرئيس : « بشرك الله بالخير . عسى ان يكون قد انقضى أسرنا كانقضاء اسر اجدادنا فى بابل منذ بضعة عشر قرنا »

فقال الرسول وقد وجه خطابه الى الرئيس : « لايخفى على حضرة الرئيس انى مقيم منذ أعوام فى « سبتة » على شاطىء افريقيـة (مراكش) وهى وما يليها تابعة لهذا الطاغية صاحب طليطلة الآن وكان يجب ان تكون تابعة لمملكة الروم الشرقية لانها جزء من افريقية ولكن الروم تقلص ظل سلطانهم عن افريقية بما اتاه العرب من الفتوح ، لانهم فتحوا كل سواحلها تقريبا الا سبتة وما يليها فالتجأ صاحبها الى اسبانيا وصارت سبتة ولاية من ولاياتها كما تعلمون

فقطع الرئيس كلامه قائلا : « يظهر ان ابناء اسماعيل قد افلحوا فى دينهم الجديد ! »

فأجاب الرجل : « نعم يا مولاى » . ولم يفهم الفونس معنى هذا السؤال ولا من هم بنو اسماعيل ، ولكنه لم يستحسن قطع الحديث لاجل الاستفهام فسكت . واما الرجل فانه اتم كلامه قائلا : « ان ابناء عمنا هؤلاء قد قلبوا العالم بأسره ومدوا سلطانهم على العراق والشام وافريقية وفارس وخراسان الى اقصى المعمور ! » . فازداد الفونس استغرابا لقوله (ابناء عمنا) ولم يتمالك ان التفت نحو يعقوب ، فادرك يعقوب مراده قبل ان يتكلم فقال له : « ان العرب الذين قاموا بالدين الجديد هم ابناء اسماعيل بن ابراهيم ، واليهود ابناء اخيه اسحق ، فهم بهذا الاعتبار ابناء عمنا » .

فتحول الفونس نحو المتكلم لاستتمام الخبر فاذا هو يقول للرئيس : « وقد سافرت فى اسفارى للتجارة وخدمة الجمعية الى الشام ومصر ، واختلطت بالناس ورايت كثيرين من اخواننا اليهود الذين استطاعوا التخلص من هذا الذل بالخروج من هذه البلاد وهم الآن فى افريقية ومصر والشام فى راحة وسكينة لا يتعرض لهم احد فى دينهم ، يصلون كيف شاءوا ومتى شاءوا ويتعاطون اعمالهم وتجاراتهم بأمان وسهولة . وليس ذلك شان اليهود الغرباء فقط بل هو شان كل السكان من كل الطوائف لان اليهود كانوا مضطهدين ايضا فى تلك البلاد تحت نير الروم يذوقون العذاب الوانا كما كنا نذوقه نحن منذ بضعة قرون قبل ان أجبرونا على النصرانية او المهاجرة او القتل ، واضطررنا الى الفرار او التظاهر بالنصرانية كما تعلمون . واما اخواننا فى مملكة الروم فكانوا ارحم حالا منا ، ومع ذلك فانهم لم يصبروا على ذلك الضيم وكثيرا ما كانوا يفتكون بالنصارى ويقاومون الحكومة ، فلما جاء ابناء اسماعيل لفتح بلادهم كانوا من اعوانهم على ذلك . وقد احسنوا صنعا لانهم تحرروا من رق الروم واستبدادهم وامنوا على ارواحهم واموالهم وخفت عنهم الضرائب وهم فى نعيم » .

فقال الرئيس : « وكيف ذلك ؟ الم يخرجوا من سلطان الى سلطان ، ومن ضريبة الى ضريبة ؟ الم يحكم العرب فيهم سيوفهم او نفوذهم ؟ الم يضربوا عليهم الضرائب ؟ »

قال : « نعم يا مولاى . ان العرب فتحوا تلك البلاد بالسيف او بالصلح وصارت تحت سلطانهم ، ولكنهم فى الحقيقة قلما يتعاطون

شيئا من امورها حتى انهم لا يقيمون فى المدن ولا يختلطون بالرعايا الا نادرا ، وفى اوقات معينة ولأغراض وقتية »

فقطع الفونس كلامه وقال : « وكيف يكون ذلك ، واين يقيمون ؟ وكيف يحكمون البلاد وهم لا يقيمون فيها ! ؟ »

قال : « لا الومك على استغرابك ذلك لانه غير مالوف فيما تعرفون فى هذه البلاد حيث يتداخل الحكام فى كل حركة من حركات الناس بل هم يعدون الرعايا عبيدهم . واما هؤلاء العرب فانهم بعد أن فتحوا تلك البلاد ووضعوا عليها الجزية والخراج نزلوا فى ضواحيها وابتنوا لأنفسهم مدنا لا يقيم فيها سواهم كالقيروان فى افريقية ، والفسطاط فى مصر ، والبصرة والكوفة فى العراق ، وتركوا اهل البلاد الاصليين على ما كانوا عليه فى ايام الروم أو الفرس ، كل منهم على دينه واعتقاده ، يتعاطى عمله وليس عليه الا اداء الخراج او الجزية كل عام ، وهى ضرائب زهيدة لا تقاس بما كان الروم يسومون رعاياهم من امثالها . وكان الناس عند أول الفتح اهنأ عيشا منهم الآن بالنظر لظلم بعض عمال بنى امية ، ومنهم عامل فى العراق اسمه الحجاج شديد الوطأة على اهل البلاد يطالبهم بالخراج الكثير لحاجته اليه فى الحروب ، ولكن الملك الاكبر الذى يسمونه الخليفة يقيم فى دمشق الشام ، وكثيرا ما يبعث الى عماله أن يعودوا الى الرفق . ومع كل ذلك فان الرعايا من اليهود او النصارى احسن حالا تحت سلطان العرب منهم تحت سواه ، خصوصا اذا عاد العرب الى ما كان عليه خلفاؤهم الاولون من العدل والرفق والمساواة ، ولولاها لم يسهل عليهم الفتح حتى امتد سلطانهم على معظم العالم المعمور فى الشرق »

فقال الرئيس : « يا حبذا لو انهم يأتون الينا فيستولون على هذه البلاد ، لانهم اذا كانوا أخف وطأة من بطارقة الروم فبالأولى ان يكونوا افضل لنا من حكومة القوط »

فاعترضه الرجل الرحالة قائلا : « لا يحق لنا ان نشكو من حكم القوط على الاجمال ، فان بعضهم كان كثير الرفق بنا خصوصا الملك غيطشة السابق فانه كان عازما على تحرير رقابنا واطلاق حرية الدين لنا ، ولكن المنية عاجلته ، او هم عجلوها له ، فخلفه الطاغية رودريك وهو من اظلمهم جميعا قبحه الله »

◻

فانتبه الرئيس لوجود ابن غيطشة بينهم ، واعجبه ما قاله الرحالة من اطراء ابيه فقال : « لقد نطقت بالصواب . وعلى كل حال فاننا

وددنا لو ان هؤلاء العرب يأتون اسبانيا ، ولا نظنهم يلقون صعوبة كبرى في فتحها ، اذ ما من طائفة من اهلها لا تشكو من هيئة الحكومة »

فقال الرحالة : « ان ما تتمنونه وانتم جلوس هنا قد سعى فيه اخوانكم هناك ، وانا في جملتهم ، وكثيرا ما حرضنا عليه هؤلاء العرب وحببنا اليهم هذ البلاد ، وبينا لهم سهولة فتحها عليهم وهم هائبون . ولكن يظهر انهم اوشكوا ان يحملوا عليها »

فابتدره الرئيس بلهفة قائلا : « هل تعنى ماتقول ؟ » . قال : « نعم يا مولاى ، وهو الخبر الذى جئت من اجله وكنت عازما على مباغتتكم به فأخرجنا الحديث عنه . قلت لكم ان (موريتانيا)ـ وقاعدتها سبتة ـ هي احدى ولايات الرومان ، فلما فتح العرب افريقيا اصبحت موريتانيا منفردة عن مملكة الروم فانحاز صاحبها الى اسبانيا ليكون في كنف دولة نصرانية .. ولما خرجت انا من اسبانيا الى موريتانيا كان حاكمها رجلا اسمه (يوليان) فتظاهرت بالنصرانية ، وعمدت الى تجارتى اشتغل بها وانا ارتحل في البلاد واعود الى سبتة وفي نفسي ما تعلمون من الغيظ لما تقاسيه طائفتى من الفتك والعسف تحت نير القوط ، فأتيح لى انى انتقمت لها من يوليان هذا انتقاما ليس هنا محل ذكره ، وكنت مع ذلك من المقربين اليه ، يثق بى ويشاورنى في اموره ، وانا اظهر له الود واغتنم الفرص لنيل بغيتى ، وما هي الا ان احبب الى العرب فتح اسبانيا ، ولكنى اعلم ان السبيل اليها لا يكون الا اذا فتحوا سبتة لوقوعها على بحر الزقاق ، وهو اقرب سبل العرب الى هذه البلاد

« وكان عامل العرب على افريقيا في الاعوام الاخيرة رجلا شجاعا ذا همة اسمه موسى بن نصير ، فبعث برجاله حتى فتحوا طنجة واقاموا فيها وحاصروا سبتة من البر ويوليان ممتنع فيها ، صابر على ولاء القوط مع علمه ان صبره لا يجديه نفعا ، ولكنه لا يستطيع الخروج من طاعة رودريك لأسباب لا تجهلونها »

وكان الفونس لما ذكر اسم يوليان خفق قلبه لعلمه انه والد حبيبته فلورندا واصاخ بسمعه لعله يسمع شيئا يتعلق بها . واستأنف الرجل حديثه قائلا : « وكنت انا في اثناء ذلك الحصار في قصر يوليان اجالسه كثيرا وهو يركن الي ويقربنى منه لغناى وسعة تجارتى لعله يحتاج الى مال أو مؤونة في اثناء الحصار ، وانا اكثر منه رغبة في التقرب كما تعلمون . فبينما انا في منزلى واذا برسول يوليان

يدعوني اليه عاجلا، فمضيت حتى اذا دخلت قصره واشرفت على باب غرفته رايت شابا خارجا منها يظهر من قيافته انه قادم من سفر بعيد ، وعلمت من شكل لباسه انه من اهل طليطلة واحسبه من خدم الملك ؛ فسرت حتى دخلت الغرفة وكنت ادخلها دائما بلا استئذان ، فرايت يوليان جالسا على كرسي بجانب نافذة تطل على البحر الكبير وبيده شيء قد قبض عليه وهو مستغرق في الهواجس . فلما سمع خطواتي نهض بغتة ورمى الى بما كان بيده وقد اخذ الغضب منه ماخذا عظيما وهو يقول : (اقرا هذا يا فلان وانظر شقائي وتعاستي ! ما كفتني المصيبة التي اصابتني من اول عهد شبابي حتى بليت باقبح منها من رجل انت تعلم اني اقاسي عذاب الموت في سبيل المحافظة على الولاء له) فالتقطت ما رماه فاذا هو قطعة من قماش اظنها مقطوعة من قميص او رداء وعليها كتابة حمراء كأنها كتبت بالدم . ولما قراتها اقشعر بدني استغرابا ولكن قلبي كاد يطفح سرورا لعلمي أن في ذلك الكتاب حلا للمشكل الذي نحن فيه »

وكان الفونس في اثناء ذلك قد بلغ به الاضطراب غايته ، وكان سائر السامعين قد ارهفوا آذانهم لاستماع الخبر الجديد ، بينما استانف الرجل حديثه قائلا : « قرات الكتاب فاذا فيه : والدي العزيز . سلمت ابنتك الى رجل يسمى نفسه ملكا ، وهو وحش كاسر ، لا يراعي ذماما ولا حرمة ولا عرضا ، ولولا العناية الالاهية لذهبت فريسة بغيه وفسقه ! . اكتب اليك هذا على قطعة من ثوبي وانا هائمة على وجهي لا ادري اين اختبيء من بغي هذا الظالم الخائن ، ولا ادري متى التقي بك . فما جزاء من اراد بابنتك سوءا ؟ . وسينبئك حامل هذا الكتاب — اذا استطاع الوصول اليك — بما قد يشكل عليك فهمه . كتبته فلورندا »

فلا تسل عن الفونس واضطرابه وخفقان قلبه . ولولا ذلك اللثام لافتضح امره لاستغرابه قولها : « انا هائمة على وجهي » وقد كان يظنها في مأمن عند عمه ، فعظم عليه الامر ولكنه كظم عواطفه وصبر نفسه لسماع بقية الحديث . وكذلك كان شأن يعقوب

اما الرجل فانه اتم حديثه قائلا : « فلما فرغت من قراءة الكتاب اظهرت الغيظ وقلت له : (الى متى البقاء على ولاء رجل لا يراعي ذماما ولا يحفظ حرمة ولا يستبقي عرضا ؟ انت تعرض نفسك للخطر وتصبر صبر الاطفال في الدفاع عن سلطانه وهو يفعل هذا الفعل مع ابنتك !) . وكان يوليان قد استولت عليه السويداء منذ اعوام

على اثر مصيبة انتابته وثقل عليه حملها ، فجعلت استحثه واهيج عواطفه حتى قال : (لا بد لى ان انتقم من هذا الخائن واسلم هـذه البلاد للعرب فانهم احفظ منه للجميل . ولا يكفي ذلك بل أني محرضهم على فتح اسبانيا الى طليطلة حتى يصيبوا مقتلا من رودريك فأشفى غليلى !) فسرني عزمه على ذلك وهو الغرض الذى طالما تمنيته وسعيت فيه ، فجعلت اقوى عزيمته واهون عليه الامر حتى قلت : (واذا احببت فانى أسعى عنك فى مخابرة العرب واجعل تسليمك على سبيل الخدمة لك ولهم ، وليس عن ضعف أو جبن) . فرضى منى بذلك وخرجت فخابرت موسى بن نصير امير العرب فسر ورحب بيوليان وعرض عليه عبور بحر الزقاق الى العـدوة الاخرى وفتح الاندلس ، على ان يكون هو معهم يطلعهم على عورات القوط ، فرضى موسى ولم يسعنى عند سماعى ذلك الا القدوم اليكم بهذا الخبر »

فلما بلغ الرجل الى هـذا القول استولت الدهشة على الجميع خصوصا الفونس ، فانه وقع بين عاملين : عامل الغرام بفلورندا وقد انشغل خاطره بشأنها بعد أن علم انها ليست فى بيت عمه ، وعامل الياس من الملك اذا فتح العرب هذه البلاد لانها تخرج من سلطان القوط على الاطلاق . وادرك يعقوب ما قد يخطر ببال الفونس من من هـذا القبيل وخاف ان يغير ذلك من رايه فى مقاومة رودريك . ثم تذكر مسألة فلورندا وما فى نفس الفونس على رودريك بشأنها فعلم انه لا يمكن ان يصفو له مطلقا خصوصا بعد ان سمع شكاية فلورندا لأبيها . على أنه احب ان يثبت الفونس فى عزمه فقال وقد وجه خطابه الى الرئيس : « ان هذا الخبر الذى جاءنا به اخونا هذا من الأهمية بمكان عظيم . ولا نظن العرب الا فاتحين هـذه البلاد خصوصا لأن يوليان معهم يدلهم على الطريق . وطبعا نحن نكون عونا لهم ايضا لاننا نخدم مصلحتنا ولا يغير ذلك شيئا من غرضنا الاول فى استرجاع الحكم ، لاننا قد سمعنا الآن أن العرب يستبقون البلاد على ما هى عليه ، وما نظنهم اذا علموا نصرة مولانا الفونس لهم الا مسلمين اليه الاحكام مكتفين بالخراج والجزية والسيطرة الخارجية »

وكان الفونس يسمع ذلك باهتمام ، واصبح شديد الرغبـة فى الخروج من ذلك المجتمع للبحث عن فلورندا ، على أنه اراد قبـل الانصراف أن يستوثق من الامر الذى جاء من اجله ، فرد على كلام يعقوب قائلا : « ظن صاحبى يعقوب أن نقمتى على رودريك انما هى لرغبتى فى السلطة . ولكن الحقيقة ان الغرض الاول هو انقاذ هذه

البلاد من استبداده واطلاق سراح اليهود الذين اجبروا على النصرانية ظلما . فاذا حدث ذلك فليس يهمنى بعده من يملك »

فقال الرجل : « اؤكد لمولاى ان المسلمين اذا فتحوا هذه البلاد فعلوا كما ذكرت ، ولا اظنهم يستغنون عن مولاى فى حكم هذه البلاد بعد فتحها . فقد ولوا على طنجة رجلا بربريا اسمه طارق مع ان البرابرة لم يذعنوا لسلطانهم اذعانا تاما حتى الآن . ولعلهم يفعلون ذلك لقلة عددهم بالنظر الى سعة البلاد التى فتحوها واضطرارهم الى الاستعانة بغير العرب فى ضبط الاحكام . وعلى كل حال فاننا لا نألو جهدا فى اقناعهم بذلك »

فلما سمع الفونس قوله اطمأن خاطره من هذه الناحية ولم يبق ما يشغله الا امر فلورندا ، فالتفت الى الرئيس وقال : « هل من كلام يلقى علينا ام تأذنون بانصرافنا ؟ » . فقال الرئيس بعد ان وقف الجميع : « اذا شئت الانصراف فالامر فيه أمرك . ولكننا نرغب اليك ان تعتقد صدق عبوديتنا فى خدمتك ، وان اليهود فى كل هذه البلاد يضحون بأموالهم وأنفسهم فى مصلحتك ، وعهد الله فى ذلك بيننا وبينك » . فشكره الفونس وقال : « قد ذكرت لكم غرضى ، والله ولى التوفيق »

ثم تحرك يعقوب نحو الباب واشار الى الفونس فتبعه وخرجا من تلك الحجرة الى الغرفة الكبرى وفيها المقاعد حول المنضدة كما تقدم ، فمشيا مشية خاصة ، وخرجا من باب الى باب ، حتى انتهيا الى السرداب ومنه الى الكهف . فلما اطلا على الخلاء رايا الفجر قد لاح فعلم الفونس انهم قضوا طول الليل هناك واحس ببرد الخلاء . ثم نزعا الثوبين الاسودين وخرجا من الكهف يلتمسان المدينة ، وكان بابها قد فتح فدخلاها وسارا يقطعانها نحو الجسر والفونس لا يتكلم لما ازدحم فى مخيلته من الامور الجديدة . ولم يعد يدرى كيف يعامل يعقوب بعد ان عرف انه من اعيان اليهود ، لكنه ظل راغبا فى استطلاع بقية سره . على انه كان قد استولى عليه الصداع بعد خروجه من السرداب اذ استقبله النسيم البارد على اثر سهره الطويل ، فأصبح لا يستطيع بحثا فى شىء . ولكن صورة فلورندا لم تبرح مخيلته ، وما سمعه من اقوالها الى والدها لم يغب عن سمعه

ووصلا الى القلعة وهو ما زال ساكتا ، ويعقوب يراقب حركاته وسكناته ، وكان قد ادرك بعض ما يجول فى خاطره ، ولم يشأ ان يحادثه فى شىء غير الاستفهام عما يريده من طعام او نحوه . وصعدا

الى غرفة الفونس فاعد له يعقوب كل ما يحتاج اليه وهيأ له الفراش فنام ، ونام يعقوب ايضا

فلنتركهما نائمين بجوار استجة ، ولنذهب بالقارىء الى افريقية (وهى بلاد البربر المعبر عنها اليوم بشمالى افريقيا وفيها برقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش) لنبحث عن أحوال العرب هناك الى فتح الاندلس

— ٧ —

توفى الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٥ هـ فخلفه ابنه الوليد .
وكان عبد الملك قد تولى الخلافة عشرين سنة ، قضى معظمها فى محاربة مناظريه عليها ، وكثيرا ما خاف خروجها من يديه ، ولكنه كان ذا سياسة ودهاء ، وقد نصره الحجاج بن يوسف أدهى عمال المسلمين واشدهم وطأة فخلصت الخلافة لعبد الملك . فلما مات خلفه ابنه الوليد وقد نجا من المنافسين ، فانصرف همه الى توسيع المملكة الاسلامية فبعث بقتيبة بن مسلم نحو الشرق لفتح ما وراء النهر فأوغل فى بلاد الترك حتى ادرك حدود الصين ، وبعث اخاه مسلمة ابن عبد الملك شمالا لغزو بلاد الروم ففتح عمورية وهرقلة وقمونية وغيرها . وانفذ موسى بن نصير الى افريقيـة فولاه اياها وأمره أن يتم فتحها

وكانت افريقية قد فتحت فى صدر الاسلام والحقت بمصر ولكن اهمل شأنها لبعدها ومشقة المسير اليها . واهل افريقية الاصليون قبائل عديدة من البربر لهم السنة خاصة وعادات خاصة ، وبلادهم كثيرة الماشية والمرعى . وكانوا لما اشتغل الامويون عن افريقيـة بانفسهم ايام عبد الملك قد اغتنموا الفرصة وحاولوا التخلص من حكم المسلمين فتمردوا وشقوا عصا الطاعة . فبعث اليهم عبد الملك حسان ابن النعمان فحاربهم واخضعهم ونشر الاسلام فيهم ، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا الى الاضطراب . فلما تولى الوليد بلغه أنهم فى انقسام فيما بينهم فرأى ان يغتنم هذه الفرصة لتأييد سلطانه هناك وتتمة فتح تلك البلاد فبعث اليها بموسى بن نصير وهو عربى لخمى وكان قائدا باسلا حسن الاعتقاد فى الاسلام ، فنزل القيروان ثم تتبع البربر الى بلاد السوس الادنى وهم يفرون من بين يديه حتى اذا يئسوا من النصر جاءوا اليه مستأمنين وبذلوا له الطاعة ، فولى عليهم اناسا من

رجاله يضبطون احوالهم ويعلمونهم القرآن وفرائض الاسلام

وكان فى جملة مواليه رجل من البربر اسمه طارق بن زياد ، وكان شجاعا اعتنق الاسلام وأظهر غيرة عليه ورغبة فى تأييده . فلما اتسعت فتوح موسى فى افريقية ولى مولاه طارقا على طنجة واعمالها ، وترك عنده ...ر١٩ فارس من البربر ممن اسلموا وحسن اسلامهم . ورجع موسى الى افريقية ولم يبق فى تلك البلاد غير خاضع للمسلمين الا مدينة سبتة وهى ميناء مشرف على « بحر الزقاق » المسمى الآن بوغاز جبل طارق. وكان حاكمهما هوالكونت يوليان المتقدم ذكره

وكان جماعة البربر فى المغرب يعبدون الاوثان ، الا بعض من خالط الروم على شواطىء البحر فانهم اعتنقوا النصرانية . وكان لكل قبيلة اصنام وعبادات ، وكهنة يديرون شؤونها ويتولون الاحكام بين اهلها كماكان يفعل الكهان عند العرب فى الجاهلية ، وكان البرابرة يستشيرون كاهنهم ويسمى « ماربوط » فى شئون الحرب والسلم ، ويحملون اليه الهدايا من الماشية والحنطة والرقيق الاسود والابيض . وكان التجار وغيرهم من الروم والقوط يسطون على قبائل البربر فيخطفون الاطفال والغلمان ويحملونهم الى الآفاق يتجرون ببيعهم ، كما كانوا يتجرون بغلمان البيض من اهل اسبانيا وغيرها ــ والغالب ان يكون هؤلاء من اسرى الحرب ــ وكان بيع الاسرى شائعا فى تلك العصور . . واشتهر برابرة المغرب خصوصا بركوب الخيل

وكان طارق بن زياد ينتمى الى قبيلة الصدف ، احدى قبائل البربر ، وقد نشأ فى الجبال وعاش عيشة البدو ، وتدين بالوثنية مثل سائر اهله ورفاقه ، وشب قوى البنية شديد البطش شجاعا وكان منذ نعومة اظفاره مشهورا بين رفاقه بالفروسية والقوة

وكان من جملة عشرائه غلام ابيض بعكس سائر البرابرة ، وكانت تقاطيع وجهه تختلف عن تقاطيع وجوههم ــ فالبرابرة ضخام الشفاه عراض الوجوه قصار الانوف سود الشعر والبشرة ، بينما هو ابيض الوجه اشقر الشعر ازرق العينين ، ولكنه بالنظر الى معيشة البداوة فى البرارى وركوب الخيل والغزو اسمر لونه قليلا وضخمت اعضاؤه كلها فاصبح غليظ العنق والذراعين ، واسع الصدر خشن الكف كث الشعر . وكانوا يسمونه (بدر) اشارة الى صباحة وجهه دون سائر رفاقه . وكان البرابرة يحبونه لخفة روحه وبسالته ، ولا سيما انهم كانوا يرون الشجاعة من خصائص السمر ، وان البيض ضعاف جبناء ! شب طارق وهو يرى هذا الغلام فى بيت ابيه ويعلم انه ليس اخاه

وان « ماربوط » قبيلتهم دفعه الى ابيه واوصاه برعايته والاعتناء بتربيته لانه توسم فيه الخير . فتصاحبا وتحابا . وكان طارق لايهنأ له عيش الا اذا كان بدر معه ، وكان بدر يعجب بطارق ويحبه كثيرا ويعد نفسه اخاه ، ولا يتخاطبان الا بالاخوة حتى عرفا بذلك عند سائر قبيلة الصدف

ولما جاء موسى بن نصير الى افريقية وصار عاملا عليها كان في جملة من اتخذهم من الموالى طارق بن زياد ، حتى اذا ما راى شجاعته وحسن اسلامه رقاه حتى جعله قائد حامية طنجة كما تقدم . وكان بدر رفيق طارق في كل اعماله ، ولكنه لصغر سنه لم ينتبه له موسى وان كان قد اظهر في الوقائع التي شهدها بسالة الابطال المحنكين ، لانه لم يكن يهاب الموت خصوصا اذا كان مع اخيه طارق

فلما عرض يوليان على موسى فتح الاندلس على ان يكون هو عونا له في ذلك بعث موسى الى الخليفة الوليد يستأذنه ، فأذن له ، على ان يخوضها بالسرايا (ولا يغرر بالمسلمين في بحر شديد الاهوال) . فراى موسى ان يجرب ذلك برجال من الموالى المسلمين من غير العرب ولم ير خيرا من طارق يوليه قيادة تلك الحملة ، فاعد سبعة آلاف من الموالى والبربر — وفيهم بعض العرب — وسلم قيادتهم الى طارق ، وامره ان يعبر بهم بحر الزقاق الى الاندلس ، فعبره في سفن اعدها لهم يوليان حتى نزلوا جبلا على شاطئه وسمى منذ ذلك (جبل طارق)

ولم يلق طارق مشقة في امتلاك الجبل ، ثم بلغه ان رودريك صاحب طليطلة يتاهب للمجيء اليه في جند عظيم ، فكتب الى موسى فامده بخمسة آلاف بربرى فصار جنده اثنى عشر الفا وفيهم يوليان صاحب سبتة يدلهم على عورات البلاد ويتجسس لهم الاخبار ، ويبث في اهل البلاد ان العرب جاءوا الاندلس لابقصد الفتح والاستيطان وانما ليملأوا ايديهم من الغنائم ويخرجوا ، وحبب الى الاسبان ان يسهلوا لهم التغلب على رودريك حتى يتخلصوا منه ويعيدوا الاحكام لمن يريدون من ملوكهم الاصليين

□

كان المسلمون على ما ذكرنا من تيقظهم ونهوضهم للفتح والتوفيق حليفهم ، ورودريك في بلاطه على نحو ما قدمنا من اشتغاله بالترف والرخاء ، وقد تركناه وهو يكاد يتمزق غيظا من اوباس لانتزاعه فلورندا من بين يديه بعد ان كادت تكون فريسته ، فلما راى منه

عند محاكمته فى مجلس الاساقفة ماكاد يفضح امره ، اسرع الى انهاء الجلسة بحجة تأجيل النظر فى تهمة اوباس الى جلسة اخرى كما تقدم وهو لاينوى العود الى ذلك ، وانما اتخذه ذريعة للحجر على اوباس فى السجن ريثما يبحث عن فلورندا . حتى اذا ما انفضت الجلسة عاد الى قصره والاب مرتين الى جانبه يطنب فيما يزعم انه انتصار على اوباس وارغام انفه ، فكاد ان يصدق ذلك رودريك وينسى ما كان من الصواعق التي انزلها اوباس على راسه فكادت تسقط عرشه

وصل رودريك الى القصر وهو مقتنع بفظاعة ذنب اوباس وانه يستوجب اضعاف تلك النقمة ، فعزم على استبقائه فى السجن ريثما يدبر وسيلة لاستطلاع خبر فلورندا ثم ينتقم منه . ولم يعجل فى قتله لئلا يحتاج اليه فى البحث عنها . وكان اول ما قام به ان بث العيون والارصاد فى ضواحي طليطلة وفى الطرق المتشعبة منها ، ووعدهم باجزال المكافاة لهم اذا قبضوا عليها وعلى من عساه ان يكون معها

اما اوباس فانه ذهب الى سجنه منشرح الصدر ، لاعتقاده ببراءة ساحته وسلامة طويته ونبالة مقصده ، خصوصا بعد ان اتيح له كشف اعمال رودريك للمجمع ولوتلميحا . ومع انه لم يكن يرجو تغير المجمع على رودريك كان يهمه الانتصار للحق والاستجابة لصوت الضمير الحي ـ شأن الذين ينتظمون فى سلك الرهبنة رغبة عن ملاذ هذا العالم ، فهؤلاء اذا اخلصوا النية فى تبتلهم لم يكن فى الناس اقدر منهم على نصرة الحق لاستغنائهم عن الشهرة او الثروة ، ولاحتقارهم سائر امجاد هذا العالم الفانية ، وهم انما تبتلوا نفورا منها ـ وقد كان اوباس واحدا منهم ، ولم يكن سعيه فى ارجاع الملك لابن اخيه الا من قبيل نصرة الحق

اقام اوباس فى سجنه المؤقت بضعة اسابيع وهو لايبالى لواقام فيه اعواما لولا اشتغال خاطره بفلورندا ، لانه لايعلم اين هى ، ولا اين ذهب بها اجيلا وشانتيلا ، ولكنه رجح من قرائن مختلفة انهم لم يقعوا فى قبضة رودريك . وكان لثقته فى ذينك الشابين وغيرتهما وصدق نيتهما فى خدمته مطمئن البال على فلورندا ، على انه كان شديد الرغبة فى معرفة مقرها ومصيرها ، كما كان يفكر فى الفونس وفى المهمة التي انفذه رودريك فيها ، وما قد يتعمده من اذيته اذا علم بسعيه فى انقاذ فلورندا وطلب الملك لنفسه . ولكنه لانطباعه على نصرة الحق

لم يكن يخاف بأسا ، ولاعتقاده ان الحق يعلو ولا يعلى عليه وان على الباغى تدور الدوائر ، كان يتوقع وقوع رودريك فى شر اعماله ، ذلك ما صرح به غير مرة حتى بين يدى رودريك نفسه !

والعاقل اذا تدبر مصير الحياة الدنيا مع ما يعتورها من الاخطار يرى الرجوع الى غير الحقيقة ضربا من الجنون . لأن الحقيقة هى الغالبة وهى وحدها التى تبقى . وان كنا فى الواقع لا نكاد نخطو خطوة الا والوهم قائدنا ـ ذلك حالنا فى كل علاقاتنا الادبية والاجتماعية ، وهى علاقات اساسها اعتبارات وهمية لاوجود لها فى الطبيعة ، وانما هى مما صوره وهم الانسان مسوقا اليه بالضعف البشرى ، محاولا اثباته صونا لمصلحته فيما تدعوه اليه عواطفه

□

شريش Xeres مدينة فى جنوبى اسبانيا تابعة لولاية قادس ، فى الطريق بينها وبين اشبيلية . تبعد عن مدينة قادس ١٧ ميلا ، وعلى مقربة منها نهر صغير هو وادى لبتة Gua Dalete الذى يبدأ من جبال ولاية قادس فى الشمال ، ويسير نحو الجنوب والغرب ، فيترك مدينة شريش الى يمينه ويجرى حتى يصب فى المحيط الاتلانتيكى فى خليج بالقرب من قادس . ومدينة شريش واقعة فى منبسط من الارض بين جبلين يكتنفانها من الشرق والغرب ، وبينها وبين مجرى النهر كثير من المغارس والكروم حتى لقد اشتهرت بكرمها وخمرها المعروفة باسمها (خمر شرى) الشائعة فى اوربا ، وهى خمر ثمينة يعتقونها ويتعاطونها على موائدهم ، ومعظم ما يصدر الى العالم منها يعصر من كروم ضواحى هذه المدينة

وتحتل كروم شريش مساحة كبيرة من ضواحيها الى النهر وما وراءه ، على اكمات مسطحة او مائلة . وبين الكروم بيوت الزراع ، ومنها ابنية غريبة الشكل تتألف من غرف كبيرة قائمة على صفوف من الاساطين الدقيقة ، عالية السقف ، فى جدرانها منافذ عديدة يتخللها الهواء ، ويستخدمونها كمستودعات يختزن خمورهم فيها لتعتيقها بمرور الاعوام

وبجوار وادى شريش مما يلى وادى لبتة سهل سماه المقرى « فحص شريش » التقى فيه طارق البربرى ورودريك القوطى ، وفيه كانت الضربة القاضية بفتح الاندلس وتمتع العرب بغنائمها ومحصولاتها ، وهان عليهم الفتح بعد ذلك حتى طمعوا فى فتح اوربا كلها ، وكانت غاية فى الاضطراب والتضعضع ، فلواستمروا فى غزوهم

لما لقوا من يصد سيوفهم او يقف فى سبيل نبالهم ، ولكنهم اجلوا المسير فضاعت منهم الفرصة

ففي صيف سنة ٧١٠ للميلاد ، اى بعد الحوادث التى ذكرناها فى طليطلة ببضعة اشهر ، كانت مغارس الكرم فى شريش وضواحيها وعلى جانبى وادى لينة قد نضجت اعنابها واخذ بعض الفلاحين فى قطافها والبعض الآخر فى تدعيم ما ثقل حمله من الدوالى لكبر العناقيد ، واشتغل آخرون فى اعداد المعاصر ، وغيرهم فى نقل بعض ما اختزنوه من خمور العام الماضى لاختزان خمر هذا العام

وكان يشتغل فى ذلك كله عائلات من اهل البلاد الاصليين او ممن قضى عليهم بالاسر فى بعض الحروب فاصبحوا فى مصاف العبيد ، وفيهم من كان بين قومه من اهل الوجاهة وقد صبروا على مضض الذل ، وهو غير ثقيل على اهل ذلك الزمان لانه كان جاريا على الجميع ، لكنه لم يكن يمنع تذمر اولئك الفلاحين من تلك الحال كما كان اكثرهم يشكون من صاحب تاج طليطلة

على ان الراى العام لم يكن راضيا عن رودريك لأسباب تقدم ذكر بعضها ، وكانوا من جهة اخرى قد سمعوا بنزول العرب بلادهم عند بحر المجاز (بوغاز جبل طارق) فلم يكترثوا بنزولهم ولا علقوا عليه كبير اهمية . وكان هناك شيخ طاعن فى السن قضى حياته فى الاسفار متنقلا بين اسبانيا وما يقابلها من بلاد الشاطىء الافريقى حتى وصل الى مصر والشام ، وشاهد بعض احوال العرب فى اوائل ظهور الاسلام ، فكان اذا ذكروا العرب بين يديه يقول : « لاينجينا من هذا الملك الا هؤلاء » ، فلما قيل له انهم عبروا البحر قال : « لقد قرب الفرج ! »

وكان شيخنا المذكور جالسا فى كوخه فى اواخر يوليو من ذلك العام (سنة ٧١٠) الموافق رمضان سنة ٩٢ هـ ، وحوله اولاده واحفاده ، يشتغل النساء منهم باعداد الطعام واصطناع الالبان والجبن ، والاولاد بعلف الماشية او صنع السلال لحمل العنب عند قطافه ، ولا حديث لهم الا تقدير محصول ذلك العام من العنب والخمر — وما لهم فى تقديره فائدة لانه ليس ملكهم ، اذ لم يكن للفلاحين ونحوهم ان يقتنوا عقارا او يملكوا بنيانا ، وانما الملك والسيادة لطبقة الشرفاء واكثرهم من الرومانيين والقوط ، ولم يكن للفلاحين سوى حصة قليلة من النتاج . ولكن الانسان ميال بطبعه للبحث عن المجهول ، ولذا فقد اشتغل الشيخ واولاده معظم ذلك النهار فى تقدير غلة تلك

السنة حتى احتدم الجدال بينه وبين احدهم فشغلوا بذلك عما حولهم . وكانوا جالسين فى ظل دالية كبيرة قد نصبوا بأغصانها خيمة بشكل العريش ، واجروا الماء تحتها بقناة تقف عندها الماشية للشرب والناس للاستقاء ، ويستظل بظلها اهل تلك القرية وما فيهم غير الشيخ واولاده واحفاده ونساء المتزوجين منهم

اقبل المساء وهم على هذا الحال وقد رجع من كان غائبا أثناء النهار فى اصلاح الدالية او تدعيمها او تنظيف المستودعات او عمل السلال او نقل القضبان اليابسة ليتخذوها وقودا لهم — فربما جاء الرجل وعلى راسه سلة ، وتحت ابطه حزمة ، وفى جيبه صرة ، وفى يده رغيف ، وفى فمه لقمة ، يجر وراءه صبية : هذا يقود خروفا ، وذاك يسوق حمارا ، وذلك يحمل عنقودا قطعه قبل تمام نضجه وفيه حموضة قليلة وقد منعه ابوه عن ذلك فخباه فى جيبه وجعل يأكله اختلاسا ، واخوه بجانبه يهدده بالشكوى الى أبيه اذا لم يطعمه بعضه ، فيهرع هذا الى والدته يختبىء فى ثنايا ردائها وفى زعمه ان ذلك الرداء يحميه من كوارث الدهر وطوارق الحدثان ، كأنما هو راية كسرى أنو شروان — تلك عيشة السذاجة الفطرية : ان يقتات المرء من ثمار ما يغرسه ، والبان ما يرعاه ، لامطمع له الا ان يجمع من ذلك ما يكفى اهله بقية العام للكساء والطعام — وهناك النيات السليمة والقلوب الطاهرة . هناك الاخلاص وصدق اللهجة ، اذا سمعت احدهم يقول لك انه مشتاق لرؤيتك فهو يعنى ذلك حقا ، ولايقوله على سبيل العادة التى اساسها الرياء والتملق ! . والسعادة الحقيقية (اذا صح وجودها) انما تكون فى تلك المنازل المتواضعة بين تلك المغارس التى تتجدد اوراقها فى كل عام وتتجدد معها قلوب اهلها — ليس هناك ضغينة ولا حقد ، ولا طمع ولا نميمة ولا رياء ، لقلة حاجات الانسان وسهولة نيلها . لان الحسد والحقد والرياء والنميمة انما يلجأ اليها الضعيف اذا كثرت مطالبه ، وعجز عن الحصول عليها بجده وسعيه — ولذلك كانت الرذائل من جملة ادران المدنية

على ان الفلاح الساذج انما يكون سعيدا فى ظل الامن والعدالة ، والا فهو من اتعس خلق الله . لان الظلم يقضى على سعادته قضاء مبرما اذ يسلبه ينبوع تلك السعادة وهو غلة ارضه — فكيف اذا لم يكن هو صاحب الارض كما كان شأن فلاحى اسبانيا فى الاجيال الوسطى ؟ ! فهل يلام شيخنا اذا تمنى ابدال حكومته بغيرها ولو كان غريبا ؟ !

غربت الشمس وهي ترسل اشعة ذهبية تشرح الصدر، ويتطاول اهل المدن لرؤيتها فلا يتفق لهم ذلك الا قليلا ، ولو اراد الفلاحون لراوها كل ليلة ولكنهم فى شاغل عنها وعن سواها من مناظر المساء باعداد العشاء والاجتماع تحت سقف المنزل او تحت بعض الاشجار.
فلماغابت الشمس اجتمع افرادتلك العائلة ـ وهم يعدون بالعشرات ـ وفيهم الاطفال والاحداث والشبان والشابات، واصغرهم سنا اكثرهم فرحا ، واعظمهم اهتماما ذلك الشيخ لانه لم يكن يهدأ له بال الا بعد ان يرى اولاده واحفاده تحت ذلك العريش فى آخر النهار ، خصوصا بعد أن جند امير تلك الناحية بعضهم بأمر رودريك ، ليكونوا له عونا فى محاربة العرب القادمين عليهم من جهة البحر

فلما ظن الشيخ ان الاجتماع قد تكامل تفرس فى اولاده فاذا احدى بناته ما زالت غائبة ، وكانت أعزهم على قلبه للطفها وحنوها فصبر هنيهة اخرى لعلها تأتى ، فلما استبطأها نادى امراته قائلا : « اين مارية ؟ »

فبغتت الوالدة العجوز وكانت تحسبها مع اخوتها واخواتها ، ولم تكن تهتم بمراقبة رجوع احد لاعتمادها فى ذلك على زوجها ـ فلما سمعته يسألها عنها بغتت وصاحت : « الم تأت بعد ؟ »

قال : « كلا اين تركتموها ؟ »

قالت : « تركتها فى المستودع الكبير فوق الرابية تغسل بعض الدنان والبراميل ، وتنقل بعض الجرار الملآنة الى جانب آخر ومعها اخوها بطرس » قالت ذلك والتفتت الى ما حولها ونادت : « بطرس ! » فجاء الغلام مسرعا فابتدرته قائلة : « اين تركت مارية ؟ » . قال : « تركتها فى المستودع الكبير . الم تأت بعد ؟ » . قالت : « لا » . ولم تتم العجوز قولها حتى وثب بطرس من العريش واسرع نحو ذلك التل وهو يقول : « ساعود بعد قليل » وانما حركه على تلك العجلة شعوره بانه مخطىء برجوعه وحده دون اخته

وكان القمر فى أواخر ايامه والليل مظلم والطرق بين الكروم شاقة وعرة الا على اهلها فانهم كانوا يمشون بينها واعينهم مغمضة ، لايعثرون بعود ولا حجر . ولبث الشيخ واهله ينتظرون رجوع بطرس فى قلق فلما طال غيابه وثب الوالد الشيخ كانه شاب فى عنفوان الشباب واقتص اثر ابنه عن طريق مختصر يعرفه ، وصعد على السلم الى باب المخزن وهو يلهث من التعب ، فوجد الباب مقفلا وليس عنده احد فدقه دقات كثيرة فلم يسمع جوابا ، فتأمل فى الباب فرآه

موصدا من الخارج على جارى عادته فترجح عنده ان مارية خرجت منه واقفلته . فوقف فى اعلى السلم ليستريح والتفت الى ما حوله فاطل على مدينة شريش ، الى ضفاف النهر من جهة ، وعلى كرومها من جهة أخرى والظلام يغشى بصره ، على انه راى أنوارا على ضفة النهر من تلك الجهة عرف من تبعثرها وتعددها انها نيران جماعة كبيرة . ولم يكن يعهد فى تلك الجهات اناسا غير الفلاحين وعملة الحقول وهم لايوقدون نارا على هـذه الصورة ، فاشتغل خاطره ونسى ضياع ابنته ، ووقف هنيهة ينظر الى تلك النيران ويرى اشعتها تتلألأ فى مجرى النهر كأنها مصابيح موقدة تحت الماء تهتز اضواؤها باهتزاز امواجه ، ولولا ذلك لم يعرف ان تلك النيران موقدة على ضفاف النهر ثم ما لبث أن سمع حركة ركض ومرور اناس بين الدوالى فأنصت فسمع صوت امراته ومعها بعض اولاده فعلم انهم جاءوا لاستطلاع خبر مارية فناداهم فكان أول صوت سمعه منهم صوت امراته وهى تقول : « اين مارية ؟ » فلما سمع الشيخ ذلك اقشعر بدنه وزاد بلباله وقال : « اين بطرس .. هل عاد اليكم ؟ »

وكانت العجوز قد وصلت الى اسفل السلم فأجابت وهى تمد يدها الى اخمص قدمها وتستخرج شوكة اصابتها فى اثناء جريها : « عاد بطرس ولم يجدها ! »

فنزل الشيخ عن السلم حتى التقى بامراته ومعها بضعة من اولاده فقال لهم : « يظهر لى ان مارية فقدت فى اثنـاء رجوعها من هنا ، فلنتفرق وليسر كل منا فى طريق حتى نلتقى فى البيت ، فمن وجدها منا فلينبه الباقين بالنداء حتى يكفوا عن البحث ، ولتكن العلامة فيما بيننا هذه اللفظة (يامار بطرس) . اما انا فاذا ابطات بالرجوع فلا تقلقوا لغيابى» . فارادت امراته أن تستفهم منه عن السبب فلم يصبر لسماع كلامها وانحدر نحو النهر ،يثب بين الكروم من تل الى تل ، يعثر تارة بالعليق وطورا بالحجارة ، وهو يتطلع نحو النهر مخافة ان يخطىء الطريق لاشتداد الظـلام ، فاذا توارى النهر عن عينيه وراء بعض الدوالى العالية او وراء التلال تحاشى ان ينحرف فتبعد المسافة عليه ، فلما قرب منه راى النور على ضفتيه ، ثم سمع جعجعة عرف انها اصوات الجمال وكان قد سمع مثلها فى اثناء اسفاره ـ اذ لم يكن لاسبانيا عهد بها من قبل ـ فتنسم رائحة العرب ، وادرك انه على مقربة منهم ، وتذكر ما سمعه عن نزولهم عدوة الاندلس فتحقق انه بجانب معسكرهم ، ولكنه استبعد سهولة وصولهم الى ذلك المكان

وبعد هنيهة وصل الى اكمة وقف عندها وتفرس فيما بين يديه ، فاذا هو مطل على سهل كبير ينتهى الى النهر ، وعلى الضفة البعيدة خيام تتخللها النيران ، وراى على الضفة القريبة فى طرف السهل نارا وبالقرب منها خيمة كبيرة لم يتبين لونها لشدة الظلام ، فلبث برهة يفكر فى مارية وضياعها حتى هم بالرجوع للبحث عنها فى مكان آخر ، ثم حدثته نفسه بالنزول الى تلك الخيمة واستطلاع خبر هؤلاء القوم قبل رجوعه ولم يخف باسا لما علمه فى أثناء أسفاره فى افريقية والشام من عدل العرب ورفقهم باهل البلاد التى يفتحونها . وكان قد تعلم بعض الالفاظ العربية مع غرابة تلك اللغة عنده وبعدها عن لغته ، وكانت السنون قد علمته الشجاعة ورباطة الجاش فنزل من الاكمة وسار يلتمس تلك الخيمة وهو يعجب لانفرادها هناك مع كثرة الخيام على الضفة الاخرى، فلما دنا منها طرق اذنه صوت ارتعدت له فرائصه بغتة واستغرابا ، اذ سمع مارية داخل الخيمة تتكلم وصوتها مختنق من البكاء ، فلم يعد يتمالك عن الوثوب نحو الخيمة وهو لايهاب احدا ولا يعى شيئا من فرط ما هاج من عواطفه خوفا على ابنته ، فاعترضه رجل واقف بباب الخيمة وقد تقلد سيفا ورمحا وهم بالقبض عليه وهو يقول بالعربية : « من انت ؟ » ففهم الشيخ مراده فأجابه بكلمات متقطعة انه يريد الدخول الى الخيمة ، فاستمهله الرجل ريثما دخل ثم عاد واشار اليه فدخل واجال بصره فى اطراف الخيمة للبحث عن ابنته فرآها جالسة فى بعض جوانبها على الارض ، وحالما وقع بصرها على ابيها مع ضعف نور المصباح هناك وثبت نحوه وهى تصيح : « ابى ابى ! » فاستقبلها الشيخ بين ذراعيه وقد دمعت عيناها من البغتة والفرح ، ونظر الى صدر الخيمة فاذا هناك رجل كبير الهامة عليه العمامة والجبة فعرف انه من البربر ، وبجانبه رجل بلباس القوط لم يحدق فيه الا قليلا حتى عرف انه يوليان صاحب سبتة ، ورجح أن يكون صاحبه هو طارق بن زياد ، اذ كان قد سمع باسمه ، وعرف انه هو الذى يقود جيوش المسلمين ، وان يوليان قد اتفق معهم على القوط ، وكان يحسب ذلك اشاعة كاذبة ، فلما رآه تحقق الامر وايقن ان العرب غالبون لا محالة

مرت كل هذه الخيالات فى ذهن الشيخ فى لحظة وهو معانق ابنته يخفف عنها ، وسمع صاحب سبتة يقول له بلغة الاسبان : « لعل هذه الفتاة ابنتك ؟ »

قال : « نعم يا مولاى » . قال : « لاخوف عليها فانها فى أمان على

كل حال . ولا تظن مجيئك غير شيئا من عزمنا فى شأنها ، فقد كان الامير عازما على ارجاعها اليك آمنة سالمة . واما بكاؤها الذى تراه فانما هو من خوفها ، وقد ظنت هؤلاء العرب يرتكبون مثل ما يرتكبه حاكمكم رودريك ، فان بمثل هذا الفعل الشنيع سيخرج سلطانه من يديه ان شاء الله ! » قال ذلك وانقبضت سحنته للحال فلم يدرك أحد سبب ذلك الانقباض ، على انه استطرد الكلام قائلا : « واما سبب مجيئها الينا فان بعض رجال الامير خرج فى اصيل هذا اليوم لحاجة فرآها فى الطريق فجاء بها وهو يحسبها من قبيل السبايا ، فلما علم الامير بذلك أنكره عليه ، وقدكانا فى جدال عنيف فى هذا الشأن الى ساعة دخولك »

ولم يتم يوليان كلامه حتى وثب الى وسط الخيمة شاب بلباس العرب وعلى راسه عمامة صغيرة ولكن سحنته غير سحنة العرب والبرابرة وهو فى مقتبل العمر تتدفق الصحة من عينيه وجبينه ونظر الى يوليان وهو يقول : « اراك حرمتنى من غنيمتى رغبة فى مرضاة ابناء جلدتك .. ! »

فأجابه طارق وهو يبتسم وقال : « لاتعجل يا بدر ، فانك ستصيب كثيرا من الغنائم . فنحن فى اول الطريق وغدا تلتقى بجند طليطلة فما تصيبه من الغنيمة او السبايا فهو لك . اما الآن فما نحن فى حرب ، ولا يمكننا ان نعد هذه الفتاة سبية . وهذا ابوها شيخ قد طعن فى السن ورايت ما كان من لهفته عليها ، فهل يليق بنا ان ننغص عيشهما بلا حق ، والاسلام انما يدعو الى العدل والرفق ؟ ! »

ثم التفت طارق الى الشيخ وقال : « انصرف ايها الشيخ الى منزلك وانت فى امان حتى تبلغه . واعلم اننا لم نقدم الى هذه البلاد الا رحمة بأهلها ، وان ديننا يأمرنا بالرفق والاحسان ، فكن على يقين انت وكل أهل الاندلس ان من يكف يده عن حربنا فهو فى ذمتنا ولا خوف عليه ، واما الذين يجسرون على مناوأتنا فما عندنا لهم الا السيف .. ! » ثم نادى : « يا غلام ! » فدخل رجل بربرى من اعوانه فقال له : « اصحب الشيخ وابنته حتى يصلا الى مأمنهما .. »

فهم الشيخ بتقبيل يد طارق فمنعه وطيب خاطره وصرفه ، فخرج وهو يثنى على ما لقيه من طارق وقال فى نفسه : « بمثل ذلك يملك الامير الرعية ولا يملكهم بالعنف او الظلم .. »

تركنا فلورندا وخالتها والرجلين اجيلا وشـانتيلا هائمين على وجوههم فى ضواحى طليطلة . وكان السبب فى ذلك كما علمت من سياق الرواية ان اجيلا وشانتيلا كانا فى انتظار فلورندا عند اسفل القصر فى تلك الليلة الشاتية المرعدة ، فلما تيسر لها الافلات من بين يدى رودريك بعد ان بغته اوباس كما تقدم اسرعت الى النـافذة ، وحملت ما استطاعت حمله من الثيـاب وايقونة صغيرة للسـيدة العذراء كانت شديدة الاعتقاد بكرامتها ، فخبأتها بين ثيابها والتفت بالقباء وخالتها العجوز تسـاعدها فى التاهب ، فلما اتما الاستعداد بقدر الامكان اطلت العجوز ونادت وكان الرجلان على اهبة العمل فتسلقا الشجرة وتعاونا على انزال فلورندا سـالمة ، ثم العجوز وما بقى من الامتعة الضرورية ، ونزلوا جميعا من الحديقة والرياح تهب والرعود تقصف ، وهم فى شـاغل من الخوف عن كل ذلك حتى نزلوا الى القارب .. وكانت فلورندا تتوقع ان ترى الفونس فيه لأنه هو الذى كتب اليها ان توافيه اليه ، فلما راته خاليا اشتغل بالها واستحيت ان تسال عنه ، فخاطبت خالتها فى الامر فالتفتت العجوز الى الرجلين وقالت : « واين الامير الفونس ؟ » . فقال شانتيلا : « لم يات معنا يا سيدتى » . قالت : « واين هو ؟ » . فخاف شانتيلا أن يكون فى قوله ما يسىء فلورندا لعلمه بما بينها وبين الفونس من الحب المتبادل، لأن الرجلين كانا قد ادركا سر المهمة التى انتدبهما لها اوباس، فاشتغل بالتجديف مع اخيه لتحويل القـارب الى جهة مجرى النهر ، وكان المصباح قد انطفأ من شـدة الرياح . على انه لم يجد مندوحة عن الجواب على سؤالها فقال لها : « نظنه فى منزل المتروبوليت لأنه هو الذى امرنا ان نذهب بك الى هناك »

فسكن روعها ولكنها ما زالت مضطربة الخاطر اذ لم تكن تتوقع ان يكل الفونس انقاذها الى سواه

سار بهم القارب وهم يطلبون ضفة قريبة من بيت اوباس لأنهم كانوا على موعد للذهاب اليه ومعهم فلورندا ، ولـكن طـال بهم المسير فى النهر لهياجه واضطرابه ومقاومة الرياح لهم فضلا عن شدة الظـلام .. وكانت فلـورندا كلمـا خافت خطرا اسـتجارت بالله واستخرجت الايقونة وقبلتها فيرتاح خاطرها ويطمئن بالها . وتلك ثمرة من ثمار الايمان ، اذ ليس افضل منه وسيلة لتعزية الانسان

مضى هزيع من الليل قبل نزولهم الى البر ، فلما نزلوه تشاوروا فيما يجب أن يفعلوه ، فقال اجيلا وكان اسرع خاطرا واكثر اقداما من اخيـه : « ارى ان تمكثوا هنا واذهب انا الى بيت اوباس ، ثم اعود بمن يحمل هذه الاحمال » . فاستصوب الجميع رايه فمضى حتى اشرف على المنزل فراى حوله فرسانا من جند الملك فأجفل وتراجع وقد شغل باله بسبب وجود الجند هناك . ثم ما لبث ان راى بعضهم يخاطب اوباس فتربص فى بعض المنحنيـات ليسـمع ما يدور بينهما ففهم من خلال الحديث ان الملك بعث بالجند للقبض عليه . فلم يخامره خوف على اوباس لفرط اعتقاده باقتداره ، ولكنه أوجس خيفة على فلورندا لاعتقاده ان سبب ذلك القبض متصـل بفرارها . فلمـا توارى الركب عنه تحول نحو القصر على امل ان يخاطب بعض الخدم فمشى وهو يسترق الخطى استراقا ويحسب الدخول سهلا بعد ذهاب الحرس ، فاذا هو بكوكبة اخرى قد أحدقوا بالقصر واستخدموا القوة لاخراج من فيه حتى علت الضوضاء وبالغوا فى التخريب والتعذيب !

فلما رأى اجيلا ذلك ايقن بالخطر الذى اصبح هو معرضا له هناك ، وبما يهدد فلورندا من الاخطار الجسيمة اذا اطلع الملك على مقرها . فهرول مسرعا ولم يعد له شاغل سوى بذل كل ما فى وسعه ووسع اخيه فى سبيل انقاذها وحمايتها !

□

وكانت فلورندا جالسـة على الارض وفى حجرها صرة قد اتكأت عليها بكوعيها والتفت بطرفها التفافا شديدا لشدة البرد والريح . وكان التعب قد غلب على قواها حتى مالت الى النعاس خصوصا بعد ان ظنت نفسها قد نجت من حبائل ذلك الرجل الشرير ، فأسندت راسها على كفها واغمضت جفنيها فنامت . ولما رأتها بربارة نائمة اجازت لنفسها الارتياح هنيهة . اما شانتيلا فانه ظل ساهرا قلقا وقد استبطأ اخاه وحسب لغيابه الف حساب ، وربما لامه لابطائه ومغادرته اياهم عرضة للهواء والبرد ، وتوهم انه لو ذهب هو فى تلك المهمة لكان أقدر منه على اتمامها وملاحظة ما قد ينجم عن الابطاء من الاضرار . على انه ما لبث ان رآه عائدا وحده فذعر لانفراده ، ثم سمعه يقول : « هلم بنا سريعا حتى نخرج من هذه الضواحى الليلة ، لانى لا احسب الملك الا وهو يبث علينا العيون والارصاد من صباح الغد ! »

فأفاقت فلورندا من رقادها مذعورة وصاحت : « ويلاه والى اين

نذهب ؟ نجني يا مخلصي ، اين الفونس ؟ »
فقال : « ليس فى المنزل احد يا سيدتى »
قالت : « ولا اوباس ؟ »
قال : « لقد رايته وهو مسوق بين ايدى الجند الملوكى الى قصر الملك . ثم رايت الجند دخلوا بيته واخرجوا كل من كان فيه من الخدم ، ولم اسمع ذكرا لسيدى الفونس بينهم ، فلعله لايزال فى منزله»
فقطع شانتيلا كلام اخيه وقال : « ان سيدى الفونس لم يرجع الى قصره قبل خروجنا منه »
قالت : « اين كان قبل خروجكم .. ؟ »
قال : « كان قد ذهب فى مهمة خاصة بأمر الملك » . فتذكرت للحال ما سمعته من رودريك فى تلك الليلة عن ابعاد الفونس ، وكانت تحسبه يقول ذلك على سبيل التهديد ، فأيقنت عند ذلك صدق قوله ولكنها لم تدر هل ابعده او حبسه ، فأعادت السؤال قائلة : « هل انت واثق بذهابه ، وهل تعلم الى اين ؟ »
قال : « انى واثق بخروجه من قصره وحوله الحرس الملوكى ، وأما الى اين ذهب فلا أعلم . ولكن الغالب انه سار فى مهمة الى بعض البلاد»
فعاد اجيلا وقطع كلام اخيه فقال : « اظنه ارسل فى قيادة حملة الى بعض البلاد لاخماد ثورة او مخابرة بعض الكونتية مما يحدث كثيرا فى هذه الايام . ولا بأس عليه باذن الله . ومتى استقر بنا المقام وامنا العيون والارصاد بحثنا عن مكانه ، وبذلنا كل ما يؤول الى راحتك وراحته فاننا صنيعته وارواحنا له . والآن لابد لنا من مغادرة هذه الجهات حالا ، والفرار من الظلم فضيلة ، ولنترك البحث فى مصيرنا الى وقت آخر . دعونا نرجع الى القارب ونسير مع مجرى النهر حتى نخرج من حدود هذه المدينة وأهلها وحراسها فى شاغل عنا بالامطار والزوابع ، فاذا صرنا فى مأمن نبحث فى الذى نفعله » .
قال ذلك وتقدم الى فلورندا يريد مساعدتها فى النهوض فنهضت وتحولت الى القارب وقد عادت اليها مخاوفها ، وتبعتها خالتها وهى تحمل صرة الثياب وبقى هناك صندوق تعاون الرجلان على حمله ونزلا فى القارب واخذا فى التجديف . وكان النوء قد خف وساعدهم مجرى الماء حتى خرجوا من ضواحى المدينة وأصبحوا فى مكان لايرون فيه انسيا ولا يسمعون صوتا غير نقيق الضفادع ، وكان قد مضى معظم الليل فأووا بالقارب الى منعطف وراء تلة تداروا بها من الرياح . وقال اجيلا عند ذلك لفلورندا : « نحن الآن فى مأمن يا سيدتى فاذا

شئت الرقاد الى الصباح لابأس عليك ، وكذلك الخالة ، واما نحن فاننا نتناوب الحراسة ريثما يطلع النهار ونبحث فى الجهة التى نسير اليها »

ونامت فلورندا بقية ذلك الليل نوما مضطربا ، فلما اصبحت تناولت قطعة من نسيج كتبت عليها الكتاب الذى تقدم نصه ، واستدعت اجيلا فدفعت الكتاب اليه والدمع يترقرق فى عينيها من شدة تأثرها وهى تكتبه وقالت : « لقد رايت من مروءتك ومروءة اخيك هذا ما يوجب سروري وامتنانى كثيرا ، وقد وعدتنى بالبحث عن الفونس ، واطلب اليك فوق ذلك ان توصل هذا الكتاب الى ابى .. هل تعرف من هو ؟ »

قال : « نعم يا سيدتى انه الكونت يوليان صاحب سبتة . ولكننى ارى يا مولاتى قبل كل شيء ان تنزلك فى مكان امين اعرف الطريق اليه ، اذا انا عدت بالجواب اليك »

فالتفتت فلورندا الى خالتها وقالت : « ما رايك يا خالة ؟ . اين تظنين مقامنا اقرب الى الامن والسلامة ؟ »

قالت : « لايخفى عليكم ان فى هذه البلاد اديارا ينقطع فيها الرهبان عن العالم تعبدا لله تعالى ، وتكون هذه الاديار غالبا فى البرارى او فى الجبال ، ومنها مالا يدخله الناس الا نادرا . فالرهبان منقطعون عن العالم برمته ، فاذا اقمنا فى احدها كان ذلك استر لحالنا ريثما يتيسر امرنا »

فتقدم اجيلا وكأنه تذكر امرا ذا بال وقال : « لقد اذكرنى كلام حضرتها اديارا للعذارى ، فالاقامة فيها اولى لمولاتى لأنها تكون بين عذارى مثلها »

فقطعت العجوز كلامه وقالت : « صدقت يا اجيلا ، ولكننا لانستغنى عن احدكما معنا ، وانى اعرف ديرا بين هذه الجبال (جبال طليطلة) بعضه للرهبان والبعض الآخر للراهبات ، وكل طائفة منهما فى قسم من الدير لاعلاقة لها بالطائفة الاخرى ولا بسائر العالم الا نادرا . ولا يلتقى الراهبات والرهبان معا فى الكنيسة فى اوقات الصلاة . وقد علمت من قواعد هذه الرهبنة ان الراهبة لايمكنها مخاطبة احد من الناس حتى رئيس الدير اووكيله الا بوجود راهبتين اخريين ، وهذا التدقيق نافع فى منع المحظورات . فأرى اذا استحسنت فلورندا ان نذهب الى ذلك الدير فنقيم انا وهى فى قسم الراهبات ، وانت واخوك فى قسم الرجال ، حتى نرى ما يكون »

فالتفتت فلورندا وقد اشرق وجهها وقالت : « بورك فيك ياخالة ، لقد نطقت بالصواب . هلم بنا الى ذلك الدير . هل هو بعيد من هنا ؟ »

قالت : « لا اظنه يبعد الايوما وبعض اليوم ، وطريقنا اليه غيرمطروق فلا نخاف عينا ولا رصدا . واظنني اعرفه وقد مررت بذلك الدير منذ بضعة اعوام »

قالت فلورندا : « ارى ياخالة قبل كل شيء ان يذهب اجيلابالكتاب الى ابى ، فاذا عاد منه بخير جاءنا الى ذلك الدير » . ثم التفتت فلورندا الى اجيلا وقالت : « سر بحراسة المولى ، ومتى رجعت تعال الى دير الجبل الذى سمعت خبره . واذا استطعت معرفة خبرالامير الفونس فانك اعقل من ان اوصيك بالذى ينبغى ان تفعله »

فانشرح صدراجيلا لهذا الاطراء وانحنى بين يديها وودعهم وانطلق . اما هم فخرجوا من القارب وحمل كل منهم ما يستطيع حمله ، واوغلوا بين التلال والجبال ودليلهم العجوز وهى تسير امامهم كأنها تلتمس منزلا تذهب اليه كل يوم ، فقضوا فى سيرهم عدة ساعات لم يلتقوا فى اثنائها بعابر ولا قاعد ، واكثر التلال التى قطعوها جرداء الا ما كان علي جوانب الاودية من شجر ملتف مهمل ، قلما امتدت اليه يد الانسان . وكانت الامطار قد اغرقتها فى الليل الماضى وغمرتها السيول . فلما اشرقت الشمس فى ذلك الصباح سرى فى الجو بعض الدفء . على ان وعورة الطريق اتعبتهم خصوصا فلورندا لانها لم تتعود هذه المشاق ، ناهيك بما فى قلبها من لواعج الحب وما ينتابها من الهواجس والاشواق

قضوا معظم النهار فى المسير ، وباتوا وشانتيلا حارسهم وعونهم فى كل ما يحتاجون اليه من الطعام ونحوه ، ومشوا معظم اليوم التالى ولا حديث لهم الا تكرار ما فات ، حتى اذا مالت الشمس نحوالاصيل وصلوا الى سفح جبل اطلوا منه على بناء شامخ اشبه بالحصون منه بالاديار ، وظهر لهم لأول وهلة انه على قمة ذلك الجبل . فلما شاهدته العجوز صاحت : « هذا هو ، قد وصلنا ، ولكن لابد لنا من الصعود »

قالت فلورندا : « فلنصعد » ، ولملمت اطراف ثيابها وهرولت اليه مشمرة لشدة رغبتها فى الوصول والاستراحة ، وارسال شانتيلا لاستطلاع الاخبار من طليطلة عن مصير الفونس ، وعن حال اوباس ، ورأى رودريك فى فرارها .. كذلك هرولت العجوز وشانتيلا بين يديهما حتى وصلوا الى الدير . فاذا هو فى ساحة فى سفح ذلك الجبل ، وهو بناء قديم العهد غريب الشكل ، حوله سور من الحجارة

الضخمة الكبيرة عظيم الارتفاع ، ليس فيه من النوافذ سوى شقوق مستطيلة فى اعلاه وباب واحد فى بعض جوانبه ، لا يتناسب صغره مع ضخامة ذلك السور ، وفى اعلاه برج حصين كانه قلعة ، وهو مرقب يقيم فيه حارس الباب

وقفت فلورندا وخالتها وشانتيلا وهم يلهثون من التعب ويعجبون من منظر ذلك الدير . فلما استراحوا قال شانتيلا : « هل تأذن مولاتى بأن اقرع الباب واستأذن فى النزول ؟ » . قالت : « افعل »

فتقدم حتى وقف بالباب فاذا هو مصفح بحديد سميك استدل على سمكه من ضخامة قمم المسامير التى كانت بارزة فوق سطحه ولا يزيد علوه على قامة الانسان الا قليلا . فتفرس فى جوانبه لعله يرى حلقة يدق بها فلم يجد شيئا ، ثم وقع بصره على حبل مرسل من ثقب فى اعلى الباب نحو الخارج فامسكه وشده ، فسمع جرسا يدق فى الداخل فعلم انه قد اصاب المحج . وصبر بعد الدق هنيهة فراى راسا قد اطل من نافذة صغيرة فى البرج المذكور وقد جلله شعر ناصع البياض حتى لم يظهر من وجهه الا أنف بارز وعينان تتلألآن فى غورين ، فوقهما حاجبان بارزان ، وفوق الحاجبين جبين اصبحت غضونه كالميازيب اوالاخاديد !. واطل الشيخ براسه ولبث برهة لايتكلم فلم يصبر شانتيلا على سكوته لعلمه بما الم بفلورندا من التعب فصاح فيه : « اما من مأوى عندكم للغرباء ولو الى حين ؟ »

وما اتم شانتيلا كلامه حتى تراجع الشيخ من النافذة واختفى ولم يبد جوابا . ولم تمض برهة حتى سمعوا قلقلة مفتاح وراء الباب توسموا منها قرب الفرج ــ وطال زمن القلقلة ثم سمعوا صريرا فتدانوا الى الباب يتوقعون فتحة فاذا هو لايزال مقفلا ، فلبثوا ينتظرون ، فعادت القلقلة وعاد الصرير ولكن الباب لم ينفتح فملوا الانتظار ، وخافوا ان يكون وراء ذلك ما يوجب الخوف ، وخصوصا فلورندا فانها كانت واقفة وبصرها ثابت فى ذلك الباب

واما العجوز فقد كانت جالسة على حجر ، وقد ذبلت عيناها من أثر مانالها من التعب حتى كادت تنام ، واذا بصرير عنيف استلفت انتباهها فنظرت فرأت الباب ينفتح بتثاقل كأن فاتحه يجر ثقلاكبيرا ! فظلت فلورندا فى مكانها وتقدم شانتيلا نحو الباب ، فاستقبله ذلك الشيخ وعليه لباس الرهبان فى ابسط احواله ، وهو رداء اشبه شىء بالعباءة يستر بدنه الى الركبة وساقاه عاريتان وقدماه حافيتان وقد اصبح اخمصاهما كالنعال لطول ما مر بهما من مصادمة الاحجار

والاحتكاك بجذوع الاشجار ! . خرج الشيخ الراهب وبيده عكاز اعقف الطرف ، قبض على عقفته بأنامل كأنها عظام عارية قد تصلبت مفاصلها ، ونتأت من قفا الكف حتى اصبح بسطها مستحيلا ، وكأنها خلقت للقبض على ذلك العكاز وما زالت قابضة عليه حتى تصلبت وهي منقبضة !

وكانت تلك العباءة قصيرة الاكمام لا تكاد تصل الى كوع الراهب الذى تعظم جلده وخشن ، حتى تحسبه اذا نظرت اليه كأنه اخمص القدم ــ وكأن الشيخ قضى عمره يدبدب على اخمصيه ومرفقيه

▭

ظل الشيخ واقفا بالباب فأسرع الجميع اليه وأولهم شانتيلا ، فانه نزع قبعته عن راسه وهم بتقبيل يد ذلك الشيخ ، وكذلك فعلت فلورندا وخالتها ، فقال الراهب الشيخ وفي غنة صوته خشونة البرية : « ما الذى جاء بكم الى هذا المكان ؟ »

قال شانتيلا : « جئنا نلتمس البركة من صاحب هذا الدير ، فهل من مانع ؟ » . قال : « كلا . ولكن هذا الدير قسمان : قسم للرهبان، وقسم للراهبات . فأيهما تريدان ؟ » . قال : « كما تستحسنون »

قال : « وعلى كل حال فان ذلك راجع الى راى الرئيس العام » . ثم تحول نحو الداخل واشار اليهم ان يتبعوه فدخلوا فى اثره ، فاذا بالباب يستطرق الى ممر قصير فيه بابان آخران مصفحان بالحديد مثله ، وينتهى الى فناء واسع سقفه القبة الزرقاء . ولم يطأوا الفناء حتى سمعوا الابواب تقفل ، ونظروا الى ما حولهم فرأوا جدران ذلك الدير هائلة الارتفاع ، ووجدوا انفسهم فى باحة مرصوفة بالحجارة الصلبة ، او لعلها من صخر الجبل نفسه ، واحست فلورندا كأنها فى سجن حصين !

وبعد ان مشى بهم الراهب بضع خطوات نحو اليسار انتهى الى باب يلى الجدار الذى دخلوا منه ففتحه وادخلهم فيه ، فاذا هى غرفة تستطرق الى عدة غرف ، فأشار اليها وقال : « هذه دار الاضياف ، اقيموا فيها ريثما اقابل حضرة الرئيس واخبره بأمركم ، فالذى يأمر به صائر » . قال ذلك وتحول يريد الخروج ، فسمعوا جرسا يدق ورأوا الراهب حالما سمع دق الجرس القى العكاز من يده ورسم اشارة الصليب ثم صالب يديه على صدره ووقف وقوف الاحترام ، ففعل الجميع مثل فعله وهم لم يدركوا الغرض ، على ان الراهب ما لبث ان التفت اليهم وهو يقول : « لاسبيل لنا الى مخاطبة الرئيس

الآن لأن الصلاة قد آن وقتها ونزل الجميع الى الكنيسة ، وانا ذاهب ايضا وبعد الصلاة نرى ما يكون »

فلما سمعت فلورندا ذكر الصلاة انشرح صدرها وتذكرت ما كان من صلاتها الحارة منذ بضعة ايام وكيف انقذها الله بها ، فتقدمت الى الراهب وهى تخاطبه بلسانها العذب وصوتها الرخيم : « الا يسوغ لنا حضور القداس واستماع الصلاة يا سيدى ؟ » قال : « الصلاة لا تحتجب عن مسيحى ، والكنيسة لا تقفل ابوابها فى وجه احد »

ثم مشى الراهب امامهم وهم يتبعونه فى وسط تلك الباحة حتى انتهوا فى صدرها الى باب كبير اشتموا قبل الوصول اليه رائحة البخور ، فعلموا انه باب الكنيسة . فتأدبوا ودخلوا منه فى اثر الراهب ، فاطلوا على مذبح فى صدره وقد قسم صحن الكنيسة الى شطرين : شطر للراهبات ، وشطر للرهبان . فهداهم الراهب الى مكان وقفوا فيه لاستماع القداس ، وكانت فلورندا اكثرهم تخشعا ، فكم قرعت صدرها وكم توسلت الى الله والى السيد المسيح ان ينجى خطيبها من المهالك ويعيده اليها سالما . فلما انقضت الصلاة ارفض الجمع فخرج الراهبات من باب ، والرهبان من باب آخر ، وعاد الراهب العجوز بفلورندا وصاحبيها نحو دار الاضياف ، ولحظ وهم خارجون ان فلورندا استخرجت من جيبها نقدا وضعته بين يدى الايقونة التى كانت تصلى امامها ، ورأى النقد اصفر لامعا فاستدل من ذلك على ان الاضياف من اهل الثروة وربما تبرعوا بمال كثير لصندوق الدير ، فرافقهم الى دار الاضياف وهرول راجعا وهو يتوكأ على عصاه حتى اتى الى الرئيس وقص عليه ما كان من قدوم هؤلاء الغرباء الى ان قال : « ويظهر من قيافتهم ولهجة لسانهم انهم من اهل طليطلة، ويؤيد ذلك ما رأيته من كرمهم، فهل تأذن لهم بالمجيء اليك ؟ »

قال الرئيس : « بل أرى ان اذهب انا اليهم »

قال ذلك ونهض وعليه رداء بسيط ايضا ولكنه ارقى حالا من رداء الراهب البواب ، وهو مؤلف من عباءة اطول قليلا من تلك وقد تمنطق عليها بحبل واحتذى نعلا من خشب ، وعلى راسه شبه قبعة سوداء . وكان الرئيس كهلا بادنا ربع القامة ، حسن الطلعة ، صحيح الجسم ، نير البصيرة . وكان كثير المطالعة والبحث فصيح اللسان ، وذلك ما رقاه الى درجة الرياسة وهو كهل وتحت حكمه عشرات من الرهبان معظمهم شيوخ مثل راهبنا العجوز. والارتقاء فى رتب الكهنوت يغلب ان يكون عن اهلية ، خصوصا فى الرهبنات اذ لا تأثير هناك لدالة

القرابة او نفوذ العصبية ، والكل سواء فى الاغتراب والاعتزال . لايتفاضلون بارث ولا بصنيعة ، بل لكل منهم نصيبه من اجتهاده وسعيه واقتداره . فاذا ارتقى راهب الى الرياسة او نحوها مع صغر سنه كان ذلك دليلا على امتيازه عن رفاقه فيما يؤهله الى تلك الرتبة . ويغلب فى هذه الاحوال ان يكون السابق محسودا اومكروها ، اما رئيس دير الجبل فقد كان على الضد من ذلك بالنظر الى ما فطر عليه من اللطف والدعة وكرم الخلق ، بدليل انه لما سئل عن مجيء اولئك الضيوف اليه تبرع بأن يذهب هو اليهم بنفسه مجاملة وتلطفا .

وكانت فلورندا مذ عادت من الكنيسة جالسة على مقعد فى احدى غرف الضيافة وقد هاجت أشجانها ، وتنبه ذهنها للتفكر فى الفونس ، فاستغرقت فى الهواجس والعجوز الى جانبها صامتة لا تتكلم وقد غلب عليها النعاس لفرط التعب . بينما ظل شانتيلا واقفا بالباب ينتظر رجوع الراهب ، وكانت الشمس قد اشرفت على المغيب . ولمغيب الشمس فى الجبال هيبة ورهبة ، خصوصا حيث يقل الناس

□

لم تمض برهة حتى اقبل الرئيس وبيده رق كان يطالع فيه لما كلمه الراهب . فلما رآه شانتيلا مقبلا تأدب فى وقفته ولكن لم يكد يقع نظره عليه حتى توسم فيه رجلا يعرفه ، او انه يشبه رجلا يعرفه ، ولو ان ذاكرته لم تسعفه فى تلك الفرصة الضيقة . فلما دنا الرئيس من دار الاضياف اشار شانتيلا الى فلورندا ينبهها الى مقدمه ، وتقدم هو حتى جثا بين يديه وتناول انامله فقبلها ، والرئيس يظهر عدم ارتياحه الى ذلك المجد الباطل . ولما دنا من الباب خرجت فلورندا لاستقباله وجثت وقبلت يده ، وكذلك فعلت خالتها . وكان الرئيس عندما استقبل الفتاة لم يمعن نظره فيها على جارى العادة ، على انه ما لبث حين جلست بين يديه حتى تذكر انه رآها قبل الآن فقال لها : « لعل هذه السيدة والدتك ؟ »

قالت : « كلا يا مولاى بل هى خالتى » . قالت ذلك واستعاذت بالله من تلك الاسئلة وخافت ان يسألها عن اسمها ونسبها ولامندوحة لها عن الجواب الصريح لانها تكره الكذب كرها شديدا ، وودت لو يوجه الرئيس اسئلته الى شانتيلا لانه اقدر منها على التخلص . على انها تذكرت ما للناس من الثقة فى جماعة الكهنة حتى ليسلمون اليهم اسرارهم بالاعتراف ويقصون عليهم كل ما اقترفوه ولو كان عظيما ،

فهان عليها الامر وعزمت أن تجعل حديثها مع الرئيس من باب الاعتراف اذا رات ما يدعو الى ذلك

مرت كل هذه الخواطر بذهنها فى لحظة ، فلما سالها الرئيس السؤال الثانى كانت قد تهيات للجواب

قال لها : « ومن اين انتم قادمون ؟ »

فالتفتت فلورندا اليه وقالت : « هل يأذن لى حضرة الاب المحترم فى كلمة ارجو ان لا تثقل عليه ؟ » . قال : « كلا . قولى » . قالت : « اذا لم يكن لحضرتكم بد من الاستفهام عن كل ما يتعلق بنا فانى استميح الاذن فى ان تجعل ذلك على سبيل الاعتراف ، لأن فى حكايتنا سرا لايمكن ايداعه عند أحد الا عن هذا السبيل »

فحنى الرئيس راسه وقال : « لايهمنى البحث عن احوالكم الا على امل ان استطيع خدمتكم فى شىء ، فانتم مخيرون فى الكلام أوالسكوت . وفى كل حال فانكم اضياف مكرمون »

فقالت فلورندا وقد اعجبت بلطف الرئيس : « نشكرك فى كل حال ، ولا تقبل مع ذلك الا اطلاعك على سرنا لما توسمناه فيك من اللطف ، ولأن مكاشفة امثالك بالاسرار فرج ورحمة . فهل تقفل الباب ؟ »

ولما سمع شانتيلا كلام فلورندا بعد عن الباب فخف الرئيس بنفسه الى الباب كانه يهم باقفاله ، ولكنه اشار الى العجوز ولسان حاله يقول : « وهل تبقى هذه المراة لسماع الاعتراف ؟ » . فادركت فلورندا قصده وقالت : « ان هذه الخالة مستودع اسرارى فلا بأس من بقائها »

واغلق الرئيس الباب فاظلم المكان فعاد وفتحه ، وصفق فجاء راهب وبيده مصباح مضىء بالزيت فوضعه على مسرجة فى الحائط وانصرف ، فأغلق الرئيس الباب ثانية وجلس ، واصاخ بسمعه لما تريد فلورندا ان تقصه عليه . ولم تكد تبدأ بالحديث حتى اهمه الوقوف على تمامه ، على أنها لم تصرح له بكل شىء وانما قالت له : « نحن من طليطلة ، وقد خرجنا للتخلص من اناس ارادوا اغتيالنا فلم نجد فرجا غير الفرار »

فقال الرئيس : « ولماذا لم تلجاوا الى الملك فانه الموكل بنصرة المظلومين » . فلم تدر فلورندا بماذا تجيب وادرك الرئيس اضطرابها فتوسم شيئا احب ان يقف على حقيقته فقال : « يظهر ان الملك ايضا من جملة ما تخافونه ؟ » . فتصدت العجوز للجواب وقالت : « نعم ، ولماذا الكتمان ؟ بل كل خوفنا من الملك نفسه ! »

فبغتت فلورندا لهذا التصريح ، ولكنها اطمأنت لاعتمادها على سر الاعتراف وهو مقدس لايباح به . ولحظ الرئيس بغتتها فحول وجهه عنها وقال : « ومن هو الرجل الذى جاء معكما ؟ »

قالت فلورندا : « هو من اتباع بعض اهلنا »

فابتسم الرئيس وقال : « اليس هو من اتباع الامير الفونس ؟ ! »

فلما سمعت فلورندا ذكر الفونس احمر وجهها حتى كادت تختنق ، وتلعثم لسانها والتفتت الى خالتها كأنها تتوقع مخرجا من عندها ، فاذا بالعجوز تقول : « بلى يا مولاى انه من خدم الامير الفونس بن غيطشة ملك الاسبان السابق . وهل تعرفه ؟ »

فتحول الرئيس من الابتسام الى الانقباض حالا ولم يستطع التوقف عن الجواب فقال : « نعم اعرف غيطشة واعرف اولاده وكل اهله . ومن من كهنة اسبانيا لا يعرف اخاه الاسقف اوباس ، ومن لم يستفد من عظاته او قدوته أو حكمته او درايته ؟ ذلك الرجل الذى لا اظن الزمان يجود بمثله ، ولكن ! »

فلما سمعت فلورندا اطراءه اوباس اطمأن بالها الى ان الرجل ميال الى حزب الملك السابق فلا خوف منه على سرها . ولكنها لحظت منه انه يحاذر ان يكاشفها بما فى ضميره للسبب الذى تخافه هى من مكاشفته لولا الاعتراف ، فعزمت على استطلاع حقيقة راى الرجل وهى فى مأمن على ما تقوله فى ظل سر الاعتراف فقالت : « الا تدرى اين هو اوباس الآن ؟ » . قال : « كلا . واين هو ؟ » . قالت : « انه سيق الى السجن منذ يومين » . قال : « ومن ساقه ، ومن يتجرأ ان يفعل به ذلك ؟ » . قالت : « ساقه الملك رودريك . بعث الى بيته بكوكبة من الفرسان اخرجوه من فراشه »

فوقف الرئيس مذعورا وظهرت على وجهه امارات الغضب وقال : « ساقوه الى السجن ! امثل اوباس يسجن ؟ ! قبح الله الجهل . ! كيف تجرأوا على مس يده لغير التقبيل ، وكيف خاطبوه بغير الاحترام والتبجيل ؟ ! »

فتحققت فلورندا عند ذلك ان الرئيس من مريدى اوباس واهله ، فتاقت نفسها الى استنجاده او مشورته فى امر الفونس ، ولكنها استحيت فأطرقت ، فتناولت خالتها الحديث نيابة عنها وقالت : « والفونس ؟ هل تعرفه ؟ »

قال : « كيف لا وقد عرفته منذ طفولته ، وكثيرا ما كنا نلتقى به فى طليطلة ايام المواسم والاعياد على عهد المرحوم ابيه »

فوقفت العجوز ونظرت الى الرئيس نظر المتفرس وقالت: « اما وقد برح الخفاء فأخبرك ان الفتاة التي تراها بين يديك هي خطيبة الفونس، فأراد ملك طليطلة ان يحرمه منها بالقوة فقذفه في مهمة الى اقصى بلاد الاسبان. فلما رأت عزمه وفهمت مراده خرجت من قصره فراراً، ثم علمنا ان رودريك القى القبض على اوباس لأنه ساعد في انقاذها من بين مخالبه! هذه واقعة الحال كما هي، وانت وشأنك »

فتفرس الرئيس في فلورندا وقال: « اليست هـذه بنت يوليان حاكم سبتة خطيبة الفونس؟ انى اول الشاهدين على خطبتها، وقد كان اهلها يتحدثون بخطبتها الى الفونس وهما طفلان، ثم خطبها واوباس واسطة ذلك العقد، فكيف يتجرأ رودريك على حله؟! »

فلما سمعت العجوز كلامه تذكرت انها كانت تراه يتردد الى قصر طليطلة على عهد غيطشة بلباس غير هذا اللباس فقالت: « ألست الاب سرجيوس؟ »

قال: « انا سرجيوس، وكنت كاهنا اتردد على طليطلة بالنيابة عن هذا الدير، فلما رأيت الدسائس تتعاظم ضد المرحوم غيطشة ولم اجد سبيلا الى نصرته اقمت في هذا الدير حتى توليت رياسته. ولو اطاعني اوباس لأقمنا هنا معا في امن وسلام ». ثم التفت الرئيس الى فلورندا وقال لها: « كوني مطمئنة يا ابنتي. ان سرك محفوظ في بئر عميقة، واعلمي انى نصيرك ونصير اوباس في كل شيء. سامحه الله كم طلبت اليه ان يدع طليطلة ويأتي الى هذا الدير نعبد الله فيه ونبتعد عن دسائس العالم وشرور أهل المطامع، وعندنا من المؤونة والاموال ما يكفينا طول العمر، ولكنه ابى الا البقاء هناك. واظنه بقي لرعاية ابناء أخيه خصوصا الفونس ». ثم اطرق وهز راسه وقال: « اوباس في السجن الآن؟ »

قالت فلورندا: « علمنا انهم ساقوه الى السجن ولا ندرى اسجنوه ام قتلوه؟ وكان في عزمنا بعد نزولنا في هذا الدير ان نبعث هذا الشاب الى طليطلة يتجسس الاحوال ويعود الينا »

فقطع الرئيس كلامها قائلا: « لا. لايصلح هـذا لذلك، لانهم يعرفونه ويعرفون انه من اتباع الامير الفونس او الاسقف اوباس، وربما قبضوا عليه وسجنوه او قتلوه. دعوا ذلك لي، فقد اصبح البحث في هذا الامر من واجباتي.. كونوا براحة فتاتيكم الاخبار صاغرة ». قال ذلك ونهض وهو يقول: « وقد آن لكم ان تستريحوا من عناء السفر، واعلموا ان الدير ومن فيه تحت اشارتكم لأننا جميعا

صنيعة الملك غيطشة ، ونحن وقف على خدمة ابنه وكل من يلوذ به . فهل تقيمون فى شطر الدير المختص بالراهبات ويبقى خادمكم شانتيلا فى هذا القسم ، ام تفضلون البقاء معا فى هذه الدار ولا ندخل اليها احدا سواكم ؟ »

فنهضت فلورندا وقد احست بحمل ثقيل نزل عن عاتقها وشكرت الله لأنه استجاب صلواتها وعلقت آمالها بقرب الفرج . فأثنت على الرئيس سرجيوس وقبلت يده واستشارت خالتها فى الاقامة فقالت : « ارى البقاء هنا بعيدين عن الناس وشانتيلا معنا حتى نرى مايكون»

فقال الرئيس : « ذلك لكم » . ثم خرج وكان الليل قد أسدل نقابه ، واوقد الرهبان نيرانا فى بعض جوانب تلك الباحة للاستدفاء والاستنارة . وكان شانتيلا قد اختلط بالرهبان وهم يسالونه عن احواله ولا يسمعون منه جوابا مفيدا . فلما خرج الرئيس من دار الاضياف سكنت الغوغاء وتشاغل الرهبان باعداد الطعام ، وبعث الرئيس الى قيم الدير وامره ان يعد للاضياف ما يحتاجون اليه من لوازم الراحة .

صعد الرئيس الى غرفته وهو فى هم من امر اوباس لانه كان يحترمه ويحبه ويغار عليه ككل معارفه لما علمت من تعقله ورزانته وإبائه ، فاخذ يفكر فى سبيل انقاذه . ثم تذكر انه ليس على يقين من حقيقة حاله فعول ان يتولى البحث عن ذلك بنفسه . وكان سرجيوس لم يذهب هذا العام الى طليطلة فى عيد الميلاد لحضور القداس الاعظم وتهنئة الملك لشواغل لم تكن لتقتضى تخلفه لو لم يكن هو ميالا الى الابتعاد عن الملك وحاشيته ، لما فى نفسه من النقمة لغيطشة . فقدكان حاضرا فى المجمع الذى دبر تنصيب رودريك بدله ، ولم يكن ذلك من رايه ولكنهم غلبوه على امره بالاكثرية ، ثم اصبح يخاف التظاهر بما يعتقده لئلا يناله غضب الملك ، ولم يكن يحتمل مشاهدة ما يغاير اعتقاده فجعل قدومه الى طليطلة نادرا . فلما اقبل عيد الميلاد الاخير تعلل بما يمنعه عن القدوم ، فلم ير شيئا مما حدث لاوباس ، ولو كان هناك لشهد محاكمته وسمع حجته ، وان كان حضوره لا ينفع اوباس شيئا لانه لا يستطيع التغلب على حزب الملك وهم الاكثرون

فخطر لسرجيوس ان يذهب الى طليطلة بنفسه فيعتذر للملك عن تخلفه فى العيد ، ولكنه خاف ان يتهمه او يشك فى سبب قدومه ، واول من ينبه شكوكه الآب مرتين لانه لا يغفل عن مثل ذلك . فراى

تأجيل الزيارة الى يوم راس السنة فيذهب لتهنئة الملك بالعيدين ، ولا يكون ثمة ما يدعوه الى الشك فى سبب ذلك القدوم . ولكنه لم يكن يصبر عن استطلاع حال اوباس طول هـذه المدة فعول على ارسال راهب يستطلع ذلك من حاشية الملك من غير ان يشاهد اوباس أو يسمع كلامه

قضى سرجيوس معظم الليل فى أمثال هذه الهواجس ، فلما أصبح بعث الى فلورندا وكانت قد باتت تلك الليلة فى راحة على اثر ماقاسته من تعب البدن واضطراب العواطف ، خصوصا بعد ما آنست من الرئيس سرجيوس مشاركته لها فى شعورها وعزمه على مساعدتها ـ وافاقت فى الصباح على صوت الناقوس فنهضت واخذت تتاهب للذهاب الى الكنيسة ، ولكنها لم تلبث أن سمعت وقع اقدام بجانب غرفتها تخالف وقع خطوات شانتيلا . ثم قرع الباب فنهضت خالتها وفتحته فرات راهبا لم تعرفه فسألته عن غرضه فقال : « ان حضرة الرئيس يدعوكما اليه »

فمضتا والراهب يسير امامهما وفلورندا تقول فى نفسها : « لم تنقض ايام شقائى بعد ، أظن الرئيس غير عزمه على مساعدتى »

ومشى بهما الراهب فى تلك الباحة حتى دار من وراء الكنيسة الى درجات صعدوا عليها الى حجرة طرق الراهب بابها ودخل قبل ان يؤذن له بالدخول ، ثم عاد ودعا فلورندا وخالتها فدخلتا فاذا هما فى غرفة بسيطة الأثاث حسنة الترتيب ، فى جدرانها اصناف من صور القديسين مختلفة الاشكال والاحجام ، وفيها صور كبيرة الحجم من صنع مصورى رومية تمثل اهم حوادث الانجيل مثل ولادة المسيح فى بيت لحم ، وتعميده فى النهر ، وصلبه وصعوده الى السماء . فلما اطلت فلورندا على الغرفة انشرح صدرها لتلك المناظر وتاثرت لها تأثرا عظيما لما فطرت عليه من التقوى والورع ، وقد زادتها المصائب تمسكا بحبل الدين ، فتخشعت عند دخولها تلك الغرفة مثل تخشعها عند دخول الكنيسة ، فخف الرئيس لاستقبالها ودعاها الى الجلوس فلم تتمالك قبل الجلوس من تقبيل ايقونة للمسيح المصلوب كانت قريبة منها ، ثم جلست فابتدرها الرئيس قائلا : « لم يبق بيننا حجاب وقد اطلع كل منا على أسرار الآخر فلنبسط الكلام صريحا . وعدتك يا فلورندا ان استطلع لك حال اوباس ، وكنت عازما ان أتولى ذلك بنفسى ثم خطر لى ان ذهابى الى طليطلة اليوم بعد ان تخلفت عن حفلة العيد يدعو الى الشك ، وربما آل الى عرقلة مساعينا ،

فرايت ان أؤجل ذهابي الى راس السنة وهو قريب ، فما قولك ؟ ! »
فخفق قلب فلورندا وعدت ذلك التأجيل فاتحة العراقيل وبدا اثر ذلك في وجهها ، ولم يخف اضطرابها على الرئيس فاستأنف الكلام قائلا : « ولكنني مرسل احد الرهبان اليوم ليتفقد الحالة من حاشية رودريك ، فاذا اطلعنا عليها ساعدنا ذلك على تدبير الوسائل قبل ذهابي الى طليطلة »

فاطمأن بال فلورندا واكتفت بانتداب الراهب وارادت ان تبين له ما تود الاطلاع عليه من امر الفونس فضلا عن اوباس ، وانها تريد ان تعرف راى رودريك في فرارها وهل هو جاد في البحث عنها ، ولكن الحياء منعها من الكلام في هذا الشأن صراحة فقالت : « اذا كان الراهب الذي ستنتدبه نبيها واتانا بالتفصيل اللازم كان ذلك خيرا من ذهاب حضرتك قبل الاطلاع على شيء » . فقال الرئيس : « فلنبحث فيما يطلب الاطلاع عليه »

فقالت العجوز : « لا اخفى على مولاى الرئيس المحترم ان اهم النقط التي يطلب البحث عنها انما هي اوباس وحاله ، ثم يهمنا الاطلاع على راى رودريك في فرارنا لاننا فررنا من قصره رغم انفه . ثم نحب الاطلاع على المكان الذي بعث اليه الامير الفونس » . قال : « فهمت المطلوب وسأوصي الرسول به ونظنه يعود الينا بالخبر اليقين » . فنهضت فلورندا وقبلت يد الرئيس وكذلك فعلت العجوز ، واستأذنتا في الذهاب رغبة في تفرغ سرجيوس لقضاء تلك المهمة . فاذن لهما فانصرفتا . اما هو فانه صفق فجاءه الراهب الذي يتولى خدمته ، فأمره ان يدعو راهبا سماه ، وكان له به ثقة كبرى وكثيرا ما كان يكاشفه بما في نفسه ضد رودريك فلما جاء أوصاه بما يطلب الاطلاع عليه واستحثه ان يسرع في الرجوع

وسافر الراهب على دابة من دواب الدير وعليها « الخرج » كأنه منصرف الى المدينة على نية الاستبضاع مما يحتاج اليه اهل الدير من الادوات والامتعة . وكانت عادة ذلك الدير ان يرسل رسولا لمثل هذا الشأن مرتين او ثلاثا كل سنة ، والغالب ان يكون ذلك في الصيف لانهم يفضلون السكن في الشتاء كما يفعل سائر اهل الجبال . على ان ذلك لا يمنع شخوصهم الى المدن في هذا الفصل

وقضى الراهب في مهمته خمسة ايام عاد في نهايتها . وكانت فلورندا قد ملت الانتظار وحسبت تلك الايام أجيالا . وكانت في اثناء الانتظار تصعد مع خالتها وشانتيلا الى سطح الدير تشرف منه على الاودية

والتلال لعلها تجد الرسول عائدا . واتفق صفاء الجو وامساك المطر كل تلك المدة فكانوا اذا جلسوا على السطح اطلوا على جبال اكثرها عار من النبات الاخضر ، وبعض رؤوسها وكهوفها مكسو بالثلج ، وكانوا يشاهدون الضباب فى كل صباح يغشى الاودية يحسبه الناظر بحرا تتلاطم امواجه ، ويحسب ما يبرز فى وسطه من قمم الجبال جزرا يفصل الماء بينها ، فاذا حمى الجو قبل الظهر عاد الضباب بخارا وعادت الجزر جبالا ! فكانت فلورندا تعلل نفسها فى اثناء تسلط الضباب ان يكون الرسول على مقربة والضباب يحجبه عن بصرها . وكانت تستأنس بذلك الشيخ الهرم بواب الدير لان غرفته او برجه يستطرق الى السطح فكان يخرج فى بعض الاحيان ليجالسها ويقص عليها ما مر به من الغرائب فى اثناء عمره الطويل فتستريح الى سماع حديثه ، لانه على شيخوخته لم يكن يكثر الكلام الذى لا يلذ السامعين ولو كانوا شبانا

ففى اصيل اليوم الخامس رات وهى على السطح راكبا اطل من بين اكمتين لم يكد بصرها يقع عليه حتى علمت انه الراهب الرسول ، فخفق قلبها ونادت خالتها قائلة : « ها قد اتى فلنمض الى الرئيس لنسمع حديثه » . قالت : « هلم بنا اليه » . وتحولتا نحو غرفة الرئيس وكان جالسا ببابها يطالع فى درج باللاتينية . فلما راى فلورندا والعجوز قادمتين نهض لهما ورحب بهما فقرا على محيا فلورندا امارات الدهشة والقلق ، فادرك انها تكتم شيئا فقال لها : « خيرا يا بنية ، ما الذى حدث ؟ » . قالت : « ارى رسولك قادما فاستدعه لنسمع حديثه » . قال : « وهل اتى ..؟ انى اشد قلقا منك فى انتظاره ، ولا اقلب هذه الكتب الا تعللا وتشاغلا » . ونهض لساعته واوصى خادمه ان يسرع فى استقدام الرسول ، فهرول الرجل وعاد بعد قليل والرسول فى اثره وهو لا يزال يعلو وجهه وثيابه غبار السفر . فلما وصل سلم وبارك وجلس ، فقال له الرئيس : « قص علينا ما رايته على عجل ، وابدا بأوباس »

فقال الراهب : « اما حضرة الاسقف فانه مسجون فى حجرة على حدة » . قال : « وما سبب سجنه ؟ » . قال : « اتهموه بالتآمر على خلع الملك وحاكموه فى مجمع الاساقفة » . فقطع الرئيس كلامه قائلا : « وكيف ذلك ولم نسمع بالتئام المجمع » . قال : « فعلوا ذلك التماسا للسرعة ، فالف الملك مجمعا من الاساقفة كانوا فى طليطلة يوم العيد »

قال : « وماذا كانت نتيجة المحاكمة ؟ » . قال : « لا ادرى ولكنى سمعت ان الاسقف ابدى من البسالة والحمية فى اثناء المحاكمة ما افحم به خصومه »

وكانت فلورندا تتطاول بعنقها لسماع اقوال الراهب وتود الوصول الى خبر الفونس

فقال الرئيس : « وهل تظن تلك التهمة فى محلها ؟ » . قال : « هل اقول كل ما سمعته ؟ » . قال : « نعم قل » . قال : «بلغنى من اهل القصر الملوكى ان لمحاكمة اوباس سببا سريا لم يطلع عليه الا نفر قليلون ! » . فقال : « وما ذلك ؟ » . قال : «بلغنى ان الامير الفونس كان خاطبا فتاة من اهل القصر الملوكى ، وان رودريك ارادها لنفسه ، فوبخه اوباس على ذلك ، فغضب عليه واراد الانتقام منه ! » . قال الرئيس : « وماذا تم فى امر الفونس وخطيبته ؟ » . قال : «اما الفونس فقد ارسله الملك فى مهمة حربية الى بلد بعيد ليخلو له الجو بعده ، فكان ذلك سببا لتدخل اوباس . اما الخطيبة فقد بلغنى انها فرت من طليطلة والناس يستغربون فرارها من القصر الذى كانت فيه والحراس من حوله . واما الملك فقد اشتد غضبه على تلك الفتاة وعول على الانتقام منها حالما يظفر بها ! »

فقالت العجوز : « وكيف يظفر بها واين هى ؟ ! »

ولا نظن الراهب لم يلحظ من قرائن الاحوال ان فلورندا هى الخطيبة الفارة ولكنه تجاهل مجاراة لما اراده الرئيس فقال : « اكد لى العارفون ان الملك ربط عليها الطرق واقام الأرصاد ، وبث العيون فى كل انحاء المملكة ، ولا يكاد يمر يوم الا ويحملون الى قصره فتاة او فتيات ممن يعثرن عليهن فى اثناء التفتيش ، فاذا وقع بصره عليهن اطلق سراحهن اذ لا يرى تلك الفتاة بينهن ! »

فلما سمعت فلورندا ذلك اضطرب قلبها لأول وهلة ثم شكرت الله لدخولها هذا الدير وتوفقها الى ذلك الرئيس المحب ، وعولت على البقاء هناك حتى يعود اجيلا من عند والدها . ولكنها احبت السؤال عن مقر الفونس فأومأت الى خالتها ان تسأل عنه فقالت : «وهل عرفت المكان الذى ذهب اليه الامير الفونس ؟ » . قال : « لم استطع الوقوف عليه صريحا ولكننى سمعت ان الملك انفذه مع فرقة من الجند الى استجة ، ولم اتحقق تماما لانى لم ادقق فى البحث عنه »

فأومأ الرئيس الى فلورندا ان تكتفى بما تقدم ريثما يتوفق هو للذهاب الى طليطلة والبحث عن كل ذلك . فسكتت ثم وقف الرئيس

وصلى صلاة وجيزة ، فلما فرغ انصرفت فلورندا وهى غارقة فى لجج التأمل لما سمعته عن اوباس وسجنه ، وعن تشديد رودريك فى البحث عنها ، فلم تر مندوحة عن البقاء مستترة فى ذلك الدير لترى مايأتى به القدر ، معللة نفسها بالاطلاع على تفاصيل اخرى بعد رجوع الرئيس من طليطلة .

ولكن الطبيعة ابت الا معاكستها فتغير الطقس وتوالت الامطار وتكاثرت الثلوج حتى سدت طرق الجبال وانقطعت السابلة فمنعت الرئيس من السفر اياما عديدة وهو قاعد على مثل الجمر ، فكيف بفلورندا والجمر يتقد فى قلبها وفى راسها . خصوصا بعد ان مضى شهر وبعض الشهر ولم يرجع اجيلا من مهمته الى والدها

وكان الرئيس يتردد اليها فيطمئنها ويعدها خيرا ويريها ابواب الفرج لثقته الكبرى بتعقل اوباس وحسن درايته وعظم سطوته على العقول والقلوب . ولم تكن هى اقل اعجابا به لأنها شبت لا تسمع اسمه الا مشفوعا بعبارات الاطراء والتبجيل حتى خيل لها انه قادر على كل شىء ، ولم تصدق ان احدا يستطيع اذيته او التغلب على رايه ! وكان سرجيوس يعمل فكرته فى طريقة لاخراج اوباس من السجن ، فاذا خرج جاء الى الدير واقام فيه بسلام . ولكنه لم يهتد الى شىء ، لما بلغه من تشديد الملك فى الاحتفاظ به والسهر على حراسته

□

وافاقت فلورندا ذات صباح من اواخر فبراير على هبوب العواصف وانهمار المطر واكثره من الثلج او البرد . واشتدت الأنواء والرعود والبروق نحو ساعتين ، ثم انقطع حبل الغيث وسكنت الرياح بغتة — وتلك عادة هذا الشهر فى البلاد المعتدلة فان الجو يتقلب فى اليوم الواحد من ايامه تقلبات شتى ، بين صحو ومطر ونوء وصفاء — فلما كفت الامطار اطلت فلورندا من باب الغرفة فاذا بفناء الدير قد غمرته الثلوج الى باب غرفتها ومع ذلك اشرقت الشمس على ذلك الثلج فتكسرت اشعتها عليه وانحل النور فى بعض الاخاديد فبدا الطيف الشمسى بالوان قوس قزح . فوقفت فلورندا وهى تتامل ذلك المنظر الجميل ، ثم ما لبثت أن رات الرهبان يتقاطرون من كل جانب وفى ايديهم المجارف والمعاول واخذوا فى جرف الثلج وحمله الى الخارج ، وبينهم الراهب الشيخ صاحب الباب ، وقد استبدل بالعكاز مجرفة يجرف بها الثلج بنشاط الشباب ، وكان فوق ذلك لا يزال عارى الساقين والزندين وقد اكتفى من وسائل الدفء بلف

شملة من الصوف حول صدغيه واذنيه . ورأت شانتيـلا كذلك يشتغل معهم . فلم تمض برهة حتى نظفت الباحة وكان بعضهم يجرف الثلج عن السطح ايضا ، فلما فرغوا خرجت فلورندا وبربارة وصعدتا الى السطح واطلتا على الجبال على سبيل الفرجة . ولم تمض برهة حتى أثر الزمهرير فى فلورندا ولم يغنها القباء ولا الكساء، ثم تغير وجه السماء بغتة وتكاثفت الغيوم واوشكت السماء ان تمطر فهمت فلورندا بالرجوع ، فرات الشيخ الراهب فى باب حجرته على السطح وهو يشير اليها ان تأتى اليه ، فتحولت وتبعتها خالتها حتى اقبلتا على الغرفة واذا هناك نار فى اناء يشبه الموقدة فى بعض جوانب الحجرة . فلما دخلت احست بالدفء وشعرت بلذة غريبة . فقال لها الراهب اجلسى يا بنية وتدفئى فان البرد شديد جدا اليوم . فجلست وخالتها الى جانبها . واتفق جلوسهما بجانب النافذة ، فاخذ الراهب يقص على ضيفتيه احاديث شبابه وكهولته على سبيل التسلية ، والخالة العجوز تشاركه فى تحقيق بعض النقط وان كانت هى اصغر منه سنا

وكانت فلورندا فى أثناء ذلك تنظر من تلك النافذة الى ضواحى الدير ، فاذا هناك دابة تمشى صاعدة نحـو الدير وعليهـا راكب ، فأمعنت النظر فيه وصاحت قائلة : « اجيلا ، اجيلا ! » فلما سمع الراهب قولها نظر الى القادم ولم يكن يعرفه فقال : « ومن هـذا يا بنية ؟ ! »

قالت : « هو رسول ارسلناه فى مهمة وقد عاد الينا ، فهل تسرع فى فتح الباب له حتى لا يضر به البرد ؟ »

فقال : « سمعا وطاعة ! » وتناول عكازه وتحول نازلا وظلت فلورندا وخالتها مطلتين من النافذة لتحققا امره فاذا هو اجيلا بعينه على جواد . ولما دنا من الدير وقف الجواد واجيلا ينظر الى الدير ويضحك ضحكا شديدا . فلما رأته فلورندا يضحك استبشرت وانبسطت نفسها ولم تتمالك ان نادته قائلة : « اجيلا » فلم تسمع منه جوابا ، فظنت هبوب الريح اضاع صوتها قبل وصوله اليه ، ثم رات الراهب الشيخ قد خرج من الدير ، حتى اذا اقبل عليه شهر عكازه واخذ فى ضربه ضربا عنيفا واجيلا لايتحرك ، والراهب يزداد عنفا بالضرب ويصيح ويستغيث بالرهبان الآخرين ، فخرج اثنان منهم وفى يد كل منهما عصا غليظة فأمسك احدهما بزمام الفرس وعمل الآخر على ضرب الراكب حيثما اتفق وهو ساكت ، فاستغربت فلورندا ذلك

وتولتها الدهشة لما راته من خشونة ذلك الضرب لغير سبب يدعو اليه ، فجعلت تصيح بالرهبان تستمهلهم وتستفهم عن سبب اعتدائهم وهم لا يبالون بكلامها ، فغضبت وتحولت من تلك الغرفة تريد غرفة الرئيس لتشكو اليه قسوة رهبانه ، وسارت الخالة فى اثرها حتى اذا نزلتا الى باحة الدير قالت فلورندا لخالتها : « اذهبى انت الى الرئيس وانا أخرج لمخاطبة اولئك الرهبان » . ثم نادت شانتيلا فلم تسمع جوابا فاسرعت الى باب الدير حتى خرجت منه فرات شانتيلا عاملا مع الرهبان على ضرب اخيه ايضا وقد انزلوه عن الفرس وامسك احدهم برجليه وآخر بيديه وأخذ الباقون يضربونه على القدمين والكتفين ضربا موجعا ، فازدادت فلورندا دهشة واستغرابا وصاحت : « شانتيلا ، ما هذا العمل ؟ » . ولكنه لم يرد عليها ، وبعد هنيهة راتهم هموا باجيلا فحملوه واسرعوا به الى الدير لايبدى حراكا فظنته مات من شدة الضرب ، فكادت تبكى لغيظها واسفها. ولكن الاستغراب ظل غالبا عليها فلما دخلوا به سارت هى فى اثرهم فصعدوا الى غرفة صاحب الباب فتعقبتهم وهى لا تجسر على الكلام لئلا يصيبها حظ من ذلك الضرب ، ولكنها كانت تتلفت يمينا وشمالا لعلها تجد الرئيس قادما لتستنجده او تستفهمه ، واذا به مسرع على السطح من جهة اخرى والعجوز فى اثره وهى تشير الى فلورندا ان تطمئن

فاسرعت فلورندا الى الرئيس وسالته عن سبب ذلك فقال : « لا تجزعى ، فانهم انما يفعلون ذلك لحفظ حياته ! »

قالت : « كيف يحفظون حياته وقد اماتوه من الضرب ؟ ! »

فضحك الرئيس وقال : « يظهر انك لم تسمعى (بالدنق) ! »

قالت : « وما الدنق يا مولاى ؟ »

قال : « هو الموت من البرد الشديد ؟ فالظاهر أن رسولك هذا اوشك ان يدنق من البرد ، فعمدوا الى ضربه ليتحرك دمه وتعود اليه الحرارة فلا يموت »

قالت : « لم يكن يشكو من برد مطلقا بل رايته يضحك سرورا »

فضحك الرئيس حتى قهقه وقال : « ان الضحك فى البرد من علامات الدنق ! » قال ذلك ودخل الحجرة وهو يقول : « اسقوه قليلا من الخمر وادنوه من النار »

فاسرع الراهب صاحب الباب الى ابريق فى بعض اركان الحجرة صب منه فى كاس ودنا من الرجل ، وتقدمت فلورندا نحوه أيضا

وتفرست فى وجهه فراته قد فتح عينيه ولكنه لا يزال منحل القوى، فتحققت ما قاله الرئيس وشكرت الله على نجاته

□

قضوا ساعة فى معالجة اجيلا بالدفء وشرب المنبهات حتى صحا وعاد الى رشده ، فاستأذنت فلورندا فى نقله معها الى دار الاضياف فاذن لها ، فنزلت به ومعها شانتيلا والخالة . فلما استقروا فى الغرفة سألته عن سبب غيابه فاخبرها انه قاسى فى اثناء رجوعه عذابا اليما من مقاومة الطبيعة وارصاد رودريك حتى اضطر ان ينام فى النهار ويسافر بالليل خوفا من ان يقع كتاب يوليان فى ايديهم ، وهذا هو السبب فى وصوله على هذه الحالة من البرد الشديد حتى كاد يموت

ثم سألته عن والدها فقص عليها ما كان من وصوله اليه وما أصابه من الغيظ واليأس لما قرأ كتابها الى ان قال : « وقد صمم على الانتقام من رودريك انتقاما لم يسبق له مثيل فى تاريخ الأسبان »

ثم أخبرها عن اتفاق والدها مع جند العرب على المسير معهم الى اسبانيا ليكون عونا لهم على فتحها كلها ، ومد يده الى جيبه واستخرج انبوبا مختوما سلمه اليها ففضته فرات فيه لفافة من القباطى ، وهو نسيج مصرى قديم ، ففتحها فاذا هى كتاب من والدها اليها ، فحالما رات خط يده خفق قلبها وتذكرت حنوه فدمعت عيناها ، ولم تستطع قراءة ذلك الكتاب الا بعد أن سكن جاشها ومسحت دموعها ثم تناولت الكتاب وقرأته فاذا فيه :

« من الكونت يوليان الى ابنته الحبيبة فلورندا . باسم الأب والابن والروح القدس . قرأت كتابك ايتها العزيزة فسبقتنى الدموع الى تفهمه ، لما هاجه لى من المصائب الكامنة . وقد ساءني ما اقترفه ذلك الوحش الكاسر من الاساءة الى الدين والى الفضيلة والى يوليان . اما الاولان فالله كفيل بالقصاص لهما . واما ما أراده من مس عرضى فانا اتولى الانتقام له بنفسى . وابشرى فانتى حامل عليه وعلى بلاده بجند من العرب لا شك ان الله ناصرهم على ذلك الخائن ، لما نعلمه من غضب الأسبان والقوط عليه . وان العمل الذى اشرت اليه فى كتابك يكفى وحده لغضب السموات والارض على ذلك الدخيل فى القوطية. ولا أطيل الشرح لان ناقل هذا الكتاب يوضح ما يشكل عليك ، وانما كتبت هذه الاسطر تثبيتا لاقواله ولكى ابشرك بالفرج القريب . وسوف ترين رودريك الخائن قتيلا مضرجا ، او اسيرا مكبلا ، فامكثى

حيث تستأمنين حتى آتي اليك . واذا اعوزك الوصول الى فانا مع كبير جند العرب حيثما يكون ، والسلام .. كتب فى سبتة »

فلما وصلت الى آخره لم تتمالك أن نهضت تريد الرئيس وكان قد ذهب الى غرفته فسارت وحدها وهى لاتفقه ما تمر به لفرط تأثرها من ذلك الخبر المفاجيء وقلبها يرقص طربا لما حواه ذلك الكتاب من بشائر الانتقام ، والانتقام من اقوى ملذات الانسان ، فلما اقبلت على الرئيس انكر ما يبدو فى محياها من آثار البغتة مع شيء من الخفة فوقف لها فدخلت فحيته وقالت : « جئتك بأمرذى بال وفيه القضاء المبرم على رودريك ! »

فانذهل لتلك المباغتة وقال : « وما ذلك ؟ » . قالت : « ان الشاب الذى وصل فى هذا الصباح وكاد يموت من البرد انما هو رسول كنت بعثت به الى والدى فى سبتة وبعثت معه كتابا مختصرا شكوت فيه ما اصابنى من رودريك ، فعاد الرسول اليوم بهذا الكتاب » . ومدت يدها ، واستخرجت الكتاب ودفعته الى الرئيس ، فتناوله وقراه وهو لا يصدق انه فى اليقظة ، واعاد قراءته ثانية وثالثة وفلورندا صامتة تتوقع ما يبدو منه . فلما تفهمه جيدا رفع بصره اليها وقال : « ان والدك سيعمل عملا يغير به وجه هذه الجزيرة ، سيعمل عملا يقضي به على هذه الدولة . وسيعلم رودريك عاقبة ما كان من خرقه حرمة الدين ، نعوذ بالله من غضب الله ! » . وصمت برهة ثم قال : « وهل نقل الرسول اليك شيئا من التفاصيل ؟ »

قالت : « اخبرنى ببعض الشيء ولم استطع صبرا على نقل هذا الخبر اليك ، فاذا أذنت بعثنا الى اجيلا يقص علينا ما شاهده بعينيه » . قال : «أحب سماع ذلك» ثم صفق فجاء خادمه فقال : « الى بالرجل الذى جاءنا هذا الصباح وهو فى دار الأضياف »

فمضى الرجل وعاد باجيلا فانحنى هذا امام الرئيس وقبل يده ثم جلس متأدبا فجعل الرئيس يساله عما شاهده بعينه ، فقص عليه ما عاينه من شجاعة العرب واتحاد كلمتهم ، وصبرهم فى الحرب ، ومواظبتهم على الصلاة ، وطاعتهم لرؤسائهم ، الى أن قال : « وزد على ذلك أن مولاى الكونت يوليان عون لهم فى ارشادهم الى المسالك علاوة على ماسيلقونه من مساعدة اليهود المتسترين بأثواب النصرانية ، وهؤلاء لا يدخرون وسعا فى نصرة اى داخل كان ، لانهم يكرهون هذا الملك ويكرهون حكومته لما يقاسونه فيها من الاحتقار والذل »

فلما سمع الرئيس ذلك هز راسه وقال فى نفسه : « قد انقضت

دولة هذا الباغي ، وربما انقضت بانقضائها دولة القوط كلها ! » .
ثم التفت الى فلورندا وقال : « فاذا ذهبت الآن الى اوباس اخبرته بهذا الخبر الجديد ، وأطلعته على هذا الكتاب ، ولا اظن اهل البلاط قد علموا به بعد . ثم نحتال فى اخراجه من سجنه ونأتى به الى هذا الدير يقيم فيه معنا . وطالما كان أبوك مع العرب فنحن فى مأمن منهم اذا هم غلبوا . واذا غلبوا فلا يكون علينا بأس من رودريك لاننا لم نتعرض لحربه »

فتضاعف سرور فلورندا لما سمعت عزم الرئيس على استقدام اوباس اليه . وبعد بضعة ايام ذابت الثلوج وانكشفت الطرق ، فركب سرجيوس بغلته ومشى خادمه فى ركابه الى طليطلة

— ٩ —

اما رودريك فقد جاءه كتاب من صاحب بوتيكة ينبئه بنزول العرب بلاده فأطلع الاب مرتين عليه قبل عرضه على رجال دولته ، فأوهمه الاب المذكور ان العرب انما يريدون الغزو لا الفتح ، فاذا اصابوا غنيمة عادوا على اعقابهم ، وانهم لا يجسرون على مناواة ملك القوط ، وكثيرا ما كان العرب يسطون على ما يلى مملكتهم من الثغور فيغزون البلاد ويعودون بما يقع فى ايديهم من ماشية او نحوها ، فارتاح رودريك لذلك الراى لقربه من المعقول ولم يطلع رجال حكومته على الكتاب . ثم جاء من طليطلة بعض الذين شاهدوا العرب بخيلهم وابلهم وقد ملكوا الجبل « جبل طارق » ومعهم يوليان صاحب سبتة يدلهم على عورات البلاد ويسهل عليهم الفتح ، واخبروا قائد الجند العام بذلك

وكان قائد جند رودريك رجلا باسلا دموى المزاج حاده ، اسمه الكونت كوميس له عند رودريك وجاهة وسطوة ، وكان قد لحظ فيه ميلا الى فلورندا فنصح له ان يتركها ، فلم يكترث بقوله، فتركه وشأنه وفى نفسه شيء عليه . فلما سمع بفرار الفتاة ومحاكمة اوباس نصح له سرا ان يعدل عن محاكمة هذا الرجل لئلا يفضحه . وكان من جملة نصائحه له الا يصغى كبير اصغاء الى مرتين وغيره من جماعة الاكليروس . فلما جاءه الخبر بنزول العرب اسبانيا ومعهم يوليان زاده ذلك جراة على رودريك واستخفافا به ، واستغرب كتمانه نزول العرب عنه ، وكان يستبعد الا يكون عالما بنزولهم . فذهب اليه ذات

صباح وهو فى مجلس حضره كبار الموظفين . وكان اصحاب مناصب الدولة الكبرى عند القوط لايزيدون على عشرة ، منهم : ناظر الاراضى الملوكية واسمه « كونت الوطن » ورئيس الاصطبلات ويسمى «كونت الاصطبل » وكاتب سر المملكة واسمه « كونت السجلات » ورئيس القضاة وهو « كونت النعم » وقائد الجند ، وصاحب الخزانة ، وقيم القصر الملوكى . ومن اصحاب رتبة الكونتية عندهم رئيس السقاة ونحوه ممن يخدمون الملك

كان مجلس الملك حافلا بهؤلاء والأب مرتين بجانبه ، فدخل الكونت كوميس وسلم كالعادة وامارات الغضب بادية فى وجهه ، وبعد ان استقر به الجلوس سال الملك اذا كان قد بلغه شىء من اخبار بوتيكة. فقال الملك : « لا ادرى .. وهل سمعت شيئا مهما ؟ » . قال بصوت خشن : « سالت جلالة الملك هل جاءه خبر مهم من تلك المقاطعة ؟ »

فغضب رودريك لهذه المراجعة بما فيها من الجسارة والقحة فقال : « ما معنى هذه المراجعة بعد ما سمعته من جوابى ؟ » . واعتدل وتصدر وجعل يلاعب شعر راسه المرسل على كتفيه ، وقد بدا الغضب فى عينيه واصبح سائر الكونتية ينظر بعضهم الى بعض، والى كوميس ورودريك ، ويتساءلون عن سبب هذه الجسارة

اما كوميس فلما راى الحضور ينتظرون ما يقوله وقد شخصت ابصارهم نحوه بعدما ابداه رودريك من الجفاء عظم الامر عليه ، وقواد الجند من اعظم الناس انفة وشدة خصوصا فى ذلك العصر الذى كانت الكلمة النافذة فيه لصاحب الجند القوى ، وكان كوميس فوق كل ذلك قد غلب على راى الملك لما علمه من تهوره فى مسالة فلوراندا واوباس ، فلما سمع كلامه بتلك اللهجة الشديدة قال : « اظن جلالة الملك لايجهل معنى سؤالى ولو تجاهله [illegible] معنى سؤالى ايها الملك انه حدث فى المملكة ما يدعو الى اطلاعنا عليه وقد كتمته . وهو من الاهمية بحيث يجعل المملكة فى خطر ! »

فضج الحاضرون ومالوا الى الاطلاع على جلية الخبر ، فلم يكن من الأب مرتين الا انه وقف بهيئته المعهودة وتولى الجواب عن الملك ووجه خطابه الى كوميس قائلا وهو يتكلف التانى ويظهر الاستخفاف : « اظنك تعنى ما جاء من امر اولئك العربان الذين نزلوا سواحل بوتيكة ! فهؤلاء انما نزلوا للغزو والنهب ولا يلبثون أن يرجعوا الى بلادهم . ولو كان هذا الخبر مهما لعرضه جلالته على مجلس الاساقفة »

وكان كوميس يحتقر الأب مرتين ولا يعبأ باقواله فوجه جوابه الى الملك وقال : « اما الاستخفاف بأولئك العربان فمن الخطأ الفادح ، خصوصا اذا عرف جلالته انهم قادمون ورائدهم الكونت يوليان صاحب سبتة ، واما اطلاع المجمع المقدس على امثال هذه الاخبار قبلنا فللملك الرأى فيه . ولكننى أظن قائد الجند اولى بالاطلاع على ذلك من سواه لأن عليه حماية المملكة ، واما السادة الاساقفة فما عليهم الا الصوم والصلاة ! » . وكان يتكلم والتهكم ظاهر فى كل عباراته ، فلم يشأ أحد من الحضور الدخول فى هذا البحث لدقته ، وفيهم من ادرك اشارة كوميس الى يوليان صاحب سبتة وما وراء ذلك من التعريض والتلميح ، ولكنهم ظلوا ساكتين

اما الملك فاشتد غضبه واحس بما رماه به كوميس من السهام الحادة ، وادرك خطورة المركز الذى وصل اليه وانه فى حاجة الى قائد الجند أكثر منه الى سائر رجال الدولة ، ولكن عظم عليه الاغضاء بعد مباداته بالجفاء فقال له : « لم يكن يليق بك ياحضرة الكونت ان تخاطبنى بمثل هذا الكلام ، بل كان الاولى بك أن تأتينى من طريق آخر »

قال : « ان الملك لم يترك لنا سبيلا نأتيه منه ، وقد جعل هذا القسيس لسان حاله والمتكلم عنه ، والكل يعلمون ان هذا وامثاله لا يصلحون لغير العبادة ، وقد جعلهم الملك شركاءه فى مهام المملكة ، ولو اخلصوا له النصيحة لما بلغت بنا الحال الى هذا الحد »

ولا يخفى ان مثل هذا التصريح فى ذلك العصر خصوصا فى طليطلة كان يعد ضربا من الكفر لما علمناه من سطوة الاكليروس هناك ، ولولا تغلب الحدة على ذلك القائد لم يصرح بما صرح به . ففتح بهذه الجسارة بابا لاستقواء رودريك عليه فاستعلى بحجته وحول وجهة الكلام الى الدفاع عن الاساقفة ، وقد اراد بذلك أن يغطى خطاه فقال : « ألم تكتف بالجسارة على مقام الملك حتى تجاسرت على مقام الاساقفة . ان ذلك خارج عن حدود منصبك »

وكان الأب مرتين يرتعد من شدة الغضب فلما رأى الملك لا يزال على ثباته تعرض وخاطب كوميس قائلا : « ولا اظنك تجهل ياحضرة الكونت ان كلمة من جلالة الملك او من احد الاساقفة تكفى لتجريدك من هذا المنصب ! »

ولم يكن كوميس يتوقع هذا الاستخفاف من الملك نفسه فكيف من ذلك القسيس فوقف ويده على قبضة سيفه وقال : « لقد

خسرتم بهذا الكلام وهذه المعاملة سيف كوميس ، وانتم فى اشد الحاجة اليه » . وخرج وقد اخذ منه الغضب ماخذا عظيما !

اما رودريك فقد كان يجادل هذا القائد مدافعة ولم يكن يريد ان يغضبه فى هذا المقام ، ولذلك ساءته عبارة مرتين اكثر مما ساءت كوميس . ولم يجسر احد من الحضور على التوسط فى الامر لئلا يتعاظم الخصام وقد وقع ما تخوفوه . ثم وقف الملك فعلموا انه يريد فض الجلسة فخرجوا الا مرتين . فلما انفردا التفت الملك اليه وقال : « اهكذا اغضبت قائدنا وصاحب جندنا ، ونحن فى اشد الحاجة اليه ؟ » . قال : « اتلومنى ايها الملك على انتهاره بعد ان اهانك واهان السادة الاساقفة جميعا ؟ ان الصبر على ذلك ذل لا يطاق ! »

قال الملك : « انت تعلم ان كوميس اعظم قوادنا ، ولم نكن فى وقت من الاوقات اشد حاجة اليه مما نحن الآن ، والعدو ببابنا وولاتنا يدلونه على عوراتنا ، سامحك الله على هذا الخطأ ، الا يكفى ارتكابنا الخطأ الاول باخفاء تلك الاخبار عنه وعن سائر رجال الدولة حتى ارتكبت خطأ آخر شرا منه ؟ »

فاستاء الأب مرتين من هذا التعريض وقال : « كانك تقول لى انى انا سبب ذلك الخطأ ! فاذا كنت اشرت عليك مشورة فاسدة كان الاولى الا تقبلها » . قال ذلك ومشى وسط القاعة ويده اليسرى وراء ظهره ، والاخرى يمسح بها ما تناثر من ريقه على شفتيه ولحيته ، فشق ذلك على الملك وعدها اهانة اخرى وقال : «أتكون مخطئا وتضيع منا احسن قوادنا ، ثم تنقم علينا وتستخف باقوالنا ويكون الذنب مع ذلك ذنبنا ؟ ! »

فأجابه مرتين وهو يهز راسه ويمشى ولا يلتفت اليه : « صدقت ايها الملك ، ان الذنب ذنبى والخطأ كله خطئى ، وكل هذه الشرور من نتائج اعمالى . لانى لو لم اسىء الى بنت صاحب سبتة لم يكن والدها عونا للعرب على فتح بلادى ! » . ثم وقف بغتة وحول وجهه اليه وقد اشتد غيظه وارتعدت اطرافه وزاد لسانه لعثمة وتمتمة وقال : « تخطىء يا رودريك ثم تلصق الخطأ بشيبتى ؟ ثم اذا اهين الاساقفة لا يهمك الدفاع عنهم وهم الذين ولوك هذا المنصب ونصروك وعضدوك ! الم يكونوا هم الذين دافعوا عنك بالامس وسط المجمع واتهموا رجلا بريئا بتهمة لا اصل لها ؟ ثم تقول انى كنت سببا فى خسارة ذلك القائد ، وانت انما خسرته بسوء تدبيرك وانهماكك فيما لا ينفعك . وبسوء تدبيرك خسرت ايضا الأب مرتين الذى لم يكن ينبغى ان تنسى

تعبه فى مصلحتك ودفاعه عنك ! » . قال ذلك والتف بردائه وخرج من القصر ، فلما خلا رودريك بنفسه ، وتصور عظم الخطر المحدق به جلس على كرسيه والقى راسه على كفيه ، وراجع ما مر به من الحوادث فى الاشهر الاخيرة ، وتذكر فلورندا ووالدها فتحقق لديه أن يوليان انما انحاز الى العرب غضبا لها ، فاشتد حنقه وتراكمت عليه الهواجس ، وعظم عليه الامر خصوصا بعد ان فقد قائده واساء الى قسيسه

□

واتفق وصول الرئيس سرجيوس فى اليوم الثانى من هذا الخصام ، فنزل فى الكنيسة الكبرى على عادة الاساقفة ورؤساء الأديار اذا جاءوا طليطلة . فعجب لوجود الاب مرتين بها وعهده به فى قصر الملك . فسلما وتخاطبا مليا فى شؤون مختلفة والرئيس يستطلع ما فى نفس مرتين . وكان الأب مرتين على كبر سنه حاد المزاج سريع التأثر ، متسرعا فيما يخطر له كما تبين لك من وصف اخلاقه ، فلم يخف على سرجيوس شيئا مما وقع بالامس له وللكونت كوميس . وحملته حدة مزاجه وتسرعه على الايقاع برودريك والتنديد بفساد رايه كانه من الد اعدائه ، وهو انقلاب غريب لا يحدث الا فى اصحاب المزاج العصبى او الدموى الحاد

اما سرجيوس فقد جاء طليطلة وهو لا يتوقع سبيلا الى مقابلة اوباس او انقاذه ، فلما لقى مرتين هان عليه ذلك فذكر اوباس بين يديه وزعم أنه سمع بسجنه . فلما سمع مرتين اسم اوباس تذكر ما كان من اعتدائهم عليه وانه سجن ظلما او على الاقل اسىء اليه بتهمة لم تثبت عليه . ونظرا الى غضبه على رودريك راى فى انتصاره لأوباس ما يشفى بعض غليله انتقاما من ذلك الملك ، فقال لسرجيوس : « ان اخانا أوباس سجن لتهمة اتهمه بها رودريك وقد حوكم فلم تثبت عليه التهمة ، فأجلت المحاكمة وسجن الى اجل غير مسمى ريثما تعاد محاكمته ، ولكن يظهر ان الملك لن يطلب العودة اليها »

فقال سرجيوس : « وهل تظن انه يبرأ اذا استأنفوا محاكمته ؟ » . قال : « لا ريب عندى فى ذلك » . قال : « ولماذا لم يطلب الاستئناف؟» . فابتسم مرتين وهز راسه وهو يقول : « وكيف يطلب ذلك وهو محجور عليه فى غرفة لايرى فيها احدا ، لأن رودريك منع الناس من الدخول؟ » الدخول ؟ »

فقال : « وهل من سبيل الى رؤيته بغير اذن الملك ؟ » . فقال

مرتين وهو يبتسم : « ان ذلك هين على . فهل ترى أن نحرض اخانا المذكور على طلب الرجوع الى المحاكمة ؟ »

قال ذلك لارغبة فى نصرة أوباس ولكنه كان يتوقع الا تغيب الشمس قبل أن يبعث اليه رودريك ليسترضيه ، فلما أصبح الصباح ولم يأته من قبله احد اشتد حنقه ، فلما خاطبه سرجيوس فى شأن أوباس أراد ان يستنهضه لاستئناف محاكمته لاعتقاده ان رودريك يخاف ذلك الطلب ، خصوصا بعد ما ظهر من غضب يوليان وكوميس ، فلا يرى له مندوحة عن استرضائه لملافاة الامر

أما سرجيوس فاستبشر بما سمعه وقال : « اذا ادخلتنى اليه نبهت ذهنه الى ذلك » . فنهض مرتين للحال واتى بدواة وقلم وكتب رقعة الى الضابط الموكل بحراسة أوباس ان يأذن للرئيس سرجيوس بمقابلته . فأخذ سرجيوس الرقعة وهو لا يصدق انه قبض عليها وسار مسرعا الى اوباس

واما اوباس فكان ما يزال فى سجنه وقد قطعوا كل علاقة بينه وبين سائر العالم ، وهو يتلقى ذلك بصدر رحب ويغالب المصائب بالصبر ، ولم يكن يشعر بوحشة الانفراد لما فى ذهنه من الموضوعات التى لا يستطاع التأمل فيها الا باعتزال الناس . وكان اذا فكر فيما سجن من اجله أشفق على رودريك وامثاله لما هم فيه من الغرور ، ولما يرتكبونه من السيئات المهلكة التماسا للذة وقتية او سعيا وراء وهم زائل . فكانت هذه التأملات وامثالها فى غرائب ماجريات الطبيعة تستغرق منه الساعات والايام ، وهو سابح فى عالم الفلسفة يحسب نفسه فى نعيم وسائر الناس فى شقاء ، لولا ما كان يعترض تأملاته من امر فلورندا والفونس ، وان كان قد وكل امرهما الى الله اذ لاحيلة له فى مساعدتهما أو فى معرفة السبيل اليهما

فلما كان اليوم الذى جاءه فيه سرجيوس دخل عليه حارسه وقال له ان رئيس دير الجبل يريد مقابلته . فلما سمع اسم ذلك الرجل عرفه وخفق قلبه خفوق البغتة لطول عهده بالاعتزال ، واذن له وهو يستغرب مجيئه وحصوله على الاذن فى الدخول عليه . وكان سرجيوس يتوقع أن يرى تغييرا فى سحنة اوباس بعد ما سمعه من طول سجنه . فلما دخل عليه رآه مقبلا لاستقباله بثوبه الكهنوتى — لانه لم يبدله منذ اقام هناك الا قلنسوته فلم يكن يلبسها — فمشى الى سرجيوس وشعره مرسل على ظهره وكتفيه وقد زاده مقامه فى تلك الخلوة هيبة وجلالا

فلما تلاقت الابصار اسرع سرجيوس واكب على يد اوباس كأنه يريد تقبيلها فمنعه من ذلك وعانقه وضمه اليه ، ثم تصافحا وسرجيوس لا يستطيع امساك دمعه ، واوباس ينظر اليه ويده على كتفيه لطول قامته بالنسبة اليه . ثم دعاه للجلوس فجلسا على مقعد متحاذيين وسرجيوس يتأهب للكلام فسبقه اوباس قائلا : « اهلا بصديقي واخي سرجيوس .. من اين انت آت الآن ، ولماذا ؟ »

قال : « اتيت من دير الجبل ولا غرض لي الا رؤية الاسقف اوباس فاحمد الله على سلامته . ولا باس مما قاساه من البلاء ، فان الله يجرب خائفيه »

قال : « انت من اهل العلم والحكمة وتحسب اعتقالي في هذه الغرفة بلاء ؟ أليس الناس جميعا محبوسين على هذه الارض ، وآجالهم قصيرة ، وقواهم محصورة ، واعمالهم لا تملأ افئدتهم ؟ وهل من فرج الا في العالم الباقي لمن احسن عملا ؟ واما اهل الظلم فانهم يشقون في الدنيا والآخرة . فلا تشفق على سجين بريء الساحة نقي السريرة ، فان سجنه وان طال قصير ، ولكن ابك اناسا منحهم الله السلطة على اخوانهم من بني الانسان ليحكموا بينهم بالعدل ، ويكونوا عونا لهم على دنياهم ، فظلموا واساءوا اليهم ، واهرقوا دماء الالوف منهم في سبيل لقمة يلتقمونها او لذة ينغمسون فيها ، ولكنهم انما يظلمون انفسهم ولايعلمون ! » . قال ذلك بصوت هادىء لايتخلله اضطراب ولا حدة ولا شيء من عواقب الانفعال النفساني ، فزاد اعجاب سرجيوس بما سمعه من الحكمة والموعظة . على انه اراد ان يؤدي المهمة التي جاء من اجلها فقال : « لقد صدق مولاي ، ولكن الله كثيرا مايعاقب الظالمين ويثيب المحسنين في هذه الدنيا ليكونوا عبرة لسواهم . وقد اتيتك الآن باخبار جديدة لا ريب انك مشتاق للاطلاع عليها . الا تريد الاطلاع على ما كان من امر فلورندا بعد فرارها من بين يدي رودريك ؟ »

فلما سمع اوباس ذلك تحركت فيه عاطفة الحنان ، وبدا الاهتمام في وجهه ، ونسي ما كان من فلسفته واستخفافه بحوادث الطبيعة — والانسان مهما يكن من تعقله وزهده لا يلبث اذا تحركت فيه عاطفة الحب ان يهتم بالحياة واهلها — فقال : « وهل تعلم شيئا عنها ، واين هي ؟ »

قال : « هي في دير الجبل » . ثم قص عليه ما علمه من خبرها منذ خروجها من قصر رودريك في طليطلة حتى اتت الدير الى ان

قال : « وهي مقيمة عندنا فى أمان وسكينة . ولكنها فى قلق شديد عليك وعلى الفونس لانها لا تعرف مقره . ولو عرفته لا تستطيع الذهاب اليه ، لما أقامه رودريك فى سبيلها من العيون والأرصاد »

فاطمأن بال أوباس على فلورندا ولكن ساءه تضييق رودريك عليها فقال : « الا يزال هذا الرجل يتعقب هذه الفتاة ويضيق عليها ؟ »

فابتسم سرجيوس وقال : « ولكنه لا يلبث ان يقع هو فى الضيق ويفرج عن النـاس كافة ، خصـوصـا أنت » . ورأى اوباس فى عينى سرجيوس ما يدل على امور مهمة يريد التصريح بها فأبدى الاهتمام وقال : « وكيف ذلك ؟ »

فمد سرجيوس يده الى جيبه واستخرج كتاب يوليان وهو لا يزال فى انبوبته وقال : «لما خرجت فلورندا من طليطلة كما قدمت لسيادتكم لم يسعها الا ان تكتب الى ابيها كتابا تشكو فيه ماحل بها من الشقاء فى قصر رودريك وما أراده منها . وبعثت بالكتاب مع أجيلا فجاءها جواب حاسم لما نحن فيه ، واليك هو». ودفع الانبوبة اليه ، فتناولها أوباس واستخرج منها الكتاب ملفوفا وفضه وقرأه واعاد قراءته وسرجيوس ينظر الى ما يبدو من آثار ذلك فى سحنته فلم ير تغييرا يذكر ، فلم يستغرب ذلك لانه من جملة ادلة رباطة الجأش وسعة الصدر . ولكنه توقع ان يسمع ما يدله على ذلك الاثر فاذا هو يقول : « هل زادكم اجيلا ايضاحا ؟ »

قال : « نعم . انه رأى جند العرب ينزلون شواطىء اسبانيا ويوليان معهم يدلهم على عورات البلاد »

قال : « وهل علم رودريك بذلك ؟ » . قال : « نعم جاءته الاخبار منذ ايام فلم يعبأ بها ولا اطلع أهل مجلسه عليها ، فآل ذلك الى زيادة الخرق اتساعا وبات رودريك فى اشد الضيق واصبح خروج الملك من يده امرا محتوما »

فقال أوباس : « وما سبب هـذا الانقـلاب ؟ » . قال : « لان الكونت كوميس قائد الجند العام علم بنزول العرب شواطىء اسبانيا من اناس أتوا طليطلة من هناك ، وتحقق أن رودريك أخفى ذلك الخبر عنه فعاتبه فى مجلس حضره كبار الموظفين ، فآلت المعاتبة الى المنافرة ، فخرج كوميس من الجلسة غاضبا من رودريك ومن قسيسه مرتين . وبعد انفضاض المجلس عاتب رودريك قسيسه ، فخرج هذا وأقام فى الكنيسة الكبرى حيث لقيته وفهمت منه انه ناقم على رودريك ، وساعدنى من أجل ذلك فى الوصول اليك برقعة كتبها الى الحارس .

ويرى الأب مرتين انك لو طلبت استئناف النظر فى قضيتك لا ريب فى خروجك بريئا . وفى كل حال فان الله رد كيد الظالمين الى نحورهم . وهذا رودريك قد هجره قائد جنده واخص اخصائه وبات هزءا بين الناس ، الا ترى ذلك من تدبير العزيز الحكيم ؟ »

وكان سرجيوس يتكلم ويتفرس فى وجه اوباس ليتبين ما يبدو فيه ، واوباس مطرق يمشط لحيته بانامله وهو مستغرق فى الافكار وقد قطب حاجبيه وبان الاهتمام فى عينيه . فلما فرغ سرجيوس من الكلام رفع أوباس بصره اليه وهو لا يزال مستغرقا فى الافكار وجعل يحدق ببصره فى وجه سرجيوس كأنه يستطلع ضميره . فلم يستطع سرجيوس احتمال اشعة تينك العينين أو الصبر على التحديق فيهما وهما كأنهما منفذ للسيال الكهربائى المتولد فى الدماغ من امعان الفكر، فكلما زاد الدماغ عملا زاد ذلك السيال غزارة . وظل كلاهما صامتا بضع دقائق ، ثم تكلم أوباس قائلا : « أتستحسن الانتقام من رودريك فى هذه الفرصة ؟ » . فقال سرجيوس : « وهل تتوقع فرصة أثمن منها وهو الآن متضعضع الاحوال ، أعداؤه يهددونه وأصدقاؤه يتوعدونه ؟ »

فنهض اوباس وجعل يخطر فى ارض الغرفة ذهابا وايابا وانامله فى لحيته يمشطها ، وشعر راسه يجلل كتفيه ، وقد زاده السكوت وقارا وهيبة ، وسرجيوس ينظر اليه ولا يتكلم . ثم وقف اوباس بغتة امام سرجيوس فنهض هذا واصغى استعدادا لما سيقوله ، فاذا هو يقول : « امن المروءة يا سرجيوس ان نغتنم ضعف عدونا ونحمل عليه وهو فى اشد الضنك ؟ وهل من الحكمة والتعقل ان نساعد الغريب على القريب ؟ ان رودريك مهما قيل فيه فهو منا ونحن منه ، نشرب من ماء واحد ، ونقرأ فى كتاب واحد ، ونتكلم لسانا واحدا ، ونصلى صلاة واحدة ، ونتناول القربان المقدس من كاس واحد ، ونجتمع فى كنيسة واحدة . فكيف نغتنم ساعة ضعفه ، ونعين عليه أناسا لا نحن منهم ولا هم منا ، ولا دينهم من ديننا ولا وطنهم وطننا ؟ زد على ذلك ان الانتقام من رودريك فى هذه الفرصة يجر البلاء على كل بلاد الأسبان اذ نخرجها من حضن دولة ربتها وعاشرتها ، الى دولة جديدة لا نعرف شيئا عنها . ولا ندرى ما يصير اليه امر هذه البلاد اذا فتحها العرب . الم يسفك اجدادنا دماءهم فى فتح هذه الجزيرة واستعمارها ، فكيف نسلم بذهابها هدرا ؟ !. أما ما فى أنفسنا من انكار حق رودريك فى الملك فانما هو من قبيل ما يحدث من التنازع

بين الأخ واخيه او الأب وابنه ، فلا يجوز ان يستعين احدنا على الآخر بامة غريبة جنسا ومذهبا ووطنا. وأما ما ارتكبه رودريك من الشطط في اساءتي فيكفيه من ضميره ما يعذبه ، والله يتولى امره . فنحن يا سرجيوس في موقف يقتضي ان ننبذ فيه الضغائن ، وتتحد على العدو المهاجم رغبة في سلامة المملكة . ويجب ان نغضي عما أساء به احدنا الى الآخر . وها انذا أبدأ بنفسي فاذهب الى رودريك واستحثه على الاتحاد في سبيل الوطن». قال ذلك ومشى الى رف كانت قلنسوته عليه فوضعها على راسه ، وهم بالخروج وقد ظهر التاثر في وجهه ، ونسي انه في سجن ولا سبيل الى خروجه الا باذن الملك !

وكان سرجيوس في اثناء ذلك الخطاب يتصاغر في عيني نفسه ، فما اتى اوباس على آخر اقواله حتى راى سرجيوس نفسه امامه كاحقر الناس ، وان اوباس من طينة ارقى من طينة البشر ، ولم يتمالك ان اكب عليه فضمه الى صدره وقبل لحيته وعارضيه وقال له : «بورك فيك . ما انت بشر ، انما انت ملك كريم ! لقد حقرتني في عيني وجعلتني مرذولا عند نفسي . فانا تابع لك فيما تصنعه عامل بما تامر به »

وكان اوباس في اثناء ذلك يلبس قلنسوته ويصلح شعره تحتها ، ثم مشى نحو الباب وما ادركه حتى أدرك انه لا يستطيع الخروج بغير اذن الملك ، فتراجع وقد خجل لغياب ذلك عن ذهنه وتناول لوحا من الواح الكتابة (مكسوا بالشمع) فكتب عليه ما ياتي :

« من اوباس الاسقف الى رودريك ملك طليطلة :

« اكتب اليك من سجني لا لرحمة ارجوها ولا لنكبة اخافها ، ولكنني علمت بمصيبة تهدد المملكة فاردت ان اكون شريكا في دفعها ، وان اضع راسي بين رؤوس جنودها . ولي كلام احب ان القيه على مسامعك ، فمر بحملي اليك ، والسلام »

وخرج فدفع الكتاب الى الحارس وامره ان يوصله الى الملك وعاد الى مجلسه فحمل الضابط الكتاب وسار

وكان رودريك قد اصبح في ذلك اليوم محتارا في امره بعد أن هجره قائد جنده فلا هو يتنازل لاسترضائه ، ولا ذاك يعود اليه من تلقاء نفسه . ولو كان الاب مرتين عنده لاستخدمه في فض هذا المشكل فقضى معظم اليوم في غرفته واذا بخادمه الخاص يحمل اليه كتاب اوباس ، فتلاه وهو لايصدق انه يقرؤه فاعاد قراءته غير مرة

ولما فرغ من ذلك امر أن يكتب باستقدام اوباس مخفورا وخرج لانتظاره فى قاعة المجلس

وبعد هنيهة دخل أوباس بقدم ثابتة وجاش رابط فلبث رودريك صامتا ساكنا ليرى ما يبدو منه . فبدأ أوباس بالكلام قائلا : « انى لم آتك لعتاب أو توبيخ ، انما جئت لأمر يتعلق بمصلحة المملكة على اثر ما بلغنى من نزول العرب فى شواطئها وعزمهم على فتحها ، وان قائد جندك اغضب نفسه واغضبك ، واغتنم ساعة حاجتك اليه وهجرك ، وهو ضعف شبيه بضعف يوليان صاحب سبتة فانهما غضبا من أحد رجال القوط فعمدا الى الانتقام من المملكة كلها ، ومن نفسيهما لأنهما من افرادها ! على ان خطاهما لايبرىء الملك من الخطأ الذى اقترفه مما لا نخوض فيه الآن » . قال ذلك بسكينة ورزانة والجد باد فى وجهه ، فاستغرب رودريك ما سمعه وارتاب فى اخلاص اوباس ، ولم يتصور مثل هذه المناقب لبعدها عن مناقبه ــ كما يستبعد الشهم الوفى وجود اناس يكافئون على الحسنة بالسيئة ــ فاراد ان يتبين حقيقة مراد اوباس فقال : « وما الذى تراه ؟ »

قال : « لقد احسنت فى اقتصارك على الموضوع الذى نحن فيه ، فالذى اراه أن تبعث الى الكونت كوميس والى الاب مرتين ، فاذا حضرا اوبخهما واحرضهما على الرجوع اليك والعمل معك فى انقاذ هذه المملكة من غارة المهاجمين ! »

فأمر رودريك بعض الحرس ببابه ان يذهب فى استقدامهما حالا . فسار الرجل واشار رودريك الى أوباس بالجلوس وهو لايصدق انه يقول ما يقوله عن اخلاص وحمية ، وظل صامتا يخاف ان تبدر منه بادرة يلام عليها لان اوباس بهره بمروءته وجسارته . واما اوباس فجلس ولم يعبأ بمن فى حضرته . وبعد قليل عاد الرسول وانبأ الملك بقرب مجيئهما . ثم اقبل كوميس فحيى باحترام وجلس باشارة الملك وقد استغرب وجود اوباس هناك . ثم جاء مرتين وعجب حالما وقع نظره على أوباس . اما اوباس فالتفت الى رودريك واستأذنه فى الكلام فاذن له فوجه كلامه الى كوميس قائلا : « قد بلغنى يا حضرة الكونت انك خرجت بالامس من مجلس الملك غضبا ، فكيف أنت الآن؟ »

فقال : « لم اغضب من جلالة الملك الا غيرة على المملكة . ولكننى لم ابلغ منزلى وأخل بنفسى حتى رايتنى عجلت فى عملى لأننا فى حالة تدعو الى الاتحاد لدفع الاعداء »

ولم يتم كلامه حتى ابتدره اوباس قائلا : « عوفيت من شهم صادق .

ذلك رجائي فيك لعلمي بحدة مزاجك ، وحاد المزاج سريع الرجوع الى الصواب » ثم التفت الى مرتين وكان جالسا مطرقا وقال : « ولا اظن الاب مرتين الا فاعلا مثل ذلك ايضا » . فظل مرتين مطرقا ولم يجب . فالتفت اوباس الى رودريك وقال : « لاريب عندي في رغبة قداسة الاب فى الوفاق والوئام ونبذ البغضاء عملا بوصية السيد المسيح . ولذلك فاننا لا نطيل الكلام فى هذا الشأن بل نبادر الى العمل . فيأمر جلالة الملك بعقد المجلس من كبار الدولة للنظر فى الوسائل اللازمة »

فرفع مرتين راسه عند ذلك ووجه خطابه الى الملك قائلا : « كيف تبرمون مثل هذا الامر قبل عرضه على مجمع الاساقفة ، وجلالة الملك يعلم ان قوانين المملكة تقضي بذلك ؟ ! »

□

ولم تكن تلك القوانين خافية على اوباس ولكنه اراد السرعة لأن جمع الاساقفة يستغرق بضعة اسابيع . على انه خاف اذا انكر جمعهم ان يفسد مرتين ما اصلحه فعذر الرجل على تعنته فقال : « لم اطلب ابرام شيء دون راى المجمع ، ولكنني اردت التئام مجلس الملك للبحث فيما يعرضونه على المجمع » . وقد فاته ان مرتين انما اراد عرض ذلك على المجمع ليشكو اليه خروج اوباس من السجن ، لانه اغتاظ من جلوسه فى حضرة الملك ، وزاد غيظه لما رآه جالسا مجلس المشير !

فاستحسن رودريك عقد مجلسه فبعث اليهم وهم الكونتيه الذين تقدم ذكرهم فحضروا . وقبل عقد الجلسة طلب الكونت كوميس الجرى فى عقدها على القوانين الرسمية وهى تقضي باخراج مرتين منها لانه ليس من رجال الدولة فخرج وهو يتميز غيظا !

فلما التأمت الجلسة وقف اوباس ورفع يده وبارك وصلى صلاة حارة شفعها بالتوسل الى الله تعالى ان يجمع قلوب القوط ليتحدوا على حماية بلادهم ، ثم خاطب الحضور قائلا : « انتم تعلمون الاساءة التى لحقت بى من جلالة الملك ومن مجلس الاساقفة حتى سجنونى سجن المجرمين شهرين كاملين لم ار فى أثنائهما غير الموكل بحراستى ، وقد حكموا على بذلك لغير ذنب اقترفته ، ومع ذلك فحالما علمت بما يهدد المملكة من الاخطار استأذنت فى مقابلة الملك ، وعرضت نفسى للعمل فى جملة العاملين على انقاذها . فأحرى بكم ان تكون رغبتكم فى ذلك وانتم رجال الدولة ومديرو شئونها ؟ ولست انبهكم الى امر

تعلمونه ، ولكننى ابث لكم عواطفى فى هذا الشأن وانى أصغر العاملين فى هذا السبيل »

فقال الكونت كوميس : « ان شهامة اوباس ومروءته وتعقله اشهر من أن تذكر ، ولكننا لم نكن نحسب فى البشر مثل هذه العواطف . فكيف نرى ما سبقنا به هو ولا نتفانى نحن فى خدمة الملك ؟ ولكننى لا ارى تأجيل العمل الى اجتماع الاساقفة لئلا يضيع الوقت بلاطائل »

فقال اوباس : « ولكن لابد من استشارتهم فى مثل هذا الامر وهم كما لايخفى اصحاب الفضل الاكبر فى تنظيم هذه الحكومة ووضع قوانينها واحكامها وتدبير شئونها »

فقال رودريك : « لايمكننا القطع فى التجنيد والمحاربة الا بعد مشورتهم »

فقال كوميس : « لاباس من استشارتهم ، ولكن الوقت قصير والفرصة ثمينة »

فخاف اوباس ان يحتد كوميس فيذهب سعيه سدى وتذكر ان مرتين خرج من الجلسة حاقدا ، وخاف اذا لم يسترضوه أن ينقلب عليهم ويهيج الاساقفة على الملك ، فتنقسم المملكة على نفسها وتكون المصيبة الثانية شرا من الاولى ، فعمد الى ملافاة ذلك قائلا لكوميس : « اراك ضيقت الفرصة ودققت فى الطلب ، فالاساقفة كما قلت لاباس من استشارتهم بل ارى احترامهم واجبا لانهم واضعو اساس هذه النظم كما تعلم ، فضلا عما قد يترتب على نصائحهم من الفوائد . زد على ذلك ان الاتحاد يقضى علينا باستشارتهم لأن غضبهم يفضى الى الشقاق لا محالة . ولا يخفى عليك ايضا ما يترتب على ذلك من ضياع النتيجة التى انما تسل سيفك وتشحذ قريحتك فى سبيل الوصول اليها . فرجائى فيك ان تتلافى هذا الخطر ولا شك عندى انك متلافيه فالتمس أن تبدأ بذلك من هنا (واشار الى باب القاعة حيث خرج مرتين) لأن حضرة الاب اذا رضى هان الامر » . ثم وجه كلامه الى رودريك وقال : « هل يأذن مولاى فى استقدام الاب مرتين ليحضر هذه الجلسة ونجعل له حظا من هذا البحث ؟ »

فكان كلام اوباس نافذا بلا مراجعة لانه بهرهم بما اتاه من الحمية والمروءة ، فضلا عما فطر عليه من قوة العارضة . فامر رودريك باستقدام مرتين وكان منفردا فى بعض غرف القصر . فلما دخل وقف اوباس وبش له وقال : « ليس فينا يا حضرة الاب من يجهل حق سيادة الاساقفة فى شئون مملكة القوط ، ولكن ولدنا الكونت

كوميس رجل حرب يحب المبادرة ، وغيرته على صيانة هذه الدولة هي التي حملته على التسرع. وهو مصيب بالنظر الى قوانين الحرب. ولكنني أرى راى حضرة الاب بالنظر الى وجوب استشارة الاساقفة على انى اخاف ان يدعو ذلك الى التاخير فتفوت الفرصة ويذهب سعينا ضياعا ، ولا اظن السادة الاساقفة اذا اجتمعوا واستشيروا يشيرون بغير المبادرة الى الحرب ، بل احسبهم يلوموننا على تأخير التجنيد الى اجتماعهم . فالذى اراه ــ والامر لجلالة الملك ــ أن نبدأ بالتأهب للحرب ومخابرة الاطراف فى حشد القوات والاموال ، ونبعث الى الاساقفة فنجمعهم ونتلو عليهم قرار هـذا المجلس ، أو نبعث اليهم بخلاصة اعمالنا وهم فى ابرشياتهم لأننا احوج اليهم الآن هناك . واذا اذن لى الملك قلت كلمة فى هذا الشان ، والراى راجع اليه فى كل حال ، ذلك انى ارى ان ينتدب قداسة الاب مرتين لينوب عن جلالته فى تبليغ الاساقفة قرار هـذه الجلسة ، واذا رايتم انى اليق بهذه الخدمة قدمت نفسى لها ، او كما تشاءون »

فلما فرغ اوباس من الكلام لم ير مرتين سبيلا للرد عليه لعلمه ان امر المجلس نافذ لا محالة ، وقد اعجبه راى اوباس بانتدابه لمخابرة الاساقفة ليتمكن من بث ما فى نفسه اليهم ، لكنه اساء الظن فى ذلك الانتداب وظن اوباس انما يريد ابعاده عن مجلس الملك ، او ان يفر هو من محبسه لغرض له ، وكلا الامرين لم يرضه . فلم ير خيرا من قبول قرار المجلس ، وعمد الى المغالطة فقال وهو يحاول كظم غيظه من تغلب اوباس على رايه : « لا اظن حضرة الملك يسىء الظن بقصدى اذا التمست جمع الاساقفة فانه طلب قانونى . واما الحرب فانها كما قال اخى اوباس تدعو الى العجلة ، وللملك ان يبلغ الاساقفة بالطريقة التى يختارها . واما انا فانى اعد تلك المهمة شرفا لى ولكنها تبعث الى التطويل لما يقتضيه ذلك من الانتقال من ابرشية الى اخرى ، وكذلك انتداب حضرة الاسقف . فالانسب ان ينتدب جلالة الملك من شاء من حاشيته ويفرقهم دفعة واحدة فيصل الخبر الى السادة الاساقفة فى وقت معا »

ولم يجهل اوباس ما ينطوى تحت تلك الملاينة من الكظم والحقد ، ولكنه تجاهل رغبة فى النتيجة ، واغضى عن كل سيئة فى سبيل الوصول اليهـا ، فأبدى استحسانه لموافقة مرتين والتفت الى رودريك وهو يتبسم وقال : « لقد تم الاتفاق بحول الله ، فما على جلالة الملك الا

ان يتحد مع مجلسه فى التأهب للحرب ، ونحن فى كل حال فى خدمة المملكة فى كل ما تريدون »

فلم يسع الملك بعدما عاينه من مساعى اوباس فى نصرته الا ان يحترمه ويتصاغر فى عينى نفسه ، فقال له : « بورك فيك يا اوباس » . فقطع اوباس كلامه خوفا من اثارة حسد مرتين ، وكانت حجته فى قطعه انه لايريد ان يسمع الثناء على نفسه ، ثم وقف وطلب الى الملك ان ياذن له فى الانصراف الى سجنه فقال رودريك : « امكث معنا يا اوباس فانك نعم المشير ، ودع السجون لأهلها »

فقال اوباس : « اشكرك على ذلك ، ولكننى استاذن فى الانصراف من هذه الجلسة على ان اعود بعد قليل »

فأذن له فخرج اوباس وقد حمد الله على نجاح مسعاه فلقيه سرجيوس فقص عليه ما كان ، فازداد اعجابا بتلك المناقب الشريفة

وعاد سرجيوس بعد بضعة ايام الى الدير ، وكانت فلورندا تنتظر رجوعه بفارغ الصبر . فلما عاد وقص عليها ما اتاه اوباس الى آخر الحديث احست بانقباض فى نفسها لأنها عدت ذلك مخالفا لما كانت تتوقعه من سقوط هذه الدولة على يد والدها ، وما تخافه على نفسها وعليه اذا لم يفز العرب فى هذه الحرب ، فوقعت فى حيرة ولكنها لم تستطع تخطئة اوباس لأن نواميس الشرف والمروءة تؤيده وتنصره ، ولولا ضعف المراة وايثارها الانتقام لما تخيرت فلورندا غير ما اراده اوباس ، ولكنها لم تكن ترى سبيلا الى السعادة الا بقتل رودريك خصوصا بعد ان جاهر والدها بحربه ، فانتصار رودريك يعود بالويل والثبور عليهما . وسالت الرئيس عن الفونس فأخبرها انه فى استجة مع فرقة من الجند ينتظر اوامر رودريك . فتاقت نفسها للذهاب اليه لعلمها انه لو كان عالما بمقامها لسعى اليها او بعث فى استقدامها ، ولكنها خافت العيون واستشارت سرجيوس فى ذلك مرة ، فقال لها : « البثى عندنا ريثما نرى ما يكون من امر هذه الحرب »

☐

قضت فلورندا فى ذلك الدير بقية فصل الشتاء وكل فصل الربيع ، وهى تتنسم الاخبار بواسطة اجيلا وشانتيلا وسرجيوس . فلم تسمع الا بانتصارات العرب ووالدها معهم ، وقد دخلوا اسبانيا واوغلوا فى مقاطعة بوتيكة . وكان رودريك قد اعد جنده وتأهب للخروج اليهم ، فسمعت انه برح طليطلة بنفسه ومعه العدة والرجال . واضطربت اسبانيا بجملتها وفيها الخائف والشامت ، والآسف

والناقم . لاختلاف الاحزاب وتضارب الاغراض

اما اهل دير الجبل فقد كانوا يسمعون الاخبار وهم يرون الخطر بعيدا عنهم لبعدهم عن ساحة الحرب . وفلورندا قد تراكمت عليها الهواجس والخوف على ابيهـا وخطيبهـا ، لا تدرى هل تسير الى احدهما ، او كليهما ، او تبقى فى ذلك الدير ؟ وكانت ترجح بقاءها هناك على رجاء ان يبعث والدها فيستقدمها كما قال . فلما اقبل الصيف اصبح دير الجبل عليل النسيم عذب الماء نشيط الهواء وقد اكتست اوديته حلة خضراء

- ففى يوم من ايام يوليو استيقظت فلورندا مبكرة وهمت بالخروج من الدير للتمشى فى بساتينه على عادتها ، ولكنها قبل ان تخرج جاءها اجيلا يدعوها الى الرئيس ، وكانت قد مضت مدة لم يدعها اليه فاختلج قلبها واسرعت حتى اقبلت على غرفته ، فرات عنده كهلا لاتدل سحنته على انه من القوط او من الرومان ، ورات عليه لباسا تذكرت انها كانت ترى مثله وهى عند والدها فى سبتة . ولما دنت من الرجل رات آثار السفر على وجهه بما غشى لحيته وشاربيه من الغبار ، حتى حاجبيه واهدابه فان الغبار غلب على لونها جميعا . فتوسمت فلورندا من ذلك القـادم خبرا جديدا فدخلت وحيت فرحب بها الرئيس وقال : « هذا رسول من ابيك »

فلما سمعت ذلك خفق قلبها وتوردت وجنتاها بغتة والتفتت الى الرجل وقالت : « ما وراءك ؟ » . قال : « انى من اصـدقاء ابيك ومحبيه والمطلعين على اسراره ، وقد علمت بكتابك اليه وما ترتب على ذلك كله من الانقلاب . الا تعرفيننى يا فلورندا ؟ »

فلما سمعت فلورندا صوته وتأملت ملامحه تذكرت انها شاهدته غير مرة فى صباها وانه كان كثير التردد على بيت والدها فى سبتة . فاستبطاها الرجل وقال : « الا تعرفين سليمان التاجر ؟ »

فانتبهت فورا وقالت : « انت سليمان ؟ . نعم اعرفك جيدا وكنت تتردد وتحمل الينا الهدايا والاحمال وتبتاع لنا الآنية والثياب . هل انت آت من عند والدى ؟ واين هو الآن ؟ »

قال : « هو مع جند العرب على مقربة من وادى لبته »

قال ذلك واستأذنها بعينيه هل يقول كل شىء فى حضرة الرئيس فأجابته بالاشارة ان يفعل فقال : « وقد اوغلوا فى بوتيكة ولم يلقوا معارضة الا قليلا ، وقد عدهم اهل البلاد رحمة ولا يلبثون ان يتملكوا البلاد كلها »

فبغت الرئيس وقال : « وماذا جرى لجند الاسبان ؟ »
قال : « لم يلتق العرب برودريك بعد ، ولكننا سمعنا بخروجه من طليطلة بجند كثيف وسيعود خاسرا فابشرا »
فظهرت البغتة على وجه الرئيس وقال : « هل تعتقد ذلك ؟ وكيف تكون حالنا اذا صح قولك ؟ »
قال : « تكون احسن مما انتم عليه الآن ، لان العرب اذا فتحوا بلدا قلما يتعرضون لأهله فى شيء غير ما يفرضونه عليهم من الجزية أو الخراج . واما الرهبان وجماعة الاكليروس فانهم معفون من كل ضريبة يقيمون فى اديارهم مستكنين آمنين . ذلك ما شاهدناه بأعيننا فى البلاد التى فتحوها فى مصر والشام »
فاطرق الرئيس وسكت ، فقالت فلورندا : « وما الذى جئت به الآن ؟ »
قال : « كلفنى مولاى الكونت والدك ان آتى لأتفقدك ، واذا اردت الذهاب اليه سرت فى خدمتك »
فانبسطت نفس فلورندا لذلك وقالت : « الا تخاف علينا بأسا فى اثناء الطريق ؟ » . قال : « لاباس علينا من أهل اسبانيا ونحن منهم ، ولا من الملك وهو فى شاغل من نفسه وجنده » . فالتفتت فلورندا الى الرئيس كأنها تستطلع رايه فقال : « اذا لم يكن بد من ذهابك فهذه فرصة لاتضيعيها ، ونحن ندعو لك بالوصول الى والدك سالمة » . فعادت فلورندا الى خالتها واستشارتها ، فأشارت عليها بالذهاب . وتأهبوا فى الغد وسافروا ودليلهم سليمان ومعه اجيلا وشانتيلا ، واما فلورندا فطلبت الى سليمان أن يمروا فى طريقهم باستجة ، فساروا اياما لايمنع مسيرهم نوء ولا مطر ، والارض كلها مكسوة بالاشجار والاعشاب والطقس جميل حتى اطلوا على استجة ، فخفق قلب فلورندا عند مشاهدة تلك المدينة وكانوا قد اشرفوا عليها من مرتفع فرأت كنيستها فتبركت بها عن بعد ، وجعلت تناجى نفسها من مقر الفونس فلم تجد بدا من سؤال سليمان فقالت له : « اذا انفذ رودريك جندا الى مدينة مثل استجة فأين يقيم ؟ »
فقال لها : « اظنك تبحثين عن مقام الامير الفونس ؟ »
فبغتت فلورندا وقالت : « نعم . وكيف عرفت ذلك ؟ »
قال : « عرفته منذ بضعة اشهر ، اذ جئت هذه المدينة وبلغنى قدوم الامير وجنده ، وكانوا يقيمون فى هذه القلعة قرب الجسر . هل أبحث عنه هناك ؟ »

فاستأنست به فلورندا وقالت : « افعل يرحمك الله ، واتنا بالخبر »
فتركهم وتحول بأسرع من لمح البصر وترجلت فلورندا وخالتها ولبثوا جميعا ينتظرون الخبر وفلورندا تمنى نفسها بملاقاة الفونس، وكلما تصورت انها لقيته يختلج فؤادها وهى لا تزال تذكره كما شاهدته لآخر مرة فى حديقة القصر فى طليطلة وعليه لباس الشتاء والفرو والمنطقة ، وقد خرج من الحديقة مسرعا مبغوتا عند سماعه الصفير . ولم يطل زمن اضطرابها وهواجسها لان سليمان عاد سريعا فلما راته مقبلا شخصت اليه ببصرها وقد منعها الحياء من مبادرته بالسؤال قبل وصوله ، فلما وصل ابتدرها قائلا : « لم اجد احدا فى القلعة »

قالت : « اتظنهم لم ينزلوا فيها ؟ »

قال : « لاريب عندى انهم كانوا نازلين فيها وقد سألت بعض حراس القلعة فاخبرنى ان رودريك بعث الى مولاى الامير الفونس ان يوافيه الى وادى لية بمن معه من الجند لملاقاة العرب »

فبغتت فلورندا واطرقت وهى تتجلد وتمسك عواطفها بين يدى ذلك الرجل ، ولكنها اصبحت قلقة البال على الفونس لأنه ذهب الى ساحة الحرب ، وهو فى جانب وابوها فى جانب ، واذا فاز الواحدغلب الآخر، وكلاهما عزيزان عندها . وربما لم يفت سليمان ما مر بخاطرها من ذلك فقال لها : « اظننا نلاقى الامير الفونس فى الطريق اذا أسرعنا ، والا فاننا ملاقوه فى وادى لية . فاذا وصلنا الى هناك بحثت عنه واتيتك بما تريدينه »

فاطمأنت فلورندا بذلك الوعد واشارت الى الركب بالمسير فركبوا وساروا حتى تواروا عن استجة وقطعوا نهرها ، وما زالوا سائرين جنوبا وهم يمرون بالكروم والبساتين وكلما اقتربوا من وادى لية قل الناس العاملون فى الحقول

واقبلوا فى صباح اليوم التالى على طريق رأوا فيها جماعة من اهل القرى يهرعون كأنهم يفرون من عدو لاحق بهم ، فقالت فلورندا فى نفسها : « الظاهر اننا على مقربة من معسكر العرب او ان العرب قادمون » . فالتفتت الى سليمان فاذا هو ينظر الى الافق ويتفرس كأنه يرى شيئا غريبا فنظرت فرات غبارا يتصاعد فترجح عندها قدوم العرب فخفق قلبها وقالت لسليمان : « يظهر ان العرب قريبون منا . اليس ابى معهم ؟ »

فقال : « لا اظن القادمين عربا لانهم سائرون من الشمال الى

الجنوب » . ثم التفت الى احد المارة من الفلاحين وساله عن سبب فرارهم فقال الرجل : « الا ترى جند الملك قادمين ؟ فهم اذا حلوا بمكان أوقعوا الاذى بالفقراء امثالنا ، فلا يتركون ثمرا لايقطفونه ، ولا زرعا لايدوسونه ، ولو اكتفوا بذلك لهان علينا الامر ولكنهم يلحقون الاذى بالناس » . قال ذلك وسار مسرعا فى طريقه لئلا يكون مخاطبه من حزب الملك فيقبض عليه !

وكانت فلورندا تسمع كلام الرجل وتأسف على تلك الحال ، وارادت ان تعلم اذا كان الملك نفسه مع ذلك الجند فقالت لسليمان : « وهل تظن رودريك مع هذا الجند ؟ » . قال : « اظنه معهم » . فلما سمعت ذلك تصورت قرب الخطر منها ، وسليمان يراقب ملامحها فلما راى اضطرابها قال لها : « لا تخافى يامولاتى فانك فى أمان . تعالى نختبىء فى مكان ريثما يمر هذا الجند »

قال ذلك ومشى فتبعه الجميع حتى دنوا من خربة مهجورة فوق تل بعيد عن الطريق فدخلوها فقالت فلورندا : « ارى ان أتنكر بثوب الرجال » . فأعطوها ثوبا من أثوابهم واعطوا مثله للخالة العجوز حتى لايشك من يراهم عن بعد انهم رجال ، ثم اختبأوا فى تلك الخربة وفلورندا شديدة الميل الى مشاهدة تلك الحملة فاهتدت الى شق أرسلت بصرها خلاله الى جهة الغبار فاذا هى بالبنود قد ظهرت والفرسان بينها عليهم الالبسة الملونة والدروع و ورات فى اواسط الحملة بنودا كثيرة قد تجمعت تحملها فرسان بألبسة مرصعة ، وفى وسطهم موكب يتلألأ كالشمس فعلمت انه موكب رودريك . فلم تتمالك عن الاضطراب ولم يقترب الموكب من موقفها حتى اصطكت ركبتاها وارتعدت فرائصها ، فرسمت اشارة الصليب فتشجعت وثبتت قدميها ، ثم شغلها ما سمعته من قرع الطبول وخفق البنود وصهيل الخيل وقرقعة العجلات وعليها المؤونة والذخيرة ، وضوضاء الناس وهم يمرون بين يديها . ثم اقبل الموكب ورودريك فيه على سرير بين دابتين بما يشبه الهودج ، وفوق راسه مظلة من الديباج المزركش مرصعة بالدر والجوهر ، فى مقدمتها صليب مغروس فى أحد اعمدتها ، ورودريك جالس وعلى راسه التاج يتلألأ بالحجارة الكريمة وقد ارتدى وشاحا مزركشا وردى اللون وجلس جلسة الملوك على عروشهم ويده فى لحيته وهو يجيل نظره ذات اليمين وذات الشمال ، ينظر الى جنوده وكثرة ما معه من العدة والرجال . وقد جلس معه فى ذلك السرير الاب مرتين وهو يخاطبه ويشير بيده ، ورودريك

ينظر الى الاعلام المحيطة بموكبه ودلائل الاعجاب بادية فى وجهه

فلا تسل عن حال فلورندا لما وقع نظرها على وجه رودريك . وكان سليمان واقفا بجانبها فلما مر الموكب التفت فراى لونها من الخوف قد تغير ، فأراد ان يشغلها عما بها فقال : « ما ظنك بعدد هذا الجند يا مولاتى ؟ »

قالت : « لا ادرى ولكننى اراه كثيرا . هل تظن جند العرب اكثر منه ؟ »

قال : « ان العرب لايزيد عددهم على خمس هؤلاء ، ناهيك بما سينضم الى جند رودريك من الرجال قبل التقائه بالعرب خصوصا جند مولاى الامير الفونس فانه سينضم اليه » . فقالت : « اذن فالعرب فى خطر وضعف ؟ ! » . قال : « لو كانوا ضعفاء ما استطاعوا دخول هذه البلاد فان القوة ليست فى الكثرة وانما هى فى الشجاعة . ان العرب يا مولاتى لايزيد عددهم فى هذه الجزيرة على ١٢ الفا ومع ذلك لم يقف فى سبيلهم احد »

فقطعت كلامه قائلة : « ولكنهم لم يلاقوا مثل هذا الجند بعد » . قال : « هذا صحيح ولكننى رايت من شجاعتهم واتحادهم وصبرهم مالا اخاف معه عليهم شيئا . ومع ذلك فان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء »

وفى اثناء هذا الحديث مرت بقية الحملة فمكثوا هناك الى آخر ذلك اليوم . وخرج سليمان وحده للبحث عن المكان الذى نزل العرب فيه ثم عاد فأخبر فلورندا ان العرب نزلوا فى وادى ليتة قرب مدينة شريش ، فقالت له : « وهل علمت بمعسكر الفونس ؟ » . قال : « هو على مقربة من ذلك المكان ، واذا شئت الذهاب توا الى مولاى الكونت والدك اوصلتك اليه حالا » .. فأصبحت فلورندا فى حيرة لا تدرى كيف تسير الى معسكر العرب قبل أن ترى الفونس وتدبر طريقة للاجتماع به او انقاذه . فلبثت صامتة فادرك سليمان سبب صمتها فقال لها : « يظهر انك تريدين البحث عن الامير الفونس قبل ذلك ، فاذا شئت فانى اعرف كرما من كروم شريش لعائلة من اهل هذه البلاد ، وفى الكرم بناء مرتفع يطل على سهول شريش كلها ، وحيثما عسكر القوم رايناهم . فتقيمين هناك مع خالتك والخادمين ، وامضى انا للبحث عن الفونس وآتيك بالخبر اليقين ، او استشير والدك » . فاستحسنت فلورندا رايه وشكرته ، وساروا حتى اطلوا على مدينة شريش وحولها الكروم وفى جملتها كرم صاحبنا الشيخ والد بطرس

وهو الذى عناه سليمان فصعدوا اليه واخترقوه يلتمسون العريش فلم يجدوا فى الكرم احدا . وكان سليمان لايمر من هناك الا ويرى الشيخ واولاده واحفاده يسرحون فى الكرم للعمل أو اللعب ، فقال سليمان فى نفسه ان لهذا سببا ذا بال . ومشوا حتى أتوا العريش فى بعض اطراف الكرم وقبل الوصول اليه سمعوا صوتا يناديهم تعودوا سماع مثله من نواطير الكروم فتقدم سليمان ولم يبال حتى دخلوا العريش فراى هناك الشيخ وكل ذريته معا ، والقلق باد فى وجوههم اجمعين . فلما راوه مقبلا ذعروا ، ونهض له بطرس فقال : « ماذا تريد ؟ » . ثم ما لبث أن عرفه فقال : « سليمان ؟ . مرحبا بسليمان التاجر ! » . وكان لذكر اسمه تأثير فى سائر اعضاء تلك العائلة لانهم كانوا يسمعون به وبعضهم كان يراه عند قدومه الى شريش لابتياع الخمر فى المواسم . وذهب عنهم بعض الاضطراب عند رؤيته ـ واهل القرى مهما بلغ من ذكائهم واقتدارهم فانهم يعتقدون فضل اهل المدن عليهم ـ فلما رآهم سليمان احتفوا به هذا الاحتفاء بالغ فى ملاطفتهم وتقدم الى الشيخ فسلم عليه وسأله عن سبب انزوائهم فى ذلك العريش فى أثناء النهار والكرم لا يستغنى عمن يتعهده فقال الشيخ : « يظهر انك لم تعلم بما طرأ علينا » . قال : « اظنك تعنى قدوم العرب » . قال : « نعم ولا ندرى ما يؤول اليه حالنا بعد هذه الحرب . ورأينا بالامس جند الملك قد عسكر مقابل جند العرب ولا تلبث الحرب أن تنشب ، وعندنا اطفال لا نستطيع الفرار بهم ولا نحن قادرون على ترك مغارسنا » . قال ذلك وصوته يكاد يختنق حنوا على اهله وولده

فابتسم سليمان وقال : « لا بأس عليكم يا عماه انى كافل لكم كل ما يحميكم ويحمى اولادكم من كل شر . ومعى اناس من اهلى سيقيمون عندكم الليلة ، فهل من مكان لهم ؟ »

قال : « على الرحب والسعة » واشار بيده الى جهة مستودع الخمر فى قمة الجبل ، ثم هرول مسرعا ومعه بعض اولاده حتى اقبلوا على فلورندا ورفاقها فتناولوا ازمة الخيل و قادوها الى ذلك المستودع ، وكان بعضهم قد سبق اليه فكنسه ونظفه فصعدت فلورندا وهى لا تزال بلباس الرجال وصعدت خالتها وخادماها ثم سليمان ، وظل اولاد الشيخ اسفل المكان ينتظرون ، فنزل سليمان فدفع اليهم قطعا من الذهب وطلب اليهم أن يأتوهم بالطعام ، واظهر السخاء فازداد اولئك الغلمان رغبة فى خدمته

اما فلورندا فلما صعدت الى ذلك المستودع أطلت من بعض نوافذه فرات تحت ذلك الكرم والى شرقيه سهلا واسعا على مدى البصر ، يخترقه نهر على ضفتيه الاشجار والاعشاب ، وفى احد طرفى السهل الى يمينها خيام على نمط لم تتعود مثله ، وفى وسطها خيمة كبيرة حمراء اللون امامهـا علم كبير ، وامام الخيام الاخرى اعلام اصغر منه . ورات وراء تلك المضارب خياما منفصلة عنها وفيها الدواب وبينها الجمال وهى لم ترها من زمن طويل . فعلمت انها ترى معسكر العرب فتنسمت ريح والدها من هناك ، وكان سليمان قد فرغ من صرف اولاد الشيخ وصعد فلما رأته قالت : « اليس هـذا معسكر العرب ؟ »

قال : « بلى يا مولاتى . والخيمة التى ترينها فى وسط المعسكر هى خيمة الامير طارق بن زياد . ومولاى الكونت يوليان والدك يقيم معه »

قالت : « وما تلك المضارب البعيدة ؟ »

قال : « هى اخبية النساء ومراتع الماشية . لأن العرب اذا ساروا الى الحرب اخذوا معهـم نساءهم واولادهم وماشيتهم ويجعلونهم وراءهم ، فاذا ضعفوا فى الحرب وحدثتهم انفسهم بالرجوع لقيهم اهلهم فيعودون وقد تشددوا وتحمسوا ! »

فحولت نظرها الى السهل من جهة اليسار فرات هناك خياما اخرى عرفت أنها مضارب الأسبان ، وفيها خيمة رودريك وخيمة الفونس. اما فسطاط رودريك فعرفته من كبره ومما فوقه من الاعلام والبنود وما امامه من الخدم والاعوان ، وان كانوا لا يظهرون لبعد المسافة . واما خيمة الفونس فلم تستطع معرفتها لتشابه خيام القـواد وهم كثيرون فأشارت الى خيمة رودريك وقالت : « اليست هذه خيمة الملك ؟ »

قال : « بلى واظنك تريدين معرفة خيمـة الامير الفونس فهـذا لاسبيل اليه الا بالبحث . وقد عقدت النية على أن ابحث عن ذلك بنفسى لما لوالدك من الفضل على »

فشكرت له فضله ثم قالت : « ومتى تذهب للبحث ؟ »

قال : « فى هـذه الساعة ، بعـد ان اهيىء لك ما تحتاجين اليه من الطعام . ولا بأس عليـك هنـا ومعك خالتـك والشابان وهما نشيطان »

قالت : « ومتى تعود الينا ؟ »

قال : « اما الرجوع فلا يمكن تحديد موعده ، وسأبذل الجهد فى الاسراع » . وبعد ان دبر كل شيء ودعهم ونزل والشمس قد دنت من المغيب

□

وكان سليمان كثير الاختلاط بالاسبان يتكلم لسانهم مع لسان القوط ، وكان يعرف العربية والبربرية ويحسن التكلم خصوصا بالاسبانية والقوطية فاذا كلم احدا باحداهما ظنه من اهلها . ونظن القارىء ادرك مما تقدم انه هو الرجل الذى جاء الجمعية اليهودية فى استجة منذ اشهر والفونس فيها ، وانبأهم بما عزم عليه يوليان

فلما فارق فلورندا عاد الى الطريق التى جاء منها ونزل الى معسكر الإسبان من ورائه ، لئلا يشك أحد فى قدومه من بعض القرى أو المدن . وما زال يتجسس وهو لا يتوقع ان يرى الفونس باقيا هناك فطال تجسسه دون ان يقف على اثره ، فسأل بعض العارفين فدلوه عليه فاذا هو فى الطرف وراء معسكر رودريك ، فجعل همه البحث عن يعقوب وعنده كل الاسرار . وكانت الشمس قد غابت قبل وصوله الى المعسكر ، فجعل يمر بين الخيام حتى اذا ما دنا من خيمة الفونس وجد ببابها بعض الحراس ولم ير يعقوب بينهم فمر من ورائها وتظاهر انه شرق بريقه وتنحنح نحنحة خاصة ما لبث ان سمع جوابا عليها من الداخل . فعلم ان يعقوب هناك ، وانه علم بقدومه فظل ماشيا فى طريقه ، فلم يلبث حتى سمع نحنحة دلته على مكان يعقوب والتقيا فسلما وتحدثا بلغة خاصة فقال سليمان : « اراكم لا تزالون هنا الم تنجح فى اقناعه ؟ »

قال يعقوب : « كدت أنجح لولا اوباس وكتابه »

قال : « اتعنى الاسقف اوباس الذى كان رجاؤنا فى النجاة من هذه الدولة موقوفا عليه ؟ »

قال : « بلى ، هو بعينه وقد اطلعتكم على ما دبرناه منذ بضعة أشهر ، ورايتم الفونس نفسه فى تلك الجلسة يوم اريناه الدنانير فى ذلك التابوت »

قال سليمان : « وقد رايت من الفونس اتحادا معنا على هذا الامر . فما الذى حدث بعد ذلك ؟ » . قال يعقوب : « خرجنا من تلك الجلسة وكله اقتناع بنجاح مشروعنا ، وقد افهمته ان العرب اذا اخذوا البلاد ابقوا له كل امواله واعادوا الحكم اليه ، وان سعادته فى انتصارهم على رودريك . واخبرته ان سقوط رودريك يتوقف على امر واحد لايقدر

فيه احد سواه وذلك ان ينضم هو ومن معه الى جانب العرب يوم المعركة الاولى ، فاقتنع وتواثقنا على ذلك »

فقال سليمان : « ثم ماذا ؟ » . فمد يعقوب يده الى جيبه واستخرج لوحا مشمعا من الواح الكتابة عندهم فى ذلك العصر ودفعه الى سليمان وقال : « وفيما نحن مطمئنون بذلك جاءه هذا الكتاب من عمه أوباس » . فتناول سليمان اللوح ونظراليه فلم يستطع قراءته لشدة الظلام فابتدره يعقوب قائلا : « لا تتعب نفسك فى قراءته فانى حفظته حرفا حرفا ، لكثرة ما اعدت قراءته من شدة غيظى من اوباس مع فرط اعجابى به . . ! انه يقول فيه :

« من المطران اوباس الى الابن المحبوب بالرب ولدنا الفونس

« بسم الآب والابن والروح القدس . سلام . اما بعد فقد بلغنى ما ارتكبه ولدنا الكونت يوليان من الخطأ فى حملته على رودريك بجند العرب ، ولا اظنه فعل ذلك الا انتقاما لابنته . وكانى بك لما بلغك الخبر سررت به لانه يشفي ماق نفسك من هذا القبيل . فأخاف ان يسوقك الضعف البشرى الى ما ساق اليه ولدنا المذكور ، فتوافقه على ما يضيع هذه المملكة ، ويبيد هذه الدولة ، فتهدمون فى يوم ما بناه اجدادكم فى اجيال ، وتدور الدوائر علينا وعليكم جميعا . فاذا كان قد خطر ببالك شيء من ذلك فانزعه عنك فانه من حبائل الشيطان ، واتحد مع ملك القوط للدفاع عن مملكة القوط . واما ما بيننا وبين رودريك من التباغض فاننا نتنازع عليه بعد الفراغ من محاربة الغرباء . فرجائى ان تصغى الى نصحى ، ولا تقبل قول سواى والسلام »

فلما سمع ذلك سليمان قال : « والله انه لقول رجل عاقل . ولكنه اذا عمل به فلا شك ان الضربة تعود علينا نحن اليهود ، خصوصا اذا فاز رودريك واستنطق بعض الاسرى وعلم بجمعياتنا ودسائسنا ومساعينا ضده . والذى اراه من قلة جند العرب مع بسالتهم وصبرهم ان الفونس اذا لم ينضم اليهم فالكفة راجحة فى جانب رودريك ، والعياذ بالله »

فقال يعقوب : ذلك هو اعتقادي ولكننى قد استنفدت الحيل فى سبيل اقناعه . وانت تعلم يا سليمان كم بذلت من الوقت والسعى من ايام غيطشة لانقاذ شعب الله من هذا الجور ، فتركت منصبى ، وتجاوزت عن اموالى ، وتظاهرت بالنصرانيـــة ، وجعلت نفسى خادما اهيىء الاطعمة واخدم على المائدة ، وصبرت على ذلك اعواما حتى اذا خلت

صبح الفرج قد اقبل اغلقه اوباس ، بعد أن كان اكبر نصير لنا ، بل المحرك الاعظم لمشروعنا ! »

فقال سليمان : « اما أوباس فانه يحمد على هذا العمل بالنظر الى العدل والحق ، فهو لا يريد ان تخرج هذه المملكة من يد ابن وطنه ودينه ولغته ويسلمها الى اناس غرباء عنه دينا ووطنا ولغة . اما نحن فيهمنا اخراجها من هؤلاء القوط على الاجمال ، لان المسلمين خير لنا منهم نظرا الى ما عاينته من معاملتهم لليهود والنصارى في الشام ومصر ، فانهم يطلقون لهم الحرية فيمارس كل منهم طقوس ديانته كما يشاء ، على أن يدفع مالا قليلا يسمونه الجزية . زد على ذلك أن اليهود أقرب نسبا للعرب ، لاننا واياهم من جد واحد هو ابراهيم كما تعلم ، فهم يرفقون بنا بنوع خاص ، فيجدر بنا والحالة هذه ان نكون عونا لهم فى تملكهم هذه البلاد . نفعل ذلك حبا لمصلحتنا ، ولا يهمنا كلام اوباس ولا غيره »

فقال يعقوب : « هذا هو الامر الذى نتمناه ، ولا سبيل اليه الا بانحياز الفونس الى العرب لان ذلك يقلل جند رودريك ويضعف عزيمته . ولا يخفى عليك ان معظم رجال هذه الحملة يحاربون مع رودريك رياء وهم لا يحبونه . فاذا راوا ابن ملكهم ينحاز الى العدو يهون عليهم ان يتبعوه ، او ان يتقاعدوا عن الدفاع على الاقل » . قال ذلك ويده فى لحيته يلاعب طرفيها باناملة وشعرها لا يزال متلبدا بالأوساخ . وسكت هنيهة ثم عاد فقال : « فالخلاصة اننا ان لم نستطع اغراء الفونس بالخروج الى معسكر العرب ، ذهبت مساعينا وارواحنا واموالنا ادراج الرياح »

فقال سليمان : « هذا هو الصحيح ، ولو كان هذا الوطر ينقضى بالمال لهان علينا أمره ، ولكن الرشوة لا مدخل لها فى هذا المشروع ، اذ لا نستطيع أن نرشو الفونس ولا اوباس ، واذا رشونا احدا من رجاله لا يستطيع التغلب على رأيه ، وانت اقرب الناس اليه ولم تستطع شيئا مع كثرة دهائك ومكرك » . قال ذلك وابتسم

فأجابه يعقوب : « دعنا من المجون فاننا فى معرض جد وخطر والوقت قد داهمنا » . قال سليمان : «ومتى ينوى رودريك القتال؟» . قال : « سمعت انه ينوى مهاجمة العرب غدا »

فبغت سليمان وقال : « غدا ؟ ! لقد داهمنا الوقت وفاتتنا الفرصة . الا تستطيع تأجيل الهجوم يوما او يومين ؟ » . قال : « لا اظننى

استطيع ذلك . وما الفائدة من التأجيل ؟ » . قال : « سأسعى فى طريق أظننى ابلغ منه المراد »

قال : « وما هو ؟ » . قال : « لا اقول لك الا بعد قليل، فاسعفنى أنت بتاخير المعركة يوما او يومين »

قال : « لا اظننى قادرا على ذلك يا سليمان ، لأن رودريك يرى العجلة فى مهاجمة العرب قبل ان تأتيهم نجدة فيقوى ساعدهم ، وقد اشار عليه بذلك اوباس »

فقطع سليمان كلامه وقال : « سبحان الله ، ما اوباس هذا ؟ كيف انقلب هذا الرجل من الشيء الى ضده ..؟ »

فقال يعقوب : « اذا كانت عندك حيلة فهاتها قبل فوات الوقت ».

قال : « انى ذاهب الساعة وساعود غدا صباحا بالأمر الذى دبرته فاذا استطعت سبيلا لتاخير المعركة فافعل استودعك الله » . قال ذلك وتحول راجعا الى حيث اتى ، ويعقوب واقف حتى توارى سليمان عن نظره ، فتحول الى خيمة الفونس وقد مضى هزيع من الليل

□

اما سليمان فانه سافر توا الى معسكر العرب والليل حالك حتى اتى خيمة يوليان ، فلم يعترضه احد لانه كان عارفا بشعار الليل عندهم . وكان يوليان قد اوى الى خيمته للرقاد وقلما كان يستطيعه لما تراكم فى مخيلته من الشواغل القديمة والحديثة ، فلما وصل سليمان كان يوليان جالسا فى الفراش وقد زاده الأرق انقباضا . ولو رآه سليمان على نور المصباح لرأى السوداء مرسومة فى وجهه بخطوط واضحة خصوصا بعد ان راى جنود رودريك بالامس ، وهاله ما رآه من كثرتهم واستعدادهم بينما جند العرب لا يزيدون على خمسهم ، فخاف ان يغلبهم القوط وتعود العاقبة عليه وعلى ابنته وسائر اهله ، وفيما هو فى ذلك اذ قيل له : « سليمان بالباب » . فأذن فى دخوله ثم ابتدره بالسؤال : « اين فلورندا ؟ » . قال : « هى فى خير ، وستأتى فى صباح الغد او بعد الفراغ من المعركة » واخبره بمقامها وطمأنه

فقال : « وما الذى حملك على المجيء الآن ؟ » . قال : « حملنى عليه امر ذو بال لا اظنه غاب عن بصيرة مولاى »

قال : « ما فى بصيرتى شيء الآن غير جنود رودريك فانى استكثرتهم وخفت على جند العرب منهم . واذا غلب العرب عادوا ولا يهمهم شيء وتقع المصيبة على رؤوسنا ورؤوس اهلنا وكل من قال بقولنا ! »

قال : « ذلك ما جئتك من اجله . ولكن اعلم يامولاى ان الامر على

وعورته يتوقف حله على أمر هين » . ثم قص عليه حال الفونس وما دار بينه وبين يعقوب بشأنه الى ان قال : « وقد جئت الآن التمس منك كتابا الى الفونس تدعوه فيه الى التسليم وتضمن له امواله واملاكه واملاك أهله اجمعين ، وتوغر صدره على رودريك بما لا يخفى عليك ، ثم تعطيني الكتاب فابعثه بطريقة أختارها »

فاطرق يوليان هنيهة ثم قال : « عد الى فى الصباح فاعطيك ذلك الكتاب »

قال : « سمعا وطاعة » . وخرج يلتمس مستودع الخمر وكانت فلورندا فى انتظاره على مثل الجمر تتقاذفها الهواجس وتترامى بها الأوهام لم يغمض جفنها الا قليلا . وكيف يزورها النوم وحبيبها على قيد خطوة منها ولا تستطيع الوصول اليه

وامر ما لاقيت من الم الجوى قرب الحبيب وما اليه وصول

مضى معظم الليل وهى فى هذه الهواجس ، وكلما هب النسيم وسمعت حفيف الورق توهمت سليمان قادما ، وكان شوقها يحدثها نه سيأتى والفونس معه . وبينما هى تفكر فى نحوذلك اذسمعت وقع الخطى وخشخشة الاعشاب اليابسة بقرب المستودع ، فأصاخت بسمعها وقد أسرعت دقات قلبها وتعاظمت حتى كادت تسمعها بأذنها فاذا هى بالخطوات تقترب ، ثم سمعت همسا فلم تتمالك عنالوقوف ودنت من النافذة واطلت فرات سليمان يخاطب اجيلا . ثم صعد سليمان السلم ففتحت له فلورندا واستقبلته وهى تقول : « ما وراءك يا سليمان ؟ »

قال : « ما ورائى الا الخير » ولكن غنة صوته كانت تدل على شىء فى نفسه فاضطربت فلورندا وابتدرته قائلة : « يظهر انك تضمر شيئا . قل لى ما الخبر ؟ » . فاستيقظت خالتها على هذا الصوت فقعدت وهى تمسح عينيها بأطراف اناملها وقالت : « ما الخبر يا سليمان . هل رأيت الامير الفونس ؟ »

قال : « كلا يا مولاتى »

فلما سمعت فلورندا ذلك انشغل خاطرها وقالت : « واين هو اذن ؟ » . قال : « هو فى هذا المعسكر » . قالت : « وكيف عدت من هناك ولم تره ؟ » . قال : « لان رؤيتى اياه لا تفيدنى ولا تفيدك شيئا ، لانه فى حال لا تساعده على سماع كلام احد غير عمه اوباس وهو يأمره أن يتفانى فى سبيل رودريك »

فلما سمعت ذلك تصاعد الدم الى وجهها ، واقشعر بدنها وصمتت

برهة ثم قالت وهي تبتسم استخفافا بما قاله سليمان ، ووثوقا بانصياع الفونس لقولها دون سائر العالمين : « اظنه يسمع قولي . لكن ما علاقة ذلك بتوقفك عن مقابلته ؟ »

قال : « ان لذلك علاقة كبرى بحياتك وحياتي وحياة مولاي الكونت يوليان ، وحياة كل قوطي ينتمي الى غيطشة ، وكل من لا يرضى ان يعيش ذليلا بين يدي رودريك ، لان بقاءنا جميعا يتوقف على انتصار العرب ، وذلك لا يكون الا اذا انضم اليهم الفونس هو ومن معه ، فينخذل رودريك لا محالة وتخلص البلاد من شره »

فأعظمت فلورندا امر الفونس ولكنها ما زالت ترجو ان ينصاع لقولها فعزمت ان تكتب اليه كتابا شديد اللهجة تستجمع فيه كل عبارات التحريض والتوبيخ والاستعطاف فقالت لسليمان : «ساكتب اليه كتابا هل تأخذه اليه ؟ »

قال : « نعم يا مولاتي اني رهين هذه الخدمة » . قالت : « اذا اصبحت تعال فادفع اليك الكتاب فتحمله اليه وارجو ان يكون نافذا بعون الله »

فاستبشر سليمان بذلك ومضى وكان الفجر قد دنا فتوسد حصيرا في عريش صاحب الكرم التماسا للراحة فغمضت عيناه ، ولم يستيقظ الا على صوت الطبول والابواق ، فنهض وقد اجفل واطل على المعسكرين فراى معسكر القوط يتماوج بالرجال وقد اخذوا في الاصطفاف للقتال وامامهم الرايات والأعلام ، وفي وسطهم موكب الملك رودريك بمظلته وسريره وفرسانه واعوانه . والتفت الى معسكر العرب فاذا هم في حركة كأنهم يهمون بالدفاع فأسقط في يده وتشاءم من ذلك اليوم وقال في نفسه : « فاتت الفرصة » . وقد زاد في تشاؤمه ما شاهده من الفرق العظيم بين عدد جند القوط وجند العرب ، ومقدار ما عند القوط من العدة والخيل والمؤونة ، فوثب من مكانه وثوب النمر واسرع منحدرا نحو معسكر العرب ليأخذ كتاب يوليان الى الفونس فوصل الى المعسكر وهو يلهث من التعب ، فراى المسلمين واكثرهم من البربر قد اصطفوا للحرب وعلى رؤوسهم العمائم البيض تقيهم حر الشمس وتتلقى عن رؤوسهم مواضي السيوف وحداد السهام كأنها درع للراس ، وفيهم حملة الرماح وحملة الحراب ونقلة القسي العربية . واما الفرسان فقد كانت عليهم دروع من الزرد وعلى رؤوسهم الخوذ لا يظهر من وجوههم غير الحدق ، وفي مقدمتهم فرسان يحملون الرايات وعليها الآيات القرآنية . ولم يصل الى الخيام حتى سمع

اصوات التكبير والتهليل وما فيهم الا من قرا الفاتحة والتفت سليمان فى وجوه الناس فلم ير بينهم من يبالى بما سيلاقى فى تلك المعركة من خير أو شر ، فاشتغل بذلك المنظر مدة عن يوليان ، ثم تذكر ما جاء به فانخرط فى صفوف الاجناد وهو يتطلع ويتشوف فلم يجد يوليان فسأل عنه بعض الوقوف فقالوا له انه ركب فى أثر طارق يستحثان الجند على الثبات . ولم يكد يتدبر ما سمعه حتى راى فرسانا قادمين من بعض اطراف المعسكر يتقدمهم فارس عليه درع سليمانية ، وعلى راسه عمامة كبيرة وليس على وجهه درع فظهرت سحنته وبانت ملامحه

□

نظر الى هذا الفارس فاذا هوطارق بن زياد قائد ذلك الجند وكان سليمان قد رآه غير مرة ولكنه لم يره عمره مثل ما رآه فى تلك الساعة ، فخيل له وهو ينظر اليه انه جبل على فرس وقد أزاح عمامته الى ما وراء جبينه فبان من تحتها جبين عريض تحته حاجبان غليظان ، تحتهما عينان احمر بياضهما من الجهد فى الذهاب والاياب . وله شفتان غليظتان ولحية شعرها شديد السواد الا شعرات قد وخطها الشيب . وكان العرق يتصبب من جبينه الى لحيته وهو لا يبالى بمسحه ، ولا يتلفت الى شىء أو يتفرس فى رجل ، ولكنه كان ينظر الى الجند اجمالا كأنهم رجل واحد . وقد امسك عنان جواده بيساره ، واستل حسامه بيمينه ، وحسر عنها كمه ، فبان زنده الشديد السمرة ، ولم يكن جواده اقل حماسة منه بل كان يستوقفه طارق فلا يقف الا وهو يتحفز للجرى وقد بلل العرق صدره وراسه

فتهيب سليمان من منظره ، ثم راى بجانبه فارسا يختلف عنه لونا وسحنة ويشبهه حماسة واقداما وبسالة ولكنه اصغر منه سنا واقل جسما . فتنحى سليمان جانبا ريثما يمر طارق ورفاقه لعله يرى يوليان بينهم فينفرد به ويطلب منه الكتاب ، فاذا بطارق قد وقف وتحول بوجهه نحو الصفوف الواقفة بين يديه ، ورفع يمناه والسيف مشرع فى قبضته ، فأدرك الناس انه يهم بالكلام فاصغوا اليه فاذا هو يقول بعد حمد الله والثناء عليه ، وحث المسلمين على الجهاد

« ايها الناس ، اين المفر ؟ ان العدو أمامكم ، والبحر وراءكم ، وليس لكم والله الا الصدق والصبر . واعلموا انكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام فى مادبة اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه واسلحته ، واقواته موفورة ، وأنتم لاوزر لكم الا سيوفكم ، ولا أقوات لكم الا

ما تستخلصونه من ايدي عدوكم . وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم امرا ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم . فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هذا الطاغية ، فقد القت به اليكم مدينته الحصينة ، وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لأنفسكم بالموت . واني لم احذركم امرا انا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة ارخص متاع فيها النفوس الا ابدا بنفسي . واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارفه الالذ طويلا . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظكم فيه باوفى من حظي . وقد بلغكم ما انشات هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهارا واختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان . ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته ، واظهار دينه بهذه الجزيرة . وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين . واعلموا اني اول مجيب الى ما دعوتكم اليه ، واني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق ، فقاتله ان شاء الله تعالى . فاحملوا معي فان هلكت بعده فقد كفيتكم امره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون اموركم اليه . وان هلكت قبل وصولي اليه فاخلفوني في عزيمتي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا اليوم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون »

وما فرغ طارق حتى تعالت اصوات الناس بالتهليل وقد تشددت عزائمهم ، وشعر سليمان عند سماعه ذلك الكلام بما فيه من بواعث التحميس ولكنه قلق لضياع الوقت واوغل في الناس يسأل عن يوليان فرآه في جلة الراكبين مع طارق فاسرع اليه ، فحالما رآه يوليان استدناه منه فجاءه فقال يوليان : « استبطاناك فبعثنا الكتاب مع رسول آخر »

فانشرح صدر سليمان لعدم ضياع الفرصة ، وتحول راجعا الى الكرم ليأخذ كتاب فلورندا اذ كان اكبر تعويلا عليه لما سيحويه من مثيرات العواطف . فوصل الى المستودع فراى فلورندا واقفة على السلم والكتاب في يدها فتناوله ولم يفه بكلمة محافظة على الوقت وهرول لا يلوى على شيء وهو في قيافة لا يشك من يراه فيها انه من

رجال رودريك ،وكانت الشمس قد اطلت على معسكر القوط ، فانعكست اشعتها على البستهم وبنودهم وخوذهم خصوصا موكب رودريك . فجعل سليمان طريقه من وراء الجند والناس فى شاغل لما هم فيه من التأهب ، فراى جند القوط قد ترتب على هيئة كراديس مثل نظام جند الروم ، وكان العرب الى ذلك العهد لا يزالون ينظمون جيوشهم صفوفا متراصة ، فكان جند رودريك مؤلفا من ميمنة وميسرة يقود الاخيرة الفونس . واما القلب فكان قائده رودريك نفسه ومعه الكونت كوميس ، وقد جلس رودريك على سريره وفوق راسه رواق من ديباج يظلله ، وهو فى غابة من البنود والاعلام وبين يديه المقاتلة بالسلاح وفيهم الفرسان بالثياب المزركشة . واما ثياب رودريك فقد كانت مرصعة بالدر والياقوت والزبرجد ، حتى خفه فانه كان من الذهب المرصع ! فأعجب سليمان بالفرق بين بساطة العرب وبذخ هؤلاء القوط ، واين قعود رودريك على ذلك السرير من ركوب طارق على ذلك الجواد ؟ على انه رأى فى موكب رودريك رجلا طويلا واقفا على دكة مرتفعة عليه لباس الكهنوت وقد رفع يديه نحو السماء وفى احداهما صليب مرصع ، ورفع صوته فى الصلاة ليتضرع الى الله لينصر جند القوط . فعرف سليمان من طول قامته وقوة عارضته انه اوباس . فوقف بالرغم عنه فرآه لما فرغ من الصلاة والتضرع اخذ فى حث الناس على الصبر والاتحاد ، وذكرهم بمجد آبائهم وشدة بطشهم وكيف فتحوا هذه البلاد بدمائهم

ولم يقدر سليمان على الصبر هناك فسار مسرعا حتى اتى ميسرة الجند وكانت عيناه شائعتين للبحث عن يعقوب ليدفع الكتاب اليه فلم يجده فى مصاف الجند فتحول للتفتيش عنه فى الخيمة . فلما وصل اليها راى ببابها رجلا فى مثل زى الجند لكنه لم يكد يتفرس فيه حتى عرف انه من رجال يوليان . فعلم انه هو الذى نقل رسالة يوليان الى الفونس فلما وصل اليه كلمه بحيث لا يسمعه احد فعلم منه ان الفونس داخل الخيمة يتلو الرسالة وعنده يعقوب

— ١٠ —

وكان الفونس منذ اتاه كتاب اوباس يغالب عواطفه ويقدر عواقب تلك الحرب فلا يرى فى الثبات خيرا ، ناهيك بما فيه من الخطر على فلوروندا وابيها . وكان منذ قرا كتابها الى والدها فى تلك الغرفة المظلمة

ما يزال يبحث عنها فلا يقف على خبرها ، ولم يكن يستطيع التدقيق فى البحث خوفا من رودريك . ثم سمع بقدوم العرب وايغالهم فى بوتيكة ويوليان رائدهم ، وكان فى عزمه أن ينضم اليهم اذا لم يكن انتقاما من رودريك فاكراما لفلورندا ، ولكن جاءه كتاب اوباس فأثر فى عقله تأثيرا عظيما كأنه استهواه بالتنويم المغناطيسى ، فاصبح كأنه فى بحر لا قرار له ، يشعر من جهة انه يجب ان يفعل بمشورة عمه ، ويرى ذلك من الجهة الاخرى مخالفا لعواطفه ومناقضا لمصلحته ، حتى اذا اتاه الامر من رودريك ان يوافيه الى شريش رجح عنده راى عمه ، واشتغل بالحرب والاستعداد لها وصورة فلورندا مع ذلك لا تبرح مخيلته ، ولكن عواطفه كانت مقيدة بسلطان عمه فأصبح بسبب ذلك منقبض النفس ضيق الصدر ، وقد نسى الابتسام واغفل الاجتهاد وسلم امره الى الاقدار !

ولما جاء رودريك بالامس وعسكر هناك ، سلم الى الفونس قيادة ميسرة الجند وامره ان يكون على استعداد للهجوم فى صباح ذلك اليوم . فبكر الفونس فى الفجر وامر قواده فرتب كل منهم فرقته فى موضعها ، ودخل خيمته ليلبس درعه وكان يعقوب يرافقه وعيناه تترقبان مجىء سليمان او خبرا من عنده حتى خاف ضياع الفرصة ، واذا هو برجل لايعرفه يطلب مقابلة الفونس ويبدو من عينيه انه يحمل خبرا سريا فسأله : « هل معك كتاب اليه ؟ وممن ؟ »

قال : « معى رسالة من الكونت يوليان » . ومد يده ودفع اليه لفافة من جلد ، فتناولها يعقوب ودخل وحده ، ولم يكن فى الخيمة غير الفونس فلم يتنبه له ، فاقبل يعقوب حتى دنا منه وتنحنح نحنحة تعود الفونس ان يكون وراءها خبر مهم ، وكان قد خلع قباءه ونزع قبعته واخذ فى لبس الدرع ، فبدأ بالجزء الذى يكسو الصدر والظهر وهم بلبسه ، وقد علقت حواشيه باطراف ضفائر شعره المسترسل على كتفيه فأخذ فى تخليصها ، فلما سمع نحنحة يعقوب التفت اليه فاذا هو يحمل بيمناه لفافة مختومة وقد جعل يسراه على صدره ، فتناول الفونس اللفافة وفضها فاستخرج منها ورقا مكتوبا ، فما قرأ اسم يوليان حتى خفق قلبه واستيقظت عواطفه ، وتصاعد الدم الى وجهه وظهرت عليه البغتة خصوصا بعد ان اتم تلاوته . وكان يعقوب واقفا امامه وقد اسند يديه متصالبتين على صدره فدفع الفونس اليه الكتاب كأنه يستشيره فى امره ، فتناوله يعقوب وقرأه فاذا فيه :

« من يوليان كونت سبتة الى الامير الفونس

« بسم الآب والابن والروح القدس . لا حاجة بي ايها العزيز الى اطالة الشرح فى المصائب التى توالت على هذه الجزيرة منذ تولاها هذا الباغى ، الى ما تعلمه من تعديه على الملك واخراجه من ايدى اهله بقتل والدكم المرحوم . فكرسي الملك لبيت غيطشة وانت ارشدهم جميعا . ولم يكتف بتعديه على الحقوق حتى تجاوزها الى الأعراض ، فمن كان هذا شانه فكيف يطاع امره ؟ والعرب يا الفونس دولة جديدة ملكت الخافقين بالعدل والرفق ، وهى منتصرة على رودريك لا محالة ، لأن اهل مملكته كلهم عليه حتى اقرب اقربائه ، والذى ينصره انما ينصر الظلم والغدر . وانت تعلم انى ضنين بك شفيق عليك ، لما بيننا من رابطة النسب الصحيح ، فاذا اطعتنى وانضممت الى جند العرب فانى ضامن لك كل ضياع المرحوم والدك فى الاندلس وهى ثلاثة آلاف ضيعة سلبكم رودريك اياها ، وترجع انت وسائر آل غيطشة الى ما كنتم عليه قبل استبداد هذا الطاغية . وانما كتبت هذا اليك رفقا بك وشفقة عليك ، والسلام »

وكان يعقوب يتلو الكتاب والفونس مطرق ، وشعره لايزال مسترسلا على كتفيه وقد علق بعضه بهداب الدرع ، فلما فرغ يعقوب من قراءته نظر الى الفونس وقال : « وما الراى يا مولاى ؟ » . قال : « الراى ؟ . . انت ادرى منى بما كتب به الينا عمى اوباس . فهل اعصى عمى واطيع يوليان ؟ » . فقال يعقوب وهو يحك قفاه : « لا اشير عليك بشيء فانك ادرى بالصواب ، وانا معك الى الممات . ولكننى استغرب ذلك الراى من اوباس وهو اعلم الناس بما اصابك واصاب سائر القوط من هذا الطاغية ، ولولا اعتقادى بقوة عقل اوباس وصحة بدنه لقلت انه يتكلم عن خرف . على انى لا احسبه الا كتب ذلك الكتاب ثم ندم عليه ، وفى كل حال فالراى لك »

فقال الفونس : « كيف تقول انه ندم ، وانا لا اجتمع به الا حرضنى على الثبات ، ولايزال صوت خطابه يرن فى آذاننا وهو يحرضنا على الاتحاد والصبر فى ساحة الحرب ، وهو لايتكلم جزافا اذ لولا اعتقاده بحسن عاقبة هذا الاتحاد لم يدعنى اليه ؟ ! »

قال يعقوب : « عمك اوباس يا مولاى حكيم وفيلسوف ، وواعظ ولاهوتى ، ولكنه لا يعرف امور السياسة . ولعلك اذا سمعت منى ذلك تقمت على وظننت انى اخدعك . ولكن دع ذلك عنك وانظر الى الكونت يوليان فانه والد فلورندا ، وهو انما ركب هذا المركب الخشن فى سبيل الدفاع عن . . . . . »

فمد الفونس يده وسد بها فم يعقوب بلطف وهو يقول : « يكفى يا يعقوب فاني عامل برأى عمى لانه لا يجهل شيئا نحن نعلمه ، وهو أدرى مني ومنك بالاسباب التى حملت يوليان على ذلك . وقد آن لى ان اخرج لقيادة الجند » . وعاد الى لبس الدرع نيئس يعقوب منه ولبث واقفا يحك عثنونه بطرف سبابته ، فسمع نحنحة سليمان خارج الخيمة فاستبشر وخرج ، فدفع اليه سليمان كتابا قال له انه من فلورندا ، فدخل به على الفونس فتناوله وفضه ، وحالما وقع نظره على الخط علم انه من فلورندا فاختلج قلبه وتزايدت ضرباته ، وظهرت البغتة على وجهه ، وارتعشت انامله حتى ظهر ذلك فى اهتزاز الكتاب ، ثم امتد الارتعاش الى كل اطرافه وهو يتجلد ويتظاهر بعدم التأثر ، ويعقوب يرى كل ذلك ويتجاهل . اما الفونس فقرأ الكتاب فاذا فيه :

« اكتب اليك على قطعة من ردائى بمداد من دمى ، وهو الرداء الذى قابلتك به فى حديقة القصر ، وقد تمزق تلك الليلة بين يدى رودريك دفاعا عن جوهرة هى لالفونس اكثر مما هى لى . وقد أرسلت اليك مع حامل هذا بعض ماتناثر من شعرى فى اثناء ذلك الدفاع ، ناهيك بما علق منه بنواتىء تلك الشجرة اليابسة تجاه نافذة قصرى وانا هاربة من الوحش الكاسر ! . هذا هو رودريك الذى اراك اليوم تحارب بسيفه ، وتدافع عن عرشه ، لتحفظ له ملكا اختلسه من ابيك ، وتستبقى له يدا سيمدها ثانية الى خطيبتك ، الى فتاة تزعم انك تحبها ، وقد فاتك انك ذاهب بها وبابيها وسائر اهلك واهلها الى الدمار ! . وكانى بك لم تعلم بما ارتكبه رودريك أو عزم على ارتكابه . فاعلم انه اراد ابتذال عفتى وهتك سترى ، فهددنى وخوفنى ، واملنى ومنانى ، وارانى السعادة فى طاعته والشقاء فى عصيانه ، ولم يصغ الى بكائى ولم يرق لتضرعى . فعصيته وآثرت الشقاء حبا لك ومحافظة على ودادك . ولعل طول البعد انساك عهودك على ضفة نهر التاج ، يوم مسست شعر راسك بانامك وقلت ان بقاء هذا الشعر حرام عليك ان لم تف بقولك ! اهذا هو الوفاء ؟ كانك تعهدت بقتلى وقتل والدى وسائر اهلك واهلى ، وكانك اقسمت ان تؤيد سلطان هذا الباغى ! فاذا علمت ما ذكرته لك وتذكرت ماضى عهودك ورايت البقاء عليها ، فاترك رودريك وجنده وتعال الى فوق هذه الرابية فى مستودع الخمر بين المعسكرين ، او الى والدى فى معسكر العرب . واما اذا كنت لا تزال على نصرة ذلك الظالم وكان

لحب فلورندا بقية فى قلبك ، فلا تتركنى اموت قبل ان اراك واشكو اليك جفاك ، واخاطبك واعاتبك ، واتزود منك بنظرة انسى بها ذلك الشقاء . واذا ضننت حتى بهذا فاستودعك الله الى ان نلتقى بين يدى الديان العظيم ، ومعنا رودريك يشهد على نفسه وعليك ، والسلام .

« فلورندا »

□

وما فرغ الفونس من تلاوة ذلك الكتاب ، وشاهد شعر فلورندا حتى احس كأنه استيقظ من رقاد. او هى عواطفه تنبهت من غفلتها ، وانحلت من قيود الاستهواء ، فاستولى عليه سلطان الغرام فانساه اوباس وكتابه وحكمه وآدابه . والحب سلطان نافذ الكلمة ماضى القضاء غالب على كل سلطان ، يستذل الملوك ويحطم سيوف القواد

ظل الفونس بضع دقائق مطرقا كأنه غائب الرشد ، ولم يبق فى مخيلته الا صورة فلورندا بثوبها الارجوانى الذى رآها فيه آخر مرة ، وبشعرها الذهبى ضمن تلك الشبكة ، وفى يده بضعة من كليهما ، وتذكر ما دار بينهما من التشاكى والعتاب ، وما تعهد لها به من اسباب السعادة بانتزاع الملك من رودريك . وتعاظم خجله واضطرابه حتى توهم انه يسمع صوت توبيخها وتعنيفها ويرى دموعها . وكان يعقوب واقفا بين يديه فلما راى اضطرابه وتأثره خرج من الخيمة تأدبا ليخلو الفونس الى نفسه ، فلما خرج لقيه سليمان وكان واقفا هناك على أحر من الجمر . فلما راى يعقوب استفهمه بالاشارة فأجابه باطباق عينيه ان الطبخة قاربت النضج . وفيما هما واقفان رأيا فارسا مسرعا نحوهما وفى يده شيء فتقدم يعقوب نحوه للسؤال عن غرضه فاذا هو من اتباع اوباس ، فلما تلاقيا تعارفا فسأله يعقوب عن غرضه فقال انه قادم بكتاب من اوباس الى الفونس ، فاستعاذ يعقوب بالله من ذلك الكتاب مخافة ان يكون فيه ما يفسد تلك الطبخة فعمد الى الاحتيال فقال : « ان مولاى الامير يغير ثيابه ولا يستطيع احد الدخول عليه »

قال : « انى مأمور بايصال هذا الكتاب اليه حالا »

قال : « هاته وانا ادخله عليه بعد قليل » . فدفعه اليه وانصرف وهو لايشك انه اتم مهمته . اما يعقوب فانه تظاهر بدخوله الخيمة ودار من ورائها وفض الكتاب فاذا هو بخط اوباس ونصه :

« لا يخدعنك اليهود بدسائسهم ، فانهم انما يريدون مصلحتهم وليست هى فى بقاء المملكة للقوط . اثبت فى الدفاع عن الوطن كما

حوظنى فيك ، واصغ الى قولى فانى بمنزلة ابيك » . فلما قرا يعقوب الكتاب انقلب الضياء فى عينيه ظلاما ، وعجب لتيقظ أوباس وانتباهه ، وادرك انه اذا لم تنفذ حيلته فى تلك الساعة ذهبت مساعيه ومساعى سائر اليهود هباء منثورا . فاستقدم سليمان وأطلعه على ذلك الكتاب وتفاوضا فقررا كتمانه عن الفونس ، وان يعجلا العمل قبل ان ينشب القتال ، فدخل يعقوب فراى الفونس جالسا على وسادة هناك وهو لايزال مطرقا ولم يتم لبس الدرع وشعره لايزال مسترسلا على كتفيه ، ولما رآه انتبه لنفسه ، فوقف وفى خاطره ان يطلع يعقوب على كتاب فلورندا ولكن الحياء منعه ، فابتدره يعقوب قائلا ان الرسول لايزال واقفا فى انتظار الجواب وقد امره صاحب الكتاب ان يعود سريعا »

فخطر لالفونس ان يرى الرسول ويساله شيئا لعله يتخلص من ذلك التردد فقال : « ادخله على »

فخرج واستقدمه فدخل سليمان وسلم متادبا فساله الفونس قائلا : « هل رايت كاتب هذا الكتاب ؟ »

قال : « نعم يا مولاى »

قال : « ومن هو وماذا تعرف عنه ؟ »

فاشار سليمان بعينيه نحو يعقوب كانه يخفى امرا لايريد التصريح به بحضوره ، فاشار الفونس الى يعقوب فخرج . فتقدم سليمان الى الفونس وقال : « أتسمح لى يامولاى ان اصرح بما أعلمه ؟ » . قال : « قل » . قال : « انى من اصدقاء الكونت يوليان صاحب سبتة وقد كلفنى ان استقدم ابنته فلورندا من دير كانت فيه قرب طليطلة فوصلنا بالامس » . قال : « واين هى الآن ؟ » . قال : « هى على مقربة من هذا المعسكر » . قال : « ولماذا لم تذهب الى والدها ؟ » . فاطرق سليمان وتظاهر بشىء يمنعه الحياء من ذكره ، فازداد الفونس رغبة فى الاطلاع عليه فقال : « قل كل ما تعرفه ولا تخف شيئا »

فرفع سليمان نظره الى الفونس وقد تباكى حتى ظهر الدمع فى عينيه وقال : « ماذا اقول يا مولاى ؟ ان فلورندا اصبحت فى حال يرثى لها من الضعف ، ولم ارها يوما واحدا فى اثناء رجوعها غير مبللة العينين . وكنت اظنها تفعل ذلك شوقا الى والدها فجعلت امنيها بقرب لقائه فلا تزداد الا بكاء ، ولما صرنا على مقربة من معسكر العرب حيث يقيم والدها ابت الذهاب اليه حتى كاد يغمى عليها . ثم فهمت من خالتها العجوز ومن قرائن اخرى انها مخطوبة لك ، وسمعتها تقول

انها تريد المجيء اليك ولو كنت فى ساحة الحرب . لم ار فى حياتى مثل هذا الحب فانها لم تبال بابيها فى سبيل لقاك . ولا اخفى على مولاى اننى عرفت ذلك رغم كتمانها اياه عن كل البشر . وهى التى سلمتنى هذا الكتاب واوصتنى ان اعود اليها بالجواب حالا وهى تبكى ! »

قال ذلك وتساقطت عبراته كانه يبكى بكاء صادقا ، فلم يتمالك الفونس عن ارسال الدمع . ثم سمع دق الطبول ونفخ الابواق فى المعسكر فعلم انهم شرعوا فى القتال ، فدق قلبه وراى انه لابد له من القطع فى احد الامرين . فتشاغل بلبس درعه واصلاح ثيابه وقد ترجح له ان يتبع هوى قلبه ويطيع فلورندا ولكن الحياء كان يمسكه

□

وبينما الفونس فى تلك الحيرة اذ دخل الخيمة رجل بلباس الكهنوت وهو يهرول ويتمتم ، فنظر الفونس اليه فاذا هو الاب مرتين بلباسه الرسمى الموشى وعلى صدره صليب مرصع ، والغضب باد فى وجهه . ولم يكن الفونس يحبه ، فلما رآه داخلا على تلك الصورة تلقاه بالسؤال قائلا : « كيف تدخل خيمتى قبل ان تنبهنى الى ذلك مع خادمى ؟ »

فقال مرتين وهو يتمتم كالعادة : « اى خادم تعنى ؟ ومتى كان الاب مرتين يستأذن قبل الدخول ؟ اين الكتاب الذى جاءك من عمك الآن ؟ ولماذا تخلفت عن القتال وانت قائد ميسرة الجند ؟ » . فاكبر الفونس اسئلته على تلك الصورة ، وكبر عليه أن يعتذر عن سبب تخلفه او ان يصرح بعدم وصول الكتاب اليه فقال : « وما شأنك وحضورى القتال ، او مايرد على من الكتب من عمى او من غيره ؟ » . فحمى غضب مرتين ولم يعد يعى ما يقوله وقال : « ان لى فيه شأنا تعلمه . واذا كنت لا ترى ذلك من شأنى فلا اظنك تنكره على جلالة الملك ، صاحب هذا الجند وقائده الاكبر » . وكان سليمان واقفا فى بعض اطراف الخيمة بحيث تقع عينه على عين الفونس ، وكلما قال مرتين قولا اشار سليمان بشفتيه وحاجبيه اشارة الاستخفاف والاستياء ، واذا رد عليه الفونس ابدى سليمان استحسانه واعجابه فازداد الفونس استمساكا بحميته ، فلما عرض مرتين بذكر رودريك وسلطانه زال حياء الفونس مما كانت نفسه تحدثه به ، ولم يكن جوابه الا الخروج من الخيمة مسرعا الى جواده فامتطاه ، وحول شكيمته نحو ميسرة الجند وهو يقول : « سوف ترون من هو صاحب

هذا الجند وما هو مصير اهل البغى ! وقد كنت اتردد فى الذهاب وحدى فها انذا ذاهب مع جندى ! »

وكان القتال قد بدأ وتطايرت السهام وتلألأت السيوف ، وعلا ضجيج الرجال وصهيل الخيول وصلصلة اللجم ، والملك فى قلب الجيش وحوله فرسانه واعلامه وبنوده ، واوباس يطوف الجيش على جواده وقد نزع قلنسوته فاسترسل شعره على كتفيه وظهره ، وامسك زمام الجواد بيسراه ورفع يمناه يحمل بها صليبا مرصعا ، وهو يستحث الجند على الثبات والصبر

ولما ركب الفونس جواده وقعت عينه على اوباس عن بعد ، فخاف ان يدركه قبل الفرار فيثنيه عن عزمه ، فساق جواده ولم يلتفت يمنة ولا يسرة حتى اتى فرقته ، فلاقاه ومبا وزميله قائدا الفرقة بعده ، فحدثهما ووعدهما خيرا ، وقد علمت انهما كانا يحبانه ويكرهان رودريك فاطاعاه وامرا الجند بالخروج من المعركة فتحولت ميسرة القوط كلها نحو معسكر العرب ، فتضعضع جند القوط واضطربت جوانبه !

اما مرتين فانه ما انفك منذ خروج الجند من طليطلة وهو يراقب حركات اوباس ويلقى الشكوك لدى رودريك فى اخلاصه وصدق نيته ، فلما نزلوا سهل شريش واصطف الجند للقتال راى الفونس قد تاخر عن الخروج للحملة ، ثم راى اوباس دفع الى بعض حاشيته كتابا سار به الى خيمة الفونس ، فظن سوءا واسرع الى الملك فاراه الرسول راكبا الى تلك الخيمة وهرع هو اليها كما تقدم . فلما خرج الفونس وسليمان وبقى هو فى الخيمة وحده عظم عليه ما كان من استخفاف الفونس به ، فالتفت الى ما حوله فوقع نظره على رق ملفوف فتناوله وهو يحسبه كتاب اوباس ، فاذا هو كتاب فلورندا وقد نسيه الفونس هناك لغضبه وتسرعه ، ففرح مرتين بذلك الكتاب فرحا شديدا وفهم منه مقام فلورندا ، ولكنه ما زال يعتقد (او يريد ان يعتقد) ان اوباس كتب اليه بالانضمام الى العرب !

وخرج مرتين من الخيمة ونظر الى الجند فراى الفونس وفرقته يسيرون نحو معسكر العرب ، فركض الى رودريك وكان لايزال على سريره فى وسط موكبه ، فنظر الى مرتين فاذا هو يشير باصبعه الى الفونس ورجاله ، فلما رآهم رودريك يسوقون خيولهم الى معسكر العرب استشاط غضبا وقال : « ما الذى غيرهم ؟ »

قال : « غيرهم كتاب حضرة الاسقف ، وقد قلت لك انى لم

اكن اطمئن بظواهره فمر بالقبض عليه الآن واسجنه ، قبل ان يفر هو أو يحرض باقى الجند على الفرار! » . فامر رودريك رئيس حرسه ان يقبض على أوباس حالا فاسرع رئيس الحرس ومعه كوكبة لانفاذ امر الملك !

اما مرتين فلم يشف غيظه القبض على أوباس فاراد ان ينتقم من الفونس ، فاغتنم غضب رودريك ودفع اليه كتاب فلورندا فتلاه وهو ينتفض من شدة الغيظ ، لما حواه من الطعن فيه والتحريض على أذيته . فلما فرغ من تلاوته اصبحت لحيته ترقص على صدره واناملة ترتجف ، وصاح فى مرتين : « اين هو المستودع الذى تقيم فيه هذه الفاجرة ؟ »

فاشار مرتين الى المستودع وهو يقول : « اظنه هذا »

فامر رودريك كوكبة من فرسانه أن يذهبوا للقبض على من فيه ، ويسوقوهم اليه احياء او امواتا

□

ظلت فلورندا بعد ذهاب سليمان من عندها فى ذلك الصباح جالسة الى النافذة تراقب حركات الجند وسكناته ، وكان أكثر اهتمامها بالميسرة لعلمها ان الفونس هناك ، ولا تسل عن اضطرابها وقلقها ، فلما رات الميسرة تهرع الى معسكر العرب اطمانت وايقنت بالفرج ، ورقص قلبها طربا . وكانت الخالة واقفة الى جانبها وهى لا تكاد تتبين ما يجرى لقصر نظرها ، فلما اخبرتها فلورندا بما راته شاركتها الفرح ، وكان اجيلا وشانتيلا واقفين على مرتفع بجانب المستودع يراقبان حركات القتال ، فلما رايا ميسرة القوط انضمت الى العرب اسرعا الى فلورندا فاخبراها ففرحوا جميعا ووقفوا يتحادثون بما شاهده كل منهم فى اثناء المعركة مما لم ينتبه له الآخرون

وفيما هم فى ذلك اذا بالشيخ صاحب الكرم قد اسرع ومعه بعض غلمانه واطفاله يركضون حتى صعد المستودع وهو يصيح : « اين سليمان التاجر ، فانه وعدنا بالحماية ؟ »

فاطلت فلورندا من النافذة فرات كوكبة من فرسان القوط يسوقون خيولهم بين الدالية لا يالون بتكسيرها ، حتى وصلوا الى المستودع وفى ايديهم السيوف مسلولة . فحالما راتهم فلورندا علمت انهم من رجال رودريك فاصطكت ركبتاها وارتعدت فرائصها وصاحت : « أجيلا ! شانتيلا ! »

وكانا قد جاءا للدفاع قبل سماع صوتها ولم يباليا بكثرة الفرسان

القادمين ، وساعدهما على ذلك اولاد الشيخ ونساؤه ، وعلت ضوضاء النساء والاطفال وفلورندا واقفة فى النافذة مع خالتها تقرع صدرها وتصلى الى الله أن ينجيها ، وتتوسل الى السيد المسيح والى العذراء مريم أن يدفعا عنها ذلك الشر . ثم نظرت الى اسفل المستودع فرات اجيلا وشانتيلا قد وقعا قتيلين بعد ان قتلا بضعة من رجال رودريك فحزنت عليهما حزنا شديدا . ولكنها اصبحت فى شاغل من نفسها ولم تجد من تستغيث به غير الله ، فجثت فى وسط المستودع وكشفت صدرها وحلت شعرها ونظرت الى السماء وجعلت تقول وهى تلطم وجهها وتقرع صدرها وصوتها مختنق من شدة البكاء : « الهى انت نصير الضعفاء . الهى انت منقذ المظلومين . اللهم اشفق على صباى . احمنى من هؤلاء الظالمين اكراما لدم ابنك المسفوك على الصليب» . ثم اختنق صوتها فبلعت ريقها وعادت الى الصلاة وهى لا تبالى بوقع الاقدام على السلم الخشبى المؤدى اليها ولم تلتفت الى شىء مما حولها ، وانما صوبت حواسها وعواطفها وافكارها كلها الى السماء وهى على ثقة تامة أن الله لا يتخلى عنها . وكانت خالتها جاثية بجانبها تعيد دعاءها وتؤمن لها

اما الفرسان فانهم قتلوا ذينك الشابين وبضعة من اولاد الشيخ ، وصعدوا الى المستودع صعود الذئاب الخاطفة يتقدمهم رئيسهم وهو من اهل بلاط رودريك ، وكان قد شاهد فلورندا فى طليطلة غير مرة فلما رآها فى المستودع لم يعرفها لما طرا عليها من التغير بالاسفار ، ثم ما كان من تغيير حالها فى تلك الساعة وهى محلولة الشعر مكشوفة الصدر حاسرة الزندين ، وقد توردت وجنتاها من اللطم والصفع ، واحمرت عيناها وتكسرت اهدابها من البكاء ، وبلل الدمع وجهها وامتزج بالعرق المتساقط على صدرها فتبلل شعرها وقميصها . فلما رآها الفارس على تلك الحال وقد دخل ولم تنتبه له ناداها فلم تجبه ، فتقدم اليها وامسكها بزندها وجذبها نحوه فالتفتت اليه فرات بيده الاخرى سيفا لا يزال يقطر دما وقد تلطخت انامله الاخرى بالدم، فلما شاهدت ذلك ازدادت رعبا ولكنها تجلدت وقالت : « ماذا تريدون ؟ »

قالوا : « نريد ان نمضى بك وبمن معك الى الملك رودريك »

فلما سمعت اسم رودريك صاحت : « لا . لا . لا اذهب اليه »

فقال لها الفارس : « سيرى برضاك والا اخذناك قهرا ، ولا اظنك تستطيعين النجاة من ايدينا ونحن جماعة ! » . قال ذلك وصاح فى



ونظرت فلورندا إلى السماء وجعلت تقول : « إلهي
أنت نصير الضعفاء !. إلهي أنت منقذ المظلومين ! »

رجاله فقبضوا عليها وجروها والعجوز تصيح فيهم وتستعطفهم وما من مجيب ، حتى نزلوا من المستودع فأركبوها فرسا واركبوا خالتها فرسا آخر وساقوهما وفلورندا لا تزال محلولة الشعر مكشوفة الصدر ، محمرة الوجه ، دامعة الطرف ، وهي تستغيث بالله وتستنصره على القوم الظالمين ، والفرسان لا يبالون بصياحها ونحيبها حتى انحدروا من تلك الأكمة وانتهوا الى ساحة الحرب . فوقع نظر فلورندا على رودريك في موكبه وقد حمي وطيس الحرب والتحم الجندان بين فارس وراجل واختلط المسلمون بالقوط . وقد تضعضع هؤلاء حتى اضطر رودريك للنزال والدفاع بنفسه

وكانت فلورندا قد يئست من النجاة فودت لو ان نبلا من النبال المتساقطة يصيب صدرها فينجيها من رؤية رودريك . ثم التفتت فرات فارسا من جند المسلمين يجول في المعمعة على مقربة منها وهو صبوح الوجه متناسب الملامح لولا عمامته ولباسه العربي لظنته قوطيا ، وقد شد عمامته على راسه شدا وثيقا ، واستل سيفه واخذ يهاجم صفوف القوط فيبددها ، ثم التفت الى فلورندا فلما وقعت عينه على عينها صاحت فيه واستنجدته بلغة لم يفهمها ، ولكنه فهم مرادها من اشاراتها وملامحها ، ووقعت من نفسه موقعا عظيما من اول نظرة واسرع للدفاع عنها فحول شكيمة جواده نحوها وشهر سيفه وصاح : « ابشري يا مليحة أتاك بدر . لا تخافي ! »

وجاء في أثره بضعة من فرسان البرابرة يصيحون بكلمة التوحيد وبأيديهم السيوف ، فلم يستطع فرسان رودريك الثبات امامهم طويلا فلما خافوا اخفاق مسعاهم أسرع احدهم الى الملك يستنجده فلم يتمالك انجاء بنفسه وقد تحول عن سريره الى جواد مثقل بالزخارف ، والمجوهرات على تاجه ونطاقه وسيفه وقبائه حتى نعاله ، وكذلك عدة الفرس فقد كانت مرصعة ، كما كان الجواد من اجل الخيول شكلا وقواما ، ولكن جواد بدر يفضله خفة وسهولة مثل سائر خيول العرب

وكان بدر قد شتت شمل الفرسان عن فلورندا حتى اوشكت ان تنجو واذا برودريك قد اقبل بأثقاله فلما وقعت عينها على عينه صاحت هي وخالتها بصوت واحد ، ناهيك بصوت يرجو به صاحبه النجاة من الموت والعار معا : « هذا هو طاغية القوط ! »

فتحول بدر اليه وعرف من قيافته انه الملك ، وتبارزا ، وكان بدر انشط بدنا واخف مركبا فتجاولا وتصاولا اذ كان رودريك من القواد

المعروفين . وكانت فلورندا على جوادها وعيناها شاخصتان الى الرجلين تراقب كل حركة من حركاتهما ، وقد حبست انفاسها لئلا يشغلها التنفس عن مراقبة تلك المبارزة لعلاقة ذلك بحياتها أو مماتها ، فاذا هجم رودريك اشارت بيدها كأنها تشارك بدراً في تلقي ضربته ، واذا هجم بدر أحست كأنها تهجم معه وهي بالحقيقة واقفة مكانها ولكن جوارحها كانت تشارك نصيرها بكل حركة . ثم ما لبثت ان رات رودريك يستمهل بدرا بالاشارة ، وكان بدر يود ان يقبض عليه ويسوقه الى طارق اسيرا لينال بأسره فخرا ، فلما رآه يستمهله اجابه بالاشارة ايضا ان يمضي معه الى معسكر المسلمين ، فعاد الى استمهاله فامهله دون ان يفكر في انه انما يخدعه وينوي الفرار ، فقد كان بدر مستخفا بالرجل ولكن رودريك حول شكيمة جواده نحو خيامه واطلق له العنان ، فالتفت بدر الى رفاقه وكلمهم بالبربرية ان « خذوا هذه الفتاة الى خيمتي » واقتفى اثر رودريك

وكان القوط قد ضعفت عزائمهم فلما راوا ملكهم فارا اركنوا الى الفرار . اما بدر فما زال يتعقب رودريك ورودريك يجول في معسكره كأنه يفتش عن ضائع ، وبدر يتبعه ويعجب من مسيره على تلك الصورة ، حتى انتهيا الى خيمة خرج منها كاهن امتطى فرسا وهم بالفرار ، فصاح رودريك فيه « مرتين ! » فالتفت مرتين واقترب من رودريك فابتدره رودريك بسيفه وهو يقول : « كل هذا البلاء من فساد سريرتك وضعف رايك » فاصابت الضربة عنقه فوقع مضرجا بدمه ، فتركه صريعا وساق جواده نحو الوادي وبدر يتبعه ، حتى وصل ضفة النهر . والظاهر انه لم يعد يقوى على ردجماح جواده فارسله في الماء فغرقا معا . ويقال انه فعل ذلك عمدا وفضل الموت غرقا على ان يقتله احد من اعدائه . فرجع بدر وهو يصيح : « قتل الطاغية ! قتل الطاغية ! » فازداد المسلمون جراة واوغلوا في معسكر اعدائهم . ولم تمل شمس ذلك اليوم الى الاصيل حتى خلا المعسكر من القوط الا من وقع قتيلا او اخذ اسيرا ، واستولى المسلمون على ما فيه من العدة والذخيرة والزاد والامتعة والخيول والماشية وغير ذلك

وكان طارق بن زياد في اثناء المعركة يجول على جواده ويحرض المسلمين على الثبات ، ويكافح ويجالد ويقاتل لا يبالي بقلة رجاله بالنسبة الى رجال القوط ، ولم يكن يعلم بما كتبه يوليان الى الفونس ، ولكنه صمم على التفاني في سبيل الفتح منذ وطىء الاندلس كما رايت من خطابه الذي ذكرناه ، فاحرق سفائنه حتى ييأس رجاله من التعلق

بها أو الالتجاء اليها اذا غلبهم القوط ، ولذلك لم يكن يبالى بكثرة عدوه أو قلته وانما كان همه وهم من معه الصبر والثبات

فلما رأى الفونس ورجاله ينضمون اليه شكر الله على ذلك وازداد ثقة بالنجاح ، وحرض المسلمين على الثبات حتى قضى على القوط بالفرار كما رأيت ، وكانت تلك الواقعة الضربة القاضية على مملكة القوط قتل فيها ملكهم ونخبة قوادهم

□

فلما فرغ الجند من الحرب وتراجعوا الى خيامهم امر طارق بأن يحملوا اليه الغنائم والسبايا والأسرى على العادة بعد كل قتال ، فحملوا كل ما غنموه من العدة والسلاح والآنية والذخيرة والجواهر والتحف ، واكثرها من الصلبان والخواتم وفيها الفضة والذهب بين مرصع وغير مرصع ، وجاءوا بالأسرى وفيهم المقيد والموثق والسليم والجريح . فتجمع من ذلك كله شيء كثير حتى اصبحت الاسلاب ركاما أمام الفسطاط ، والأسرى جماعات مشدود بعضهم الى بعض بأعناقهم أو ايديهم او ارجلهم والرجال لا يزالون يأتون بهم زرافات ووحدانا

واجتمع قواد الجند امام فسطاط طارق على بساط كبير من جملة الغنائم افترشوه هناك ، فجلس طارق فى صدر المكان والى يمينه الكونت يوليان والى يساره الامير الفونس وبين يديه كبار القواد وفى جملتهم بدر . وكان الفونس قد لقى يوليان ساعة انضمامه الى جند العرب وتحادثا مليا فى شأن المملكة وما كان من امر اوباس وذكرا فلورندا وانها مقيمة فى المستودع حتى يرسلوا فى طلبها ، وصمما على ان يستقدماها فى صباح الغد بعد الفراغ من قسمة الغنائم والأسلاب. وكان الفونس منذ انقضاء المعركة يتفرس فى الأسرى لعله يرى اوباس بينهم وهو لا يتوقع ان يراه أسيرا لعلمه انه يفضل الموت على الأسر

فلما تكامل اجتماع القواد وكل طارق الى كبير منهم ان يخرج خمس الغنائم حسب العادة لبيت المال ويقسم الباقى بين القبائل على مقتضى تعدادها وكان يقول ذلك وامارات الاعتزاز والافتخار بادية فى وجهه ، والفونس ويوليان يتساءلان فى امر أوباس هل قتل او فر او اسر ؟ وكلاهما يستبعد وقوعه فى الأسر ، واذا هم بجماعة من جند العرب يحوقون رجلا طويلا شعره مسترسل على ظهره وكتفيه ولما دنوا من الفسطاط تقدم أحدهم وهو يقول لطارق : « وجدنا هذا الأسير مغلولا فى مضارب القوط فحللنا وثاقه وجئنا به »

فقال : « الى به »

فاقبل اوباس وهو لا يزال كما كان فى اثناء القتال محلول الشعر وفى صدره صليب وبيده صليب . فلما وقع نظر الفونس عليه لم يتمالك ان نهض حتى وصل اليه فجثا امامه واكب على يده وجعل يقبلهما ودموعه تتساقط بلا بكاء ، وفعل نحو ذلك يوليان وقد امتزجت فى وجهه امارات السرور بالنصر بامارات الخجل من الخيانة ، فانحنى على يد اوباس فقبلها وامسك به ودعاه للجلوس فى صدر المكان . وكان طارق وبدر وسائر القواد قد تحولت انظارهم الى ذلك القادم وقد زاد هيبة وجلالا باسترسال شعره ، فاخذ ينظر الى الذين حوله بلا اكتراث . ولما دعاه يوليان للجلوس امسك عن مجاراته وظل واقفا فى مكانه يتفرس فى وجوه الناس . ولو استطاع الفونس التفرس فى عينى اوباس لرآهما تتلألآن بالدمع رغم اعتقاده ان الطبيعة لاتستطيع قهره ، وهى لا تستطيع قهر العاقل اذا استذل عواطفه واخضعها لعقله ، فانه لا يرى فى حوادث الطبيعة ما يدعو الى الحزن او الى الفرح ، والحياة بجملتها فى نظره نسمة من نسمات الوجود ، فما قولك باعراضها ! ولكن المرء لا يخلو من العواطف فهو عرضة للحزن والفرح ، فلا تلومن اوباس على البكاء وقد راى ذهاب دولة القوط من اسبانيا بسوء تدبير رجل واحد رغم ما كان يؤمله هو من ملافاة ذلك ، حتى اذا كاد يدرك مراده ذهبت مساعيه ادراج الرياح وجوزى جزاء سنمار ! . على ان اسفه ما لبث ان تحول الى الاعتبار ، فلما دعاه يوليان للجلوس توقف هنيهة ثم قال بصوت جهورى فيه خشونة من عظم التأثر : « تدعونى يا يوليان للجلوس فى مكان تحسبه بيتك وانت قد خسرت اليوم هذا البيت ؟ بعته يا يوليان بارخص الاثمان ، وانت تزعم انك فعلت ذلك انتقاما من رجل ساقه ضعفه الى مس كرامتك ، فسقت نفسك واهلك وسائر رجال القوط والاسبان الى ضياع انفسهم واموالهم واعراضهم . حتى ابنتك التى ارتكبت هذه الخيانة غيرة على عرضها قد ذهبت سبية فى يد رجل لا هو من دينك ولا امتك ولا لغتك ! »

وكان اوباس يتكلم والحضور مطرقون حتى العرب ، مع انهم لم يكونوا يفهمون ما يقول ولكنهم هابوا صوته ومنظره . اما يوليان فانه كان يذوب خجلا فلما سمع ما يقوله عن فلورندا وسبيها انتبه واجفل ، وكذلك الفونس ، ولم يتمالكا ان قالا بصوت واحد : « اين هى ؟ » ولم يستغربا اطلاعه على ذلك ولا استخفا بقوله لانه لا يقول عبثا .

فلما سألاه عنها وجه خطابه الى الفونس وقال : « ضاعت خطيئتك منك ، وما أنت لها وقد ارتكبت ما لم يرتكبه رودريك ، لانك خنت بلدك واهلك واضعتهم جميعا ! . فاذا كنت فعلت ذلك عقابا لرجل اراد ان يمس عرضك ، فما هو مقدار العقاب الذى تستحقه أنت وقد جعلت أعراض القوط واموالهم وارواحهم عرضة للسلب والقتل ؟ »

فلم يكن جواب الفونس غير البكاء . واما يوليان فانه أحس بتبكيت الضمير خصوصا لما سمع بضياع ابنته ، واراد ان يستفهم عنها فتهيب وظل مطرقا

وكان طارق وبدر يسمعان كلام اوباس ويعجبان به وهما لا يفهمان ما يقوله . فالتفت طارق الى ما حوله يبحث عمن يترجم له اقواله . فرأى سليمان التاجر فأدرك سليمان غرض طارق قبل ان يسأله ، فتقدم وفسر له كلام اوباس وهو يتوقع ان يستاء منه فاذا هو قد زاد اعجابا وخاطب اوباس بواسطة سليمان قائلا : « بورك فيك من رجل عاقل وشهم كامل ! انى لاعجب من فشل جند القوط وفيهم رجل حكيم مثلك ، مع كثرتهم واستعدادهم »

فقال اوباس : « لا تعجب يا ولدى ان للدول آجالا كما للناس . فاذا جاء اجلها خابت الحيل فى استبقائها . على انى كنت احسب اجل هذه الدولة اطول من ذلك ، فعجله ضعف رأى الملك وفساد نيات اهل شوراه . وهكذا اراد الله »

قال طارق : « فاذا كانت هذه ارادة المولى فلا يسؤك خروج هذه الدولة من ايدى القوط ، فان دخولها فى حوزة المسلمين من أسباب سعادتها ، لأن اهلها يعيشون فى ظلنا ندفع عنهم الاعداء ونضمن لهم الأمن ، ولا نكلفهم عن ذلك الا جعلا قليلا هو الجزية ، فاذا ادوها بات كل منهم آمنا على عرضه وروحه وماله » . قال ذلك وأمسك بيد أوباس ومشى به وهو يقول : « هلم بنا الى الفسطاط ريثما يفرغ القواد من قسمة الغنائم »

فمشى اوباس ويوليان والفونس وبدر ومعهم سليمان ويعقوب حتى دخلوا الخيمة وكانت كبيرة ، فقعد طارق فى صدرها واقعد أوباس الى يمينه ويوليان والفونس الى يساره ، وقعد بدر فى جانب من جوانب الخيمة وهو لا يزال لابسا الثوب الذى حارب به وعليه السيف والدرع . ولم يكد يوليان يراهم استقروا هناك حتى ذهب تهيبه من اوباس فعاد الى الاستفهام عن فلورندا فقال : « سمعتك يا مولاى تقول ان فلورندا ذهبت سبية فهل تعنى ذلك حقيقة ؟ »

قال : « ومتى كان أوباس يتكلم جزافا ؟ »
فزاد اهتمام يوليان واستغرابه وأراد الاستيضاح فسبقه الفونس وقال : « وكيف ذلك ؟ ومن سباها ؟ »
فقال أوباس : « لا اعرف اسم الرجل ولكنني رايتها وانا مسجون في الخيمة محلولة الشعر تستنجد السماء لتنقذها من رودريك وكان قد بعث يستقدمها اليه . فجاءها فارس عربي لكنه غير بربري عليه عمامة بيضاء فانقذها وتعقب رودريك لا ادرى الى اين ، ولكنه امر رجاله أن يحملوها فحملوها نحو هذا المعسكر ــ سبية بالطبع ــ وهي ملك للذى سباها ! »
فقال يوليان : « هل تعرف ذلك الرجل اذا رايته ..؟ يظهر انه اخذها اليه واخفاها عن الامير طارق لأنى لم ارها بين السبايا »
قال أوباس : « أظنني اعرفه اذ انه يمتاز عن كل الجند ببياض لونه وشقرة شعره »
فلما سمع يوليان ذلك اتجه فكره الى بدر فالتفت اليه وكان جالسا على عدة خطوات منه ، يسمع كلامه ولا يفهمه لانه لا يعرف القوطية. على انه لو فهم ان سبيته ابنة يوليان لم يبال لانه ما زال حاقدا عليه منذ حرمه بنت الشيخ صاحب الكرم ليلة نزولهم شريش . وكان يوليان خشن المعاشرة بسبب ما تسلط عليه من السوداء منذ بضعة عشر عاما لمصيبة المت به فاذهبت صبره واصبح ضيق الخلق قصير البال ، فكان رفقاؤه لايسرون بمعاشرته خصوصا بدر لما بينهما من البون فى السن . فلما نظر اليه يوليان كان يتلهى بتقليب سيفه بين انامله وفكره عند فلورندا لانه كان قد افتتن بجمالها ، فلما رآه يوليان مشتغلا عنه التفت الى طارق وافهمه خلاصة حديثه مع أوباس ، وانه يظن بدرا هو الذى سباها ، ورجاه أن يطلبها منه ، فالتفت طارق الى بدر وناداه : « بدر »
وكان بدر قد سمع كلام يوليان لطارق وفهم قصده فلما سمع طارق يناديه اجابه وهو لا يزال جالسا : « نعم »
وكان طارق شديد التعلق ببدر يحبه ويدلله ويعامله معاملة الأب لابنه او الأخ الاكبر لأخيه ، فلما رآه أجابه بلا اكتراث ابتسم له وقال : « اراك لا تزال جالسا ، الم تسمع ندائى ؟ »
فقال : « سمعت واجبتك »
فقال طارق : « قم الى لأسالك سؤالا »
فوقف وقال : « وما سؤالك ؟ اسأل كل ما تريده واطلب ماشئته

الا سبيتي فانها لي ولا حاجة الى كثرة الكلام » . قال ذلك وهو يصلح عمامته كأنه يستعد للنزال ، فضحك طارق حتى بانت نواجذه وقال : « لا ادرى ما سبب غضبك ونحن لم نخاطبك فى شيء بعد . الا سمعت قولنا ثم قلت ما تقوله ؟ »

قال بدر : « قل فانى سامع »

قال : « احك لنا كيف عثرت على هذه السبية »

فقص عليهم بدر الحكاية باختصار حتى انتهى الى فرار رودريك وكيف انه قتل الأب مرتين ثم غرق فى النهر . وكان الفونس واوباس لا يفهمان ما يقول فتقاربا واستدنيا سليمان ليترجم لهما . فلما وصل الى مقتل مرتين بيد رودريك قال أوباس فى نفسه : « لم يكن يليق قتله بغير تلك اليد ! » فلما فرغ بدر من حكايته قال له طارق : « لا شك انك استأثرت بهذه السبية وانت لا تعلم أنها ابنة الكونت يوليان ! »

قال : « نعم انى لم اكن اعلم ذلك ، ولكن علمى لا يغير شيئا من عزمى ! »

قال ذلك وتحول يريد الرجوع الى مقعده فناداه طارق بلهجة الجد وقال له : « كيف لا يتغير عزمك والكونت يوليان هو الذى اكسبنا هذا النصر ، ولولاه لم ندخل هذه البلاد ؟ أيليق بنا أن نسبى ابنته ووحيدته ؟ . ارجعها اليه ولك ما شئت من سبايا هذه الجزيرة وغنائمها »

فقال : « لا اريد شيئا غير هذه ، وهى غنيمتى فى الحرب . وهو الذى منعنى بالامس من غنيمتى الاولى لانها لم تؤخذ فى أثناء القتال ، وهذه ؟ الم اغنمها فى ساحة الوغى ؟ الم احارب ملك القوط من اجلها ؟ وقد قتلته وكان قتله سببا فى فشل جنده . اتستكثرون على فتاة سبيتها ، وقد تركت لكم نصيبى من سائر الغنيمة ؟ »

فقال طارق وهو لا يزال يرجو اقناعه : « اذا كنت تفعل ذلك نكاية فى الكونت يوليان وانتقاما منه فانتقم من غير هذا السبيل . وانت تعلم يا اخى أن عملك هذا يخالف حق الجوار ومعرفة الجميل . ماذا يقول المسلمون اذا علموا فضل الكونت فى هذا الفتح ثم قيل لهم اننا اخذنا ابنته سبية ؟ فارجع الى ما هو اجدر بك من كرم الخلق ، افعل ذلك اكراما لى وعملا بحقوق الاخوة »

وكان بدر شهما لايرضى ارتكاب هذا العار، ولكنه أحب الفتاة منذ

رآها ، وزاد تعلقا بها لانه تعب فى انقاذها فشق عليه التخلى عنها فاطرق هنيهة ثم رفع راسه وعلى وجهه دلائل البشر وقال : « صدقت ايها الامير ان اتخاذ هذه الفتاة سبية بعد غدرا وخيانة ، ولكننى احببتها ، ولا يمكننى التنازل عنها فليزوجنى الكونت اياها بشرع الله . فهل له بعد ذلك عذر ؟ »

فالتفت طارق الى يوليان كانه يستطلع رايه فقال يوليان : « ان الفتاة مخطوبة وهذا خطيبها » واشار الى الفونس

فقال بدر : « لايهمنى ، فان الخطبة يسهل حلها »

فحمى غضب يوليان لهذا الجدال وضاق صدره فقال : « لقد اطلت الكلام بلا طائل ! ان ابنتى مخطوبة وهذا خطيبها . وهب انها غير مخطوبة فلا نصيب لك فيها »

فوثب بدر ويده على قبضة حسامه وقال : « انها سبيتى فى ساحة الوغى ، اخذتها بحد هذا السيف ، فلا اتخلى عنها لأحد ولو كان امير المؤمنين . الا ان يأخذها منى بالسيف كما اخذتها »

وكان سليمان يترجم لالفونس واوباس كل ما يدور من الجدال ، فلما بلغ الى طلب المبارزة وقف الفونس ويده على قبضة سيفه وقال : « انا أولى الناس بمنازلة هذا الشاب ، وكلانا طالب ، فاينا غلب فهى له ! »

فوقف يوليان وامسك الفونس وهو يقول : « بل انا اولى بذلك منك فاذا قتلت هذا الغلام فقد انلته الجزاء الذى يستحقه ، وان قتلنى فموتى خير من وقوعى فى مصيبة ثانية شر من مصيبتى الاولى . ولا طاقة لى على احتمال الاثنتين معا » . قال ذلك وتقدم ويده على قبضة حسامه ، فسبقه بدر واستل الحسام فناداه طارق فلم يصغ ، ونادى اوباس يوليان فلم يطعه لأنهما خرجا من طور التعقل لشدة الغضب ، واقسم كل منهما انه لا يرجع حتى يقتل صاحبه او يقتل هو ، فعلا الضجيج فى الخيمة ويعقوب وسليمان فى ناحية منها يتساران !

وبدا بدر فاطلق حسامه على يوليان بعزم شديد ولولا عمود الخيمة لقتله لا محالة ولكن السيف غاص فى العمود ووقف فيه وتصدعت يد بدر لشدة الصدمة ولم يعد يستطيع اخراج السيف من العمود فاغتنم يوليان انشغاله بذلك وانقض عليه انقضاض الصاعقة ، فخاف طارق على بدر فصاح فى يوليان فلم يصغ له ، وفعل ذلك ايضا اوباس ويوليان لا يبالى . فوثب طارق الفصل بينهما بالقوة ، فرأى سليمان

التاجر قد سبقه وتوسط بينهما وامسك زند يوليان وهو يقول : «تمهل يا كونت بحياة طوماس ! »

ولم يكد سليمان يتلفظ بذلك الاسم حتى رمى يوليان السيف من يده واستلقى على الارض واخذ فى البكاء ، فبغت الجميع حتى بدر ، والتفتوا الى سليمان كانهم يستفهمون عن السبب ، فأشار اليهم ان يصبروا فوقفوا جميعا ، وتقدم سليمان الى يوليان وامسكه بيده ، وجعل يخفف عنه وهو مستغرق فى البكاء . ثم التفت هذا الى سليمان وقال : « لماذا اذكرتنى بهذه المصيبة يا سليمان ؟ »

فقال : « وهل كنت ناسيا اباها ؟ »

قال : « كلا ولكننى لم اسمع هذا اللفظ منذ اعوام ، ولو لم تحلفنى به لكنت قضيت على هذا الغلام وخلصت من وقاحته وحماقته ! »

قال : « لا تبالغ فى شتمه وانظر الى وجهه وتفرس فيه ، فانك تذكر به حبيبا تحبه وتتوهم انك فقدته وهو حى بين يديك ! »

فلم يفهم يوليان مغزى تلك الاشارة ، وكان قد جلس وتحول غضبه الى حزن . وظل أوباس وطارق والفونس واقفين وقد علتهم البغتة مما شاهدوه ، وهم ينتظرون ما يقوله سليمان . فلما سمع يوليان اشارته تنبه وتفرس فى سليمان ليرى هل هو يقول الجد او يهزل ، فراى الجد باديا فى كل جارحة من جوارحه . وقبل ان يقول كلمة نهض سليمان والتفت الى الحضور واشار اليهم ان يقعدوا ليسمعوا حديثا يريد ان يقصه عليهم فقعدوا الا بدرا ، فانه اغتنم فرصة اشتغالهم وخرج لاستبدال سيفه استعدادا لمنازلة يوليان ثانية . اما سليمان فقعد وقال : « اسمعوا أقص عليكم سرا حفظته منذ اعوام وفيه موعظة وحكمة » . واخذ يقص حكايته بالقوطية ويترجمها الى العربية . قال ووجه خطابه اولا الى اوباس :

« لا يخفى على مولاى الاسقف ما قاساه اليهود فى اسبانيا من ظلم حكامهم القوط من صنوف الاضطهاد والجور حتى اجبروهم اخيرا على النصرانية أو يرحلوا من بلادهم ، فكان منهم من رحل ومنهم من تظاهر بالنصرانية وبقى فى البلاد يسعى الى افساد امرها على الحكومة . ولا اخفى عليكم انى احد هؤلاء المتنصرين وقد قضيت مع الكونت يوليان اعواما وهو يحسبنى نصرانيا ، والحقيقة انى لا ازال على دين آبائى واجدادى . واظن مولاى الاسقف يعلم ان يعقوب (واشار اليه) حبر من احبار اليهود وغنى من كبار اغنيائهم ، قد تظاهر

بالنصرانية وادخل نفسه فى خدمة البلاط الملوكى من ايام غيطشة المرحوم ، وسعى لديه فى رفع الضغط عن اليهود ، وكاد ينجح لو لم يحل دون ذلك اجل غيطشة . فلما تولى رودريك عاد الضغط الى ما كان عليه ونحن نعقد الجمعيات السرية ونبذل الاموال فى مقاومة هذه الحكومة الظالمة وهدم اركانها . ولم تكن ندخر وسعا فى معاكستها ومعاكسة رجالها من الكونتية أو القواد او غيرهم ، ولكننا لم تكن نستطيع ذلك جهارا فكنا نفعله سرا. واتيح لى بعد تظاهرى بالنصرانية الرحلة الى الآفاق فنزلت سبتة منذ بضعة عشر عاما وتقربت من حضرة الكونت وبذلت مافى وسعى لاكتساب ثقته ، ففزت بذلك وصرت اتردد على منزله كواحد من اهله ، وكان له ولدان احدهما انثى وهى فلورندا ، والثانى ذكر اسمه طوماس. واتفق فى أثناء ذلك ان الحكومة جددت اضطهاد اليهود ، واتتنا التعليمات السرية أن ننتقم لهم بأى وسيلة كانت . فتهيأ لى ان احرم الكونت اعز ولديه وهو الصبى ، ولم تسمح نفسى بقتله فاحتلت فى سرقته وحمله معى فى أثناء اسفارى الى بعض قبائل البربر وبعته لأحد كهنتها الوثنيين بيعا رخيصا ، ولم اقل له من اين اتيت به ، فاشتراه ثم سلمه الى زياد والد الامير طارق فرباه مع اولاده . فشب الغلام لا يعرف والده ولا احد يعرفه سواى ، وسموه بدرا لبياضه وهو هذا الشاب الذى بين يديكم . وبما ان الكونت يوليان قد انقلب على حكومة القوط الآن ونصر أعداءهم حتى اصبح من أنصارنا ، فلذلك وجب علينا اطلاعه على هذا السر ! »

وكان سليمان يتكلم وهم يتطاولون بأعناقهم خصوصا يوليان فقد حسب نفسه فى حلم ، وكان وهو يسمع الحديث يبحث ببصره عن بدر فى جوانب الخيمة وقلبه يخفق . وكانت الشمس قد غابت واظلمت الخيمة واحس طارق من تلك الساعة كأن غشاوة قد أزيحت عن عينيه اذ عرف أصل هذا الغلام والتفت ونادى « بدر ! » فلم يجبه احد ثم انشق باب الخيمة ودخل بدر وقد بدل سيفه

فلما رآه يوليان وثب وهو لا يدرى ماذا يقول ونادى : « طوماس ! طوماس ! » . وهرع نحوه ، فلما رآه بدر مسرعا اليه تراجع ويده على قراب سيفه كأنه يهم أن يضربه به ، فوقف سليمان وقال : « تعال يا بدر وقبل يد الكونت ودعه يقبلك فانه ابوك ! »

فبغت بدر وحسبه يهزل حتى تقدم اليه طارق وقال له : « نحمد الله انك وجدت اباك ، وقد كنا منذ عرفناك ونحن نتساءل عنه » .

فنظر بدر الى طارق وهو يقول : «الكونت يوليان ابى وفلورندا اختى ؟ من اين آتت هذه القرابة ؟ »

وكان يوليان فى أثناء ذلك واقفا امام بدر وهو يتفرس فيه على نور الشفق ، ثم جاءوا بمصباح تناوله يوليان بيده وجعل يتفرس ببدر ويتأمل ملامحه ومعانى وجهه فتذكر بعد قليل ان لتلك الصورة شبها فى ذهنه ، فثار الحنو فى قلبه فاكب على بدر وضمه الى صدره وجعل يقبله ويتنشق ريحه ويبكى بكاء الفرح ، والناس وقوف وما فيهم الا من تحركت عواطفه لذلك المنظر الغريب ، ولم يتحقق بدر انه فى يقظة الا بعد قليل فقبل يد والده ووقف كأنه أصيب بالجمود !

مضت دقائق قليلة واهل الخيمة يتبادلون عبارات الاستغراب ويحمدون الله على نجاة بدر من سيف والده بفضل سليمان . ثم التفت اوباس وهو لا يزال الى ذلك الحين مكشوف الراس محلول الشعر كما جاء وقال لطارق : « يأمر الامير طارق حفظه الله ان تأتى ابنتنا فلورندا الى هنا ليتم التعارف »

فقال طارق : « واين هى فلورندا يا بدر ؟ » . قال : « هى فى خيمتى » فأمر سليمان أن يأتى بها

وكانت فلورندا بعد أن جاءت تلك الخيمة قد اصلحت من نفسها وهى تتوقع ان يأخذوها الى ابيها فلما ابطأوا طلبت من الحراس ذلك فلم يفهموا مرادها على انهم افهموها بالاشارات أنها لن تبرح الخيمة، فمكثت ومعها خالتها الى العشاء اذ جاءها سليمان فلما رأته استأنست به وهشت له وقالت : « اين والدى ؟. اين الفونس ؟ »

فضحك وقال : « ان والدك مشتاق الى رؤيتك وسترينه قريبا ، واما الفونس فلا أرب لك فيه بعد الآن لأن الفارس العربى الذى انقذك من يدى رودريك لم يقبل الا ان تكونى له عروسا ! » . فبغتت وقالت : « وهل قبل والدى ذلك ؟ » . قال : « وماذا يفعل ؟ » . قالت : « والفونس كيف فعل .؟ لا اقبل احدا غيره يظهر يا سليمان انك تمزح »

قال : « تعالى وانظرى مجلس ذلك الشاب من ابيك »

فخرجت فلورندا وخالتها بجانبها ومعهما سليمان حتى اقبلوا على خيمة طارق ، فدخل سليمان واشار اليهم الا يتكلموا فدخلت فلورندا والبغتة غالبة على فرحها بلقيا والدها ، فسبقها سليمان الى بدر واخذه بيده وجاء به اليها وقال له : « قبل فلورندا يا بدر ! »

فأجفلت هي وتراجعت فصاح بها ابوها : « قبليه يا فلورندا ! »
فلما سمعت ذلك وتحققت ان اباها اراده لها زوجا حولت وجهها عنه واخذت فى البكاء وهى تقول : « لا . لا حاجة لى بذلك »
فوقف عند ذلك يوليان وضم ابنته بيمينه فقبلت يده وقبلها ، ثم ضم بدرا بيساره وقبله وقال : « قبليـه يا فلورندا . انه اخـوك طوماس الذى فقدناه منذ بضعة عشر عاما »
وكانت فلورندا تسمع وهى طفلة انه كان لها اخ وضاع وقطعوا الامل من حياته ، فلما قال لها ابوها ذلك تفرست فى بدر وهى لاتعرف صورته وما زال الخجل يمنعها من تقبيله ، حتى نهض اوباس وناداها فاجفلت لانها لم تكن تتوقع أن تسمع صوته هناك والتفتت فلما راته هرولت اليه وأكبت على يده فقبلتها والعبرات تتسابق الى عينيها وهى لاتعلم ماذا تقول
اما هو فباركها وقال : « نحمد الله على سلامتك وعلى وجود اخيك بعد ان قطع الأمل من لقائه ، ونحمده على التقائك بالفونس ونجاتك من الشراك »
فتصدى الفونس وقال : « ان نجاتها يا عماه يرجع الفضل فيها اليك وحدك ، فانك بركتنا ونعمة من الله لنا » . واختنق صوته ، فتنهد اوباس وقال : « ياليتنى استطعت ما أتمناه . ولـكننى لو استطعته ما التقى بدر بأبيه واخته ، ولا التقيت انت بخطيبتك . المرء يسعى فى سبيل ، والله يدبر من سبيل اخرى . هذه ارادة المولى فما علينا الا أن نشكر الله على ما وقع »
وكانت الخالة العجوز واقفة فلما قيل لهـا انهم وجدوا طوماس ودلوها عليه ضمته الى صدرها وقبلته وسلمت على يوليان والفونس، ثم تناولت يد اوباس فقبلتها وقالت له : « بقى امر لا يتم سرورنا الا به ، ولا يقدر عليه سواك »
قال : « اظنك تعنين زفاف فلورندا الى الفونس ؟ وهذا واجب على لانى واضع عربون الخطبة فامهلينى الى مساء الغد » فلم تستطع الاعتراض
ثم وقف طارق وقال : « يسرنى ان يتم لكم هذا الاجتماع فى يوم نصرنا الله فيه ، وانتم منذ الآن فى ذمتى فتقيمون حيثما تشاءون آمنين مطمئنين مكرمين ، انتم ومن يلوذ بكم »
وقضوا برهة يتحادثون فى شؤون مختلفة وعينا فلورندا لم تنتقلا عن عينى الفونس ، ناهيك بما دار بين العيون من الحديث الخفى ،

حتى اذا انقضى هزيع من الليل قال يوليان : « هلم بنا ننصرف الى مراقدنا فاننا نحتاج الى الراحة بعد ما قاسيناه من العناء فى اثناء النهار » ، قال ذلك وخرج فتبعه اوباس والفونس وفلورندا وبدر ، ودل يوليان كلا منهم على مكان ينام فيه . وتذكر الفونس يعقوب فبحث عنه فلم يره بينهم فظنه ذهب للمنام فى بعض الخيام

☐

باتوا تلك الليلة ولا نظنهم استطاعوا رقادا لفرط تأثرهم من ذلك الملتقى الغريب ، ولما اصبحوا احب اوباس ان يشرف على تلك الموقعة ثم يمر بين المعسكرين ليعلم من مات من كبار الدولة ومن هرب ، فمشى ورافقه يوليان وبدر والفونس ، فراوا الجثث مبعثرة هنا وهناك ، وعرفوا من القتلى جماعة من القواد فى جلتهم كوميس فأسفوا عليه اسفا شديدا . ثم مروا بخيمة الملك فراوا بالقرب منها الأب مرتين مجندلا فلم يشأ اوباس ان يتفرس فيه ، ولما عادوا من ذلك الطواف طلب اوباس من طارق ان يأذن لهم بنقل بعض الجثث للصلاة عليها ودفنها ، فأجابه الى طلبه فنقل جثث القواد وجثة مرتين وصلوا عليها ودفنوها . فلما رأتهم فلورندا يدفنون الموتى ذهبت الى اوباس واخبرته بمقتل اجيلا وشانتيلا وطلبت اليه ان يصلى عليهما ويدفنهما، فأجابها الى ما طلبت وقد اسف لقتلهما ، فدفنهما ودفن معهما من قتل من اولاد الشيخ صاحب الكرم . ولما اخبرته بما كان من دفاع الشيخ واولاده عنها اوصى طارقا به وباهله خيرا

ولما غربت الشمس تهيأ الفونس لعقد اكليله على فلورندا فى خيمة يوليان فاحتفلوا بذلك على ابسط الطقوس وقلوب الجميع تطفح سرورا لذلك اللقاء ووجوههم تبتسم ، الا اوباس فانه ما زال ساكنا كعادته لم يتغلب عليه فرح ولا حزن . وبعد تمام الاكليل سألهم اوباس عن المكان الذى يفضلون الاقامة فيه فقالوا : « حيثما تريد انت » . فقال : « اما انا فاتركونى وشانى »

فقالوا : « كيف نتركك وانت حكيمنا ومرشدنا ؟ »

قال : « لو كنت كذلك لنفعتكم . اننى سأقضى بقية هذه الحياة فى العبادة والصلاة منقطعا عن هذا العالم فقد رأيت من شروره ما كفانى . وهل اتوقع ان ارى بعد هذه الواقعة غير ما يزيد اسفى ويضاعف حزنى ، وانا لا استطيع العمل بما يدعونى اليه ضميرى ويستحثنى عليه الواجب ؟ فالاولى بى أن اقضى بقية هذه الحياة فى

مكان لا أرى فيه بشرا . ولا يراجعنى احد منكم فى ذلك »

فلم يستطع احد ان يراجعه الا رجل تصدى له من جملة الحضور وقال : « وانا أين اذهب ؟ »

فتوهم الفونس انه يسمع صوت يعقوب ولكن القيافة غير قيافته. اما اوباس فعرفه فقال : « هذا يعقوب قد وفى نذره واصلح لحيته واغتسل ! »

فتذكر الفونس شيئا من ذلك منذ اجتمع بعمه فى طليطلة ، فنظر الى يعقوب فاذا هو حسن الهندام وقد أصلح لحيته وتزيى بزى حاخامى اليهود تماما فقال له : « ماذلك يا يعقوب ؟ »

قال : « قد آن لى وفاء النذر والتحرر من ربقة الذل ، اذ اصبح الناس بعد هذا الفتح احرارا يتبع كل رجل دينه . وانا يهودى جنسا ودينا ، فأحب الرجوع الى مذهبى ، فأصلى فى كنيستى واقرا فى كتابى »

وباتوا تلك الليلة فلما اصبحوا لم يجدوا اوباس فى خيمته ولا فى سائر المعسكر ولا عثروا عليه من ذلك الحين . فعلموا انه ذهب للتنسك كما قال

واما الفونس ويوليان فظلا عونا لطارق وجنده حتى أتم فتح الاندلس ، وقلما لاقى مشقة بعد تلك الواقعة الا فى استجة فانهم ساروا اليها توا بعد واقعة شريش وحاربوها حربا شديدة ، فلما فتحوها وقع الرعب فى قلوب الناس وهربوا الى طليطلة فأشار يوليان على طارق ان يفرق جيوشه فى مدائن الاندلس لأن الناس اخلوها وساروا الى العاصمة ، فبعث جيشا الى قرطبة ، وجيشا الى غرناطة ، وجيشا الى مالقة ، وجيشا الى تدمير ، وسار هو ومعظم الجيش الى طليطلة فوجدها خالية لأن اهلها لحقوا بمدينة خلف الجبل . اما الجيش الذى سار الى قرطبة فقد دلهم راع على نفق دخلوا منه البلد وملكوه . والذين قصدوا تدمير فتحوها بالسيف وفتحوا غيرها من المدائن . اما طارق فلما راى طليطلة فارغة ضم اليها اليهود وترك معهم رجالا من أصحابه وسار فى اتمام الفتح كما هو مفصل فى كتب التاريخ

السنة ١ روايات الهلال العدد ١

صاحباها ورئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكرى زيدان

مدير التحرير : طاهر الطناحى

يناير ١٩٤٩ * ربيع الأول ١٣٦٨

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى مصر والسودان ٦٠ مليما ـ فى الأقطار العربية عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ٨٠ قرشاً سورياً ـ فى لبنان ٨٠ قرشاً لبنانياً ـ فى فلسطين ٧٥ ملا ـ فى شرق الأردن ٨٥ ملا ـ فى العراق ٩٠ فلساً

قيمة الاشتراك عن سنة (١٢ عدداً) : فى القطر المصرى والسودان ٦٠ قرشاً ـ فى سوريا ولبنان ٨٠٠ قرش سورى لبنانى ـ فى فلسطين وشرق الأردن ٨٠٠ مل ـ فى العراق ٨٠٠ فلس ـ فى المملكة العربية السعودية ٨٠ قرشاً صاغاً أو ١٧ شلناً ـ فى الولايات المتحدة وكندا وكولومبيا والمكسيك والأرجنتين ٦ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ١٠٠ قرش صاغ أو ٦/٢٠ شلناً

طريقة الدفع

فى مصر والسودان : نقداً أو بموجب أذونات أو حوالات بريدية أو شيكات ـ **فى خارج القطر المصرى** : بموجب شيك على أحد بنوك القاهرة أو حوالة بريدية « Money Order » أو الى أحد وكلائنا اذا كان هناك وكيل . ولا يمكن قبول أذونات البريد أو العملة الأجنبية

ملاحظة هامة : وكلاء روايات الهلال هم وكلاء الهلال

مركز الادارة : دار الهلال ١٦ شارع المبتديان . القاهرة ـ مصر

المكاتبات : روايات الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٤٦٠٦٤ (ثمانية خطوط)

الاعلانات : يخاطب بشأنها قسم الاعلانات بدار الهلال